حكايا المنسيين

ما روي عن ابن أيوب

بَابْر

إبراهيم أحمد عيسى

فريق
متميزون
E-BOOK

كتوبيا
KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE

رواية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

<u>انضم الى الجروب</u>

<u>انضم الى القناة</u>

بَابْر
(ما روي عن إبن أيوب)

إبراهيم أحمد عيسى

عن الرواية..

لم ينجُ أحد من تلك المعركة سواي، أبكي ولا أعلم إن كانت الدموع تتجمد على وجنتي أم تزيد البحر ماء فوق مائه، لطالما أخبرنا أبي أيوب إن للبحر روحًا مثلنا. والآن أسأل نفسي: هل يبكي البحر مثلنا؟!

أنا يونس، تُغلفني الظلمات، أسمع أنين حيتان تنعي مصابنا، وأناجي الله هل لي من نجاة!! خرجت من داري مغاضبًا. ذهبت وتركت بَرَّ مصر ورائي؛ أُقامر بحياتي أمام أعين الموت، ساعيًا إلى بطولة يخلِّدها الزمان، ولكن رياح الحياة كانت تتقاذفني بين سيوف المماليك وسفن البرتغاليين الغازية أرضَ الحجاز والهند. وهذه ليست حكايتي وحدي، بل حكاية سلطان وبحار وبابر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهداء

إلى عمِّي «العربي عيسى»،

وعمِّي «العربي أبو بلال الهواري».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دع الشطآن لا تركن إليها

ضعيفٌ عندها جرس الحياة

عليك البحر، صارعْ فيه موجا

فحياة الخلد في نصَب تواتي

محمد إقبال

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

ساحل ديو – المحيط الهندي.

غَسق دموي، وبحر هائج يموج بالحطام، ودخان كثيف يخنق الهواء، وسعير متأجِّج يأبى الخمود، وأنا.. أغرق ثم أطفو، وتحاول روحي التشبث بأي أمل للنجاة. والموت يجذبني إلى أسفل، يَدفع بماء البحر عَنوة نحو فمي، وصوت بداخلي يُخبرني أن أترك جسدك لظلمة القاع، ولكن النَّفس تطوق للنجاة، فأسبِّح مبتعدًا على الرغم من الإنهاك الذي ألمَّ بساعديَّ، وتبحث أناملي عن قشة أتعلَّق بها؛ تجذبني خارج الكابوس الذي دام طويلًا. قاومت الموت وحاربته على الرغم من الخوف الذي يتملكني، وتتناهى إلى مسامعي أنات وصرخات استغاثة، ما لبثت أن راحت تخفت وتخفت، ثم ساد السكون.

فتحت عيني. لست حيًّا ولا ميتًا، ممددٌ على لوح خشبي يُبحر بروية، وتلفُّني حبال غليظة خشنة كأذرع حبار عملاق، لا قمر يزيِّن السماء ولا وهجَ لنجوم أو نيران، لا شيء سوى ضباب خفيف يغشى كل شيء.. رباه! الصمت موحش والفزع يغرس مخالِبَه في ثنايا عقلي، برودة الموت تسبقه، إنه هنا يتلاعب بأوصالي، أرتجف بشدة فتصطك أسناني، وقدماي يضربهما خدر ولم أعد أشعر بها، أتحيَّن مترقِّبًا لحظة الانقضاض وجذبي إلى أسفل.. أغفو وأفيق محدثًا نفسي، ربما مِتّ وتلك حياتي الأبدية، أبحر في البرزخ في انتظار الحساب، جوفي يُكوَى بمياه البحر المالحة، وما تمنيت إلا بضع قطرات من ماء عذب ففاجأتني موجة خفيفة ناعمة، غمرتني وكأنَّ اليَمَّ يخبرني بملوحته أني مازلت حيًّا، بوهن، رحت أجدَّف بيديَّ ملتمسًا طريقي وسط الضباب واصطدمت بهم. كل من عرفتهم صاروا أجسادًا طافية خاوية من الروح، البخار انقَشَع رويدًا وما كنا نفخر به بالأمس صار مجرد حُطَام ابتلع منه البحر الجزء الأكبر، بقايَا صواري مهشمة وأشرعة مهترئة تطفو على مهل، لم ينجُ أحد من تلك المعركة سواي، أبكي، ولا أعلم إن كانت الدموع تتجمد على وجنتي أم تزيد البحرَ ماءً فوق مائه، طالما أخبرنا أبي: أن للبحر روحًا مثلنا. وذات نهار قالت أمي جازمة: البحر مَلَك من ملائكة الله، والآن أسأل نفسي: هل يبكي البحر مثلنا؟!

أنا يونس، تُغلِّفني الظلمات، أسمع آنين حيتان تنعَى مُصَابنا، وأناجي الله هل لي من نجاة!! خرجت من داري مغاضبًا سارقًا، لم أنصت لأمر والدي، ولم آبَه بنُصح إخوتي، ذهبت وتركت بَرَّ مصر ورائي، وصار البحر قبري كما تنبَّأ أخي سُليمان. ليت بوارج العدو تعود أدراجَها لتنبش الحطام، كنت في يوم أقامِر بحياتي أمام أعين الموتِ، ساعيًا إلى بطولة يخلِّدها الزمان، وحين حاصرني، أناشد بما تبقَّى فيَّ من رمق أي سبيل للحياة. جفناي يتهالكان وقد خارت قواي، والليل أتى ووحوش البحر تحوم من تحتي، لا نجوم ولا كواكب تشهد النهاية ولا مُشيع لجنازتي سوى الصمت، لعلَّ هذا حُلم أو جاءتني سِنَةُ نوم، تمنَّيْت لو يوقظني أيوب أو أحد إخوتي قبل أن يبتلعنيَ البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«يونس! يونس! لقد عادت المنصورة»

همس بها صالح في أذنه وهو يناوله لوحًا خشبيًّا، أخذ اللوح بعصبية، وعيناه تفيضان بالحنق وخيبة الأمل، الأمر الذي جعل صالح يزُم شفتيه وهو يلقي نظرة على أبيهما الذي يوليهما ظهره، كانَا يفكِّران في طريقة للذهاب ورؤية سفن الأسطول المملوكي العائد من الهند، طالما انتظروا تلك اللحظة وتفاخروا على بقية رفاقهم وإخوتهم، بأنهم يعملون بالقرب من دار صناعة السفن، مما يتيح لهم رؤية كل نفيس وغريب، ويحظى كل منهم بأعِطية من البحارة إن ساعدوهم في حمل متاعهم والترحيب بهم بقدرٍ من فاكهة وادي الطليمات الشهية الطازجة وقِرَب الماء العذب.

- صالح، اذهب للمنزل وأتِنا غداءنا.. وإلا سأجعلك تنقل كومة الأخشاب تلك إلى السوق وحدك.

جاءتهما كلمات أبيهما الصارمة لتبدد آمال يونس وما رتب له منذ رحلتِ السفن في مطلع العام، أكثر من خمسة أشهر انتظرَ فيها تلك اللحظة، وها هي ستصير ماضيًا يتحسر عليه مُسبقًا، يبعد عن المرفأ بضعة أمتار، ولا يتسنَّى له الذهاب! أي حظٍّ عاثرٍ أصابه، ضرب بمطرقته مكدة حديدية حادة الطرف عذَّبت اللوح الخشبي، أخذ يكشط دون أن يبالي بما فعل صالح الذي تجاوزه متَّجهًا إلى حيث يقف أبوهما، وبنبرة يشوبها التردد قال:

- أبي، هل من الممكن أن تسمح لنا برؤية المنصورة؟ لقد عادت و...

جفَّت الكلمات في حلقه حين استدار له أبوه، بينما استمر يونس في عمله وجملة أبيه المقتضبة تخرق سمعه: ومن سيقوم بعملكما؟!

- لن أعود للمنزل الليلة قبل أن أنهيَ كل ما طلبت مني.

- وماذا عن يونس؟ أيوافقك الرأي في هذا؟

تظاهر يونس بالانشغال عن حديثهما وكأنه أصمُّ، مستمرًّا في نحت اللوح، وأبوه يردف مناديًا إياه: يونس! أسمعت ما قلت أم إنك لا تريد الذهاب؟

رفع يونس رأسه تجاه أبيه الذي كان يَعلم مكنون صدره، وزَّع أيوب نظراته بين ولديه قبل أن يعود إلى منشاره قائلًا: اذهبا وابتهجَا، ولكن ستعاقبان إن تأخَّرتما.

النوارس تحلق بكثافة فوق الصواري العالية، صياحها امتزج بحالة الهرج على رصيف المرسى المكتظ بخلق كثير، رءوس مشرَئِبَّة وعيون فرحة برسو السفينة السلطانية المنصورة، بطسة عملاقة عظيمة البُنيان من خشب الساج المخروز بخشب جوز الهند، حُفِر على جانبيها من الأعلى آيات وأبيات شعر اقترنت بعبارات تمجيد، ووسم السلطان مثبت على مقدمتها المتينة، وأعلى صواريها كانت راية المماليك الذهبية، ذات ثلاثة أهلَّة سوداء تخفق بانسياب، ويعمل على لملمة أشرعتها الكبيرة ما يناهز العشرين بحارًا، يعقدون حبالًا من ليف النارجيل حول التروس والأوتاد، وآخرون يجهزون الصناديق والمتاع، لم يمض كثيرٌ وقت حتى أُنزل الجسر الخشبي الكبير، في البدء كانت طوابير الجند ومن خلفهم البحارة تحيط بهم الصيحات والتهليل، بهجة عمَّت وجوه الزوجات والصغار، استقبال صاخب حظيَ به طاقم المنصورة وبقية السفن التي رست بالمرفأ تباعًا.. اندسَّ يونس وأخوه صالح بين الناس حتى صاروا في مقدمة الصفوف، رأيَا رئيس السفينة ينزل ومن خلفه ستة رجال يحملون صناديق مذهَّبة، فيما أخذ الجند يُفسحون الطريق للأمير المملوكي نائب السلطان

على وادي الطليمات والقلزم، استقبل البحارة وقائدهم بحفاوة بالغة، يتضاحكون ويتحدثون متبادلين عبارات الثَّناء، ومن بين الجموع ظهر المَعلم حسين الكردي شاهبندر تجار القلزم -السويس- ثريٌّ مقرب من أمراء السلطان ومماليكه، ولا تخلو مجالسه من أولاد الناس، رجل يحبه أهل المدينة كلها، ذو وجاهة وهندام فخم زاهٍ، عريض المنكبين طويل القامة، يمشي بخطوات ثابتة، وزادته لحيته السوداء الممشطة هيبة بفعل ما طالها من شيب، رائق الوجه مبتسم على الدوام إلا في تلك اللحظة، كان متجهمًا يبدو عليه أثر الضيق، بدى ذلك جليًّا على قسمات وجهه حين مر بهما وهو في طريقه إلى رصيف الميناء، من خلفه كانت تسير مجموعة من السادة والتجار وأولاد الناس، وبينهم كان أخوهما سُليمان الذي رماهما بنظرة ساخرة متعالية وأكمل السير خلف المعلم حسين، لكز يونس أخاه صالح: سليمان صار مقربًا من شاهبندر التجار.

أومأ صالح برأسه قبل أن يجذب يونس من ذراعه: دعنا نذهب إلى حيث رسَت الجلابات المحملة بالنفائس.

مضوا على الرصيف المزدحم إلى حيث السفن التجارية، خمسة سفن، ثلاثٌ منها مازالت في مدخل الميناء في انتظار الرُّسو بعد أن تفرغ غيرها حمولتها. صناديق ضخمة وأجولة كثيرة، انهمك عمَّال أشداء في نقلها دون كلل، حركة البِغَال والحمير لا تتوقف، والرافعات الخشبية ذات التروس العملاقة والحبال الغليظة تتحرك ببطء لنقل مزيد من الصناديق ولفائف الجلد والأجْولة.. بحثَا بعينيهما في الوجوه حتى وقع نظرهما على رئيس إحدى السفن، يعطي أوامره لثُلَّة من رجاله، توجها إليه ووقفَا على مقربة منه وكل واحد منهما يحث الآخر على التقدم، وهما على هذه الحالة التفت إليهما الرجل الوقور وراح يرمقهما.. ساد الصمت لبرهة قبل أن يشير إليهما للتَّقدم، ما إن اقتربا سألهما بلطف: ماذا تريدان؟

تلعثم صالح وتحدث يونس بثقة: نود مساعدتكم في إنزال الحمولة إن أردت..

- العمل سيكون شاقًّا عليكما؛ أولستما صغيرين؟

قال يونس في تحدٍّ: إننا كبيران، أتمم كل منا أربعة عشر حولًا، كما إننا نجاران في دار السفن، وذات يوم سنصبح بحارة.

لمعت عين الرجل وهو يتأمل وجه يونس:

- ما اسماكما؟؟

- أنا يونس وهذا أخي صالح، ابنَا أيوب بن نوح المصري، النجار ألا تعرفه؟! أشهر صانع سفن ومراكب في القلزم كلها، كذلك كان جدي نوح رحمه الله.

ضحك الرئيس وربت على رأس صالح الأقرب إليه: حسنًا. والتفت مناديًا: يا أبا العباس، اجعل يونس وأخاه يساعدانك في ترتيب بطن السفينة وأجزل في العطاء.

ساعة قضوها مع البحار الشيخ، يساعدانه في ترتيب قمرة الربان، رأيَا عديدًا من الذخائر العجيبة والصناديق العاجية التي تخص أمير البحر الرئيس إبراهيم الصباغ، أطباق مزخرفة وخرائط جمة،

وكثير من أدوات الملاحة النحاسية الغريبة. أخبرهما البحار أبو العباس كثيرًا من أسماء الأدوات، وأن بعض هذه الخرائط هي لمواقع النجوم وسُبل الإبحار. بعد أن فرغوا من تنظيف وترتيب القمرة وتزويدها بما تحتاجه اتجهوا إلى بطن السفينة، كان مضاءً بقناديل زيت معلقة تتأرجح تحت العوارض الخشبية، العمل مازال جاريًا في ذلك الجزء، العمال ينقلون الأغراض والبضائع، وآخرون يمسحون الأرضية الزلِقة، ومجموعات من العبيد يتسامرون، بينما يتناوبون على حمل جرار فخَّارية لأعلى، الأمر أشبه بمملكة من نمل تسكن جوف جذع خشبي عملاق، تابع الأخَّان حركة البحارة والعمال، وألسنتهم لا تكلُّ عن السؤال كلما رأيَا شيئًا، انبهروا حين شاهدَا أقفاص بها طواويس وغزلان وطيور غريبة ملونة لم يروا مثيلًا لها. بعد أن انتهيا من عملهما، منح الشيخ أبو العباس كل منهما قُفَّة صغيرة من الحرير برتقالية اللون مزينة بزخارف بيضاء كهيئة الورد والأغصان، تحوي ثمرة جوز هند وبعض الثمار الغريبة، وكانت جائزتهما الثمينة صرة صغيرة من القماش المخملي، تحوي صنفًا من التوابل ذات الرائحة النفاذة. بكل فرحٍ شكرَا للشيخ الذي ابتهج لسعادتهما، وفي طريقهما لمغادرة السفينة جاء أحد العمال يحث الخطى تجَاههما وعلى وجهه تجلَّت علامات الحسرة والحزن، وقفَا خلف أبي العباس والبحار الشاب يخبره أن الببر مات.. لم يفهما ماذا يقصد، ويبدو أن الخبر أصاب الشيخ بالضيق، تركهما وذهب خلف مساعده إلى كوة في مؤخرة السفينة نزل إليها وغاب قليلاً قبل أن يعود، ومعه ستة رجال أشداء يحملون شيئًا ما، سَبُعٌ ضخم جدًّا رُبطت أرجله الأربعة بعارضة خشبية طويلة، وتدلَّى ذيله. له فراء برتقالي موسوم بخطوط سوداء، كانت المرة الأولى التي يرون فيها شيئًا كهذا، إنه الببر الهندي، نمر، جيء به ليزين حديقة قصر السلطان الغوري، ولكنه آثر الموت على أن يظل حبيسًا في قفص يشاهده البشر. على الرغم من أن ذلك الوحش ذا الفراء ميِّت إلا إنه مهيب حد الخوف.

رجعَا إلى المنزل برفقة أبيهما، استمع لهما بينما يرويان عليه ما رأوه من عجائب، وبعد العشاء جلس أيوب ومن حوله بنِيه، بينما نهضت زوجتاه وابنته يلملمن الصحون وما تبقى من الطعام، والأب يسأل:

- سليمان كيف كان يومك في السوق؟

- كان يومًا حافلًا يا أبتِ.. لا أعلم هل سمعت بتلك القصص عن الأسطول الصليبي الذي يهاجم سفن الحج القادمة من الهند إلى مكة والحجاز؟!

طأطأ أيوب رأسه:

- نعم، الخبر انتشر اليوم. يقول الناس إن للبرتغاليين قاعدةً عظيمة الآن على ساحل الهند، وذلك بعد انتصارهم على إخواننا في سلطنة كاليكوت، والآن يتخذون منها مركزًا لشن هجماتهم على المسلمين برًّا وبحرًا.

وافقه سليمان بإيماءة قبل أن يردف بصوت خفيض:

- نعم، وهناك ما هو أكثر، اليوم وصلت للمرفأ المنصورة وخمسة جلابات فقط، ولكنهم حين خرجوا من ميناء ديو بساحل الهند كانوا عشر سفن.. لقد أغرق البرتغاليون أربعة مراكب وجُلهم كانوا ملك

المَعلم حسين الكردي. لقد خسر الرجل كثيرًا من البضائع وأربع سفن، استشاط غضبًا حين علم بالأمر وتكلم بحدة مع الأمير المملوكي ورئيس المنصورة إبراهيم الصباغ.. سفن السلطان وحدها نجت! أما سفنه هو فقد ابتلعها البحر عند جزيرة يسمونها سقطرة.. البرتغاليون صاروا أقرب لبر مصر والحجاز، والخطر قد يصل إلى مكة والمدينة، هكذا قال الشاهبندر حسن للأمير أمام السادة وأولاد الناس.

نطق يحيى مقاطعًا:

- أولاد الناس ومن اعتدت الجلوس معهم هم سبب كل خراب.

رمقه أبوه بنظرة غاضبة وإشارة من يده ثم وجه حديثه لسليمان:

- وما كان رد الأمير المملوكي؟

- ماذا سيقول غير إنه تأسَّف للأمير وأقر أن هناك خسائرَ كثيرة هذه الأيام، وأن طريق التجارة مع الهند صار صعبًا. الأمر فوق طاقة الأمير، هناك كساد في أسواق القاهرة وبندر الإسكندرية ودِمياط، صاروا يعانون من قلة البضائع، سفن البندقية ترسو في ميناء الإسكندرية منذ أشهر تنتظر البضائع القادمة من الهند، ولكن دون جدوى. سَمعت أن وفدًا سيذهب إلى القاهرة في الأسبوع القادم لملاقاة السلطان الغوري ليتدخل في الأمر. فمنذ اكتشاف ذلك الطريق البحري رأس الرجاء الصالح، وتحوَّلت معظم السفن إليه وصارت لشبونة في بلاد البرتغال مركزَ تجارة التوابل في أوروبا بدلًا من البندقية. إن ظلت الأمور على هذا المنوال سيقضي على كل سبل التجارة.

بسط الصمت رداءه على المجلس، لم يقطعه إلا يونس:

- لماذا لا يُوقِف أحد هؤلاء الإفرنج المعتدين؟؟ ألا يكفي أنهم أخذوا منا الأندلس، والآن يعيثون فسادًا في البر والبحر. أين سلاطين الهند من هذا الأمر؟!

تدخل يحيى معقبًا بهدوئه المعتاد ونبرته العميقة:

- غرَّتهم الحياة الدنيا ويتنافسون بينهم على الملك ويهاجم بعضهم بعضًا.. كذلك يفعل الحجازيون. أما سمعتم عن الحرب الدائرة حول مكة بين الأخَّين؟! الشريف بركات وأخوه الجازاني الذي يعادي السلطان الغوري ويهاجم قوافل الحج أيضًا.. مثله كمثل الصليبيين. والسلطان الغوري يلهو في قلعته تاركًا زمام الأمور لمماليكه الذين يزدادون بطشًا بالناس يومًا بعد آخر، كلٌّ منشغل بمُلكه وما تحت يده فقط.. العالم صار مجنونًا بالحرب وأصبح المسلمون في موقع المُدافع، بينما المماليك وحاشيتهم لا يأبهون بشيء سوى أنفسهم.

أدلى صالح دلوَه هو الآخر قائلًا بنبرة حادة تفيض بالحماسة:

- عدونا الآن الإفرنج البرتغاليون والذي سيحطمهم السلطان الغوري كما فعل قايتباي وقلاوون وبيبرس من قبل مع أسلافهم. سلطنتنا قوية وتستطيع التصدِّي لكل المارقين. نحن صخرة صلدة ستتهشم عليها سفنهم، وستُعلق رءوس الخونة لتزين باب زويلة وأبواب القاهرة.

كان أيوب ينصت لبنيه باهتمام وغبطة، صاروا رجالًا الآن على الرغم من أنهم لم يتخطوا الخامسة عشر، إلا إن لكل منهم سَمت ورؤى خاصة.. أغدقت عيناه عليهم باحتواء وعُجب، شرد إلى جُزر الذكرى ببحر وجدانه والحديث المتباين بينهم لا يتوقف، زواجه من فاطمة الأصيلة التي تحمَّلته لسنوات، منهن إحدى عشرة سنة لم يرزقَا فيها بولد، جابت فيهم فاطمة على العطارين والعشَّابين والقابلات في بر مصر من الصعيد وحتى الإسكندرية. نذرت النذور، وابتهلت عند أضرحة الصالحين ولكن دون جدوى، أرادت أن تلد له ما كان يُمنِّي به نفسه، ولد واحد، وإن جاء فسيهبه لله مجاهدًا في سبيله. نذرٌ صاحَ به في السوق أمام الناس جميعًا وقتما جاءهم خبر سقوط مدينة مالقة الأندلسية في يد القَشتاليين، حاج مغربي نشر الخبر بالسوق وكيف تم حصار المدينة الأندلسية حتى مات كثير من أهلها جوعًا. وبعد أشهر عاد للمنزل ليجد مفاجأة أعدَّتها فاطمة.

قدمت له عروسًا، وهبتها له عن طيب خاطر، كان الأمر عجيبًا حقًّا، كيف لفاطمة أن تفعل هذا، وهو الذي لم يشتكِ يومًا، غضب منها غضبًا شديدًا وعاتبها، أخبرته أنه صبر معها كثيرًا وهذا حقه الذي كفله له الله، لم تكن أنانية وآثرت أن تسعده. والفتاة كانت جميلة، عيناها الواسعتان يحتضنان حجرًا نفيسًا من كهرمان صافٍ، وشعرها البُني الناعم ينسدل برقة على عنقها الطويل المرمري، صغيرة السن ربما، ولكنها تشبه تلك القصص عن أميرات ما وراء النهرين ببلاد فارس، وعلى الرغم من أنه أظهر رفضه أمام فاطمة إلا أن فيروز سلبت لُبَّه منذ الوهلة الأولى، أخبرته فاطمة أنها اشترتها من حر مالها الذي ورثته عن عمها الذي كان مقربًا من أحد أمراء المماليك، أرادت أن تُسعده لعله يحظى بالولد الذي يتمنى وتعود البسمة إلى حياتهما التي ملأها الكَدر. وكان كرم الله أكثر مما توقع أيوب، ففي الليلة نفسها التي حملت فيها فيروز حملت فاطمة أيضًا، جاء إلى فاطمة بعد أن أنهك العروس الجديدة، وآوى إلى كنف راجحة العقل راغبًا محبًا، ونثر بذرته في رحمها الخصب.

ولكن ما غيَّر حياته هو اليوم الذي جاءهن المخاض، شَعر حينها أنه مُجتبى، وأن الله منحه معجزة لغاية ما. أخبرته القابلة أن زوجتيه أنجبتا توءمًا لكل منهما، يحيى وصالح لفاطمة، وكان الشبه بينهما طفيفًا وإن ورثَا عن أيوب قوامه الفارع وشعر فاطمة المجعد، وأنجبت فيروز يونس وسليمان وكانا متطابقي الشبه، وورثا عينَا أمهما بندقية اللون وشعرها البُني الكثيف، إلا إن يونس كان أقصر قليلًا من سليمان وأشد قوة وصلابة، وصار لدى أيوب أربع صبية يكبرون على عينه، قد وهب الله كل منهم شيئًا يميزه عن الآخر، وأصبح أهل الحي وألسنتهم لا تذكر سوى قصة أيوب الذي ولد له في يومين أربع أولاد بعد أن كان عقيمًا. ومرت ثلاثة أعوام وجاءته بشرى من فيروز بأنها حُبلى، وما لبثت بعد سبعة أشهر أن وضعت بنتًا مليحة التفاصيل جميلة الوجه كأمها، ولكن البُشرى في ذلك اليوم اقترنت بحزن أهل المدينة؛ إذ جاءهم خبر نزل على الرءوس كالصاعقة.. جزم بعضهم بدنو الساعة واقتراب النهاية، سقطت غرناطة، آخر ما تبقى من أرض الأندلس، والنذر مازال معلقًا في رقبة أيوب، أيهم سيهبه إلى الله؟

«أبي، أمي تنتظرك في غرفتها». كلمات خافتة جذبته من بحر أفكاره، الصغيرة ذات الجدائل والعيون الواسعة كأمها، تَطلع في وجهها رقيق الملامح وابتسم، ورد، أسمتها فاطمة نسبة إلى شامة تشبه الزَّنبقة بفخذها الأيمن، وتقبَّلت أمها الاسم من فورها، لم تعترض، وقد كانت تعلمت في ديارها التي بالكاد تذكر المولود يولد باسمه، فقط يُلهم الله أحدهم ليلفظه، وكانت ورد زهرة بيت أيوب

ورياحها الطيبة، رفيقاتها في الكتاب يحسدونها كون لديها أمَّان.. وليست كجميعهن، إنها الابنة المدللة لأيوب بن نوح صانع السُفن وصاحب شاهبندر التجار، هادئة معظم الوقت، تساعد والدتيها وتجالسهما طوال الوقت، تنصت لحكايات فاطمة التي تجدل شَعرها وتعلمها الطبخ والحياكة وتتسامر معها بحكايات النبي المختار وصحابته الكرام. «أبي»! نطقت بها ورد لتردم بئر ذكرياته بضحكتها الرائقة.. نهض مربتًا على رأسها وموجهًا حديثه ليونس وصالح:

- عليكما النوم، فأمامكما يوم طويل غدًا.. ستعوضان فيه عمل اليوم.

في تلك الليلة نام سليمان أولًا بعد جدال مع صالح كعادتهما. وظلَّ يحيى يراجع فروضه على ضوء مصباح شحَّ زيته، أما يونس، فكان يفكر بتلك السفن التي وصلت اليوم للمرفأ، مشهد رسو المنصورة ظلَّ عالقًا برأسه، قوية البنيان ومدافعها الجديدة زادتها هيبة. حظيت باسمها تخليدًا لذكرى الانتصار على ملك الإفرنج الصليبي الذي هُزم وأُسِر في معركة المنصورة، يقولون إنها أغرقت عشرات السفن البرتغالية ودانت لها شطآن البحار التي تجوبها، عظيمة، وعظمُها لم يصبه خدش في أيَّة معركة خاضتها، بات ليلته يفكر في تلك المعارك التي يسمعها من البحارة والعامة في الميناء، ويمنِّي النفس أن يكون أحد بحارتها ذات يوم، وربما يكون أحد هؤلاء الشجعان التي لا تتوقف الألسنة عن سرد قصصهم، رأى نفسه يقاتل ويبحر في سقف الغرفة المعتم حتى غلبَهُ النعاس، وطاف بمنامه زائرًا غريبًا أرقَّ ليلته:

«ببر، مُدرع بزرد حديدي وخوذة فضية منقوشة بزخرفات زادته هيبة، عيناه الشَّهْلاء تتَّقد وأنيابه الطويلة بارزة كنصل رُمح من عاج يَقطر زّبد. يمشي على مَهل بين الحشائش مرتقيًا بوثبات صغيرة ربوة خضراء. والشمس قرص ذهب خالص تسطُع من خلفه جاعلة ظلاله كبيرة ممتدة حتى الأفق. على الرغم من أن المسافة بينهما بعيدة، إلا أن تفاصيل الببر كانت جلية. يلوح بذيله بزهوٍ، لعق مخالبه بتأنٍّ قبل أن يرفع رأسه للسماء فاغرًا فيه، ورج المكان صوت الزئير..».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وخزات في أصابع قدمه هي من أيقظته، فتح عينيه بتثاقل وقد غشى بصره وهج شمس صبح فَتية، جسده مرتخٍ ولا يقوى على ثني ذراعه لحجب الضوء الذي ضرب وجهه، الموج يهدر ملقيًا الرذاذ على جسده الجاف، رفع جذعه بصعوبة على الرغم من الإنهاك متأوِّهًا، لحظات كانت كافية ليكتشف مكان وجوده، شاطئ لساحل رملي شاسع تحده شمالًا جبال بعيدة وغَيْمٌ، وأمامه كان بحر واسع يهيمن على الأفق بأكمله. لا يعلم كم لبث، ولكن الوقت الآن بعد الظهيرة، هذا ما يدركه، الشمس تميل غربًا، وعادت الوخزات تنال من أصابع قدمه العارية، عائلة من السلطعون تحاول تقطيع لحمه حيًّا، ينتشرون فوق ساقه يحاولون قص ما تبقى من أسمال تستره، دفعهم بعيدًا منتفضًا، ونهض يتحسس موضع قرصاتهم بجلده قبل أن يقف متحاملًا على آلام عظامه.. كان يَشعر بالعطش والجوع والخواء، الهواء يدفعه برفق للأمام، أو هكذا شعر. الدوار تملَّك رأسه، وقدماه لا تقوى على حمله، سقط وعانق وجهه رمل الشاطئ المبلل، حاول النهوض فلم يستطِع إلا أن يبقى راكعًا فتقيَّأ. أخرج كل ملوحة البحر من جوفه وخارت قواه.

فتح عينيه وشهق فزِعًا حين غمرته المياه فجأة، نهض وأنفاسه تتلاحق كمن جرى ألف عام دون توقف. البحر هائج والغيم يحجب خيط الفجر الوليد، الريح تشتد وبرق يضيء الأفق البعيد، قام مرتجفًا من شدة البرد والخوف، البرق ينير المكان من جديد كاشفًا عن الحطام المبعثر على الشاطئ، الومضات المتتابعة تخللتها رؤيا تذكره بما حدث للمنصورة، دُمرت وغرقت وما تبقى منها لفَظَه البحر إلى الشاطئ الرملي حيث كان. مع الشروق المعتم للنهار أخذ يبحث بين الأخشاب والبراميل المهشمة عن شيء ينفعه، تجمدت الدماء في عروقه ويَبُست قدماه حين رأى جثث أناس كان يعرفهم، عيون اقتلعتها وأكلتها النوارس، وأفواه صارت مأوى لقشريَّات البحر، ولسان حاله يتمتم: كم لبثتُ يا ألهي؟! على مسافة ليست قريبة تقف أشجار النخيل في مواجهة الريح متمايلة، تشاهده وترتقب تلك العاصفة القادمة من البحر. كان عليه أن يجد مأوى وطعامًا، سحب قطعة خيش من أسفل لوح خشبي ثقيل، ولملم جزءًا من قماش شراع بائد.. راح يسير تجاه الغابة ملتقطًا ما قد يعينه على البقاء حيًّا، تمنى أن يجد أحدًا حيًّا، أو تكون له الغابة مأوى يقيه غضب تلك العاصفة، كان يسير على مهل حين رج الكون هزيم رعد حثَّه على الركض فوق الرمال الثقيلة نحو الأشجار القريبة.

سبعة أيام، لم يفارق فيها عينيه ذلك الخط الفاصل بين السماء والبحر في الأفق، لعله يرى سفينة مملوكية من بقية الأسطول العظيم، دفن رفاقه وآخرين لا يعرفهم وأقام الصلاة وحيدًا كنخلة على طرف الشاطئ تقاوم الريح العاصف، في الليل يحتمي من البرد في كوخ صغير صنعه من الحطام وسعف النخل، بناه على حافة الغابة التي كان يخشى النظر إلى عمقها الموحش، يسد أذنيه كلما اشتد صرير الريح ويتدثر بما جلبه من أقمشة مهترئة، انتقى خنجرًا وسيفًا من بين الحطام في ذلك اليوم الذي دفن فيه أحد العبيد المجدفين، كان رآه مرارًا على متن مركب من الطردات التي كانت تبحر دومًا بجوار المنصورة، في الليل يحدث نفسه ويبتهل، وفي النهار يجوب الشاطئ ذا الرمال البيضاء بحثًا عما يؤكل.. انتهت العاصفة التي بدت رحيمة به، وبقي وحيدًا هو دون أحياء. يقف على حافة الغابة ويصيح بأعلى صوته مناديًا بأسماء قادته، الرئيس حسين الكردي وإبراهيم الصباغ، تأسَّى لذكرى الشيخ أبي العباس، الذي مات قبل أن تنسف مدافع البرتغاليين قمرة القيادة وتَهتِك بَدَن المنصورة.

في اليوم الثالث، تمكن منه العطش وآخر قطرة ماء عذب بالكاد لمست طرف لسانِه، أخذ يتأمَّل القنينة الزجاجية قبيل ألقائها بالبحر، ونظر للسماء راجيًا: لَيْتها تُمطر ثانية. المحار مالح طعمه ويزيده عطشًا. وفي اليوم الرابع، وهبهُ البحر سمكة كبيرة ألقى بها الموج للشاطئ، والتقطها قبل أن تنال منها مجموعة غربان تطوف فوق الحطام، جَمع لها بعض الأغصان الجافة وأشعل النيران بعد عدة محاولات فاشلة.. جلس فارغ الوجدان متأملًا السمكة، تُشوى وجلدها يطقطق ويقطر دهنًا بفعل النيران، دخان أبيض رقيق يرتفع ببطء في ليلة لا ريح فيها، أكل حتى شَبع ومنحته راكية النار شعورًا بدفء، والنعاس تملك منه، ومن فوقه هلال يشاهده ويغدق عليه بذكريات الأنس مع إخوته فوق سطح منزلهم، قلَّب وجهه في السماء راسمًا على الرمل مواضع النجوم. كان يفكر كثيرًا في توءمه سليمان وأخويه أبناء فاطمة.. صالح ويحيى، شهاب مَرَّ وسط النجوم الساكنة المشعة ذكَّره بأبيه، فسأل الخواء مناديًا بحياء: أيوب، هل أنت غاضب مني؟ هل سأراك مرة أخرى يا أبي؟ أيوب، سامحني؛ فأنا ابنك العاصي الذي خالف أمرك وسرق مالك ورحل دون إذنك. كان يتمتم بكلماته وفي أذنه يعاد حواره مع أخيه:

- سأرحل يا صالح..

- يونس هل جننت؟! لقد أخبرك أبي بعدم موافقته للأمر، هل ستذهب دون إذنه؟

- الأمر لا يتعلق برأي أبي.. أريد أن أكون بحارًا مجاهدًا ولن يمنعني أحد. وقد أذن مؤذن الحرب في أنحاء مصر المحروسة والشام، هذه فرصتي، وجب القتال ضد البرتغاليين يا صالح، جميعنا يجب أن نذهب لحماية مكة والمدينة من الصليبيين، انظر حولك كل الشباب سيخرجون في أسطول المعلم حسين الكردي إلى جدة.

- نعم، ولكن هذا الأسطول جل طواقمه من أولاد الناس والعبيد المدربين جيدًا على الحرب، أما أنت..

قاطعه يونس بضيق:

- نجَّار.. صانع مراكب لا فائدة لما أصنع ما لم أجرب ركوب البحر.. أريد ذلك حقًّا. هل ننتظر حتى يأتي البرتغاليون إلى مكة والمدينة ويعيثون فسادًا في مقدساتنا؟! انطق يا صالح! هل نقف صامتين كالخشب الذي ننحته!

- للبيت رب يحميه يا يونس، وها هو السلطان الغوري يرسل حملة لتحصين جدة منهم والاستعداد لهم.

- كما قلت التحصين والاستعداد. سأبقى في جدة وهي قريبة من السويس. لا تقلق عليَّ وأخبر أبي أني أحبه وإن ما أفعله هو الصواب.

بعد حواره مع صالح بيومين أمسك به سُليمان وهو يخرج متسللًا من المنزل قبيل الفجر:

- يونس إلى أين أنت ذاهب؟

- سأذهب للبحر، أردت السباحة.

- وهل من يذهب للسباحة يحمل معه هذه الأمتعة؟؟

على الرغم من الظلام، فقد بدى على وجه يونس الحيرة والخوف، لا إجابة يقولها لتوءمه الذي يرى نفسه أحكم أهل البيت بعد أبيهما، اقترب منه سُليمان:

- لقد رأيتك يا يونس وأنت تأخذ من مال أبي.. وتحمل متاعك الآن، فلماذا تكذب يا أخي؟

- أنت لا تفهم شيئًا يا سليمان..

- يونس أنا أخوك، خُلقنا في رحم واحد وولدنا في الليلة ذاتها.

- أعرف كل ما ستقوله، ولكني أريد أن أذهب ولن يوقفني شيء. أنت حصلت على مبتغاك يا سليمان وأصبحت معروفًا بين التجار، وعليَّ أن أخوض حياتي بعيدًا عن هنا.

- ربما تظن أني متعالٍ متفاخر عليكم بأني أعمل مع شاهبندر التجار وأتلقى أجرًا مرتفعًا، أليس هذا ما تقولونه عني؟ نحن عائلة واحدة يا يونس وعليك البقاء معنا.

- سأذهب للجهاد ضد البرتغاليين وحماية مكة.

- هل يَسرق المجاهد؟؟ هل يذهب للحرب دون موافقة والديه؟؟ لا أظن أنك تعي الأمر يا أخي.

- لم أسرق. لقد أخذت ما هو لي، عملت لسنوات دون أجر مع أبي هذا حقي.

- لا يا يونس ليس من حقك، عد إلى داخل المنزل قبل أن يستيقظ أيوب وتكون العواقب وخيمة.

لم يجبه، تطلع بوجه أخيه الذي يشبهه حد التطابق، ولم يدم صمتهما طويلًا، واستدار يونس ومضى في سبيله ومن خلفه صوت سُليمان:

- أخشى أن يكون البحر قبرك يا أخي. وأخشى ألا يسامحك أيوب.

في اليوم السابع، قضى نهاره يتذكر كيف فتكت بهم السفن البرتغالية العملاقة، بوغِتُوا وعَلِقت كل مراكب الأسطول المملوكي بين قذائف المدافع التي مازال يدوي صوتها بأذنه كطنين ذكر نحل شارد يطارده، كانوا يبحرون قبالة ساحل مدينة ديو، وتلك كانت اليابسة الأخيرة التي وطِئتها قدماه قبل الهزيمة، حتى سفن سلطان الكجرات رآها تتهشم وتغرق، ولم يتبقَّ منها سوى رايتهم الحمراء ذات الثلاثة أسود، لا يعلم بأي ساحل ألقى به البحر، عليه المجازفة والتحرك بعيدًا عن الشاطئ، مواقع النجوم تطلعه أنه مازال في بر الهند، سيتوغل في الغابة باحثًا عن أناس. باحثًا عن النجاة، مع الخيوط الأولى لفجر اليوم الثامن، ألقى نظرة طويلة على الشاطئ وقبور رفاقه الذي لا يعلم لمعظمهم أسماء. تمتم بالدعاء مترحمًا عليهم ودسَ الخنجر في حزامه العريض المصنوع من راية مملكة الكجرات، واستدار موليًا ظهره لبحر يستشف ضوء النهار القادم من خلف الأشجار الشاهقة. ومضى إلى الدغل إلى المجهول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لامس ضياء الشمس الدافئة جفنَيْه، وهجها الذهبي كان الخلاص الذي انتشله من العتمة التي أحاطت روحه المذعورة، راح يجول في المكان بعينيه نصف المغمضة، الألم وجد مستقرًا له بأسفل قفاه يذكره بتلك الضربة التي باغتته وسط ظلام الغابة، كان مُكبلًا معلقًا في صارٍ خشبي، عاريَ الصدر مُجرد من أغراضه القليلة التي يذكر أنها كانت معه، وربطت يديه إلى الخلفً بحبل من خيش خشن وكذلك ساقيه، وحوله كانت أكواخ من خيزران مسقوف بالقش تحيط به وبالساحة التي يستقر بها، إلى جواره ثلاثة صوارٍ أخرى أحدها فارغ، بينما ربط في الآخرَين رجلين لم يتبين ملامحهما، مازالا فاقدي الوعي، وربمَا فارقَا الحياة، على مسافة منه كان هناك كوخ كبير من خشب النخيل، البيت الوحيد المسقوف بالسعف والجريد، وتستقر أمامه مصطبة طينية كبيرة يتوسطها كرسي غريب التفاصيل، كان يشعر بالعطش وذلك الرباط الخشن حول فمه لا يمنحه فرصة ابتلاع ريقه، بدى المكان وكأنه مهجور لوهلة، لولا تلك الأجساد الهزيلة التي تتحرك بجوار الأكواخ، بشرة داكنة وأجساد شاحبة، ملابسهم البالية يَغلب عليها البياض، الرجال يعتمرون عمائم برتقالية وجلهم تقريبا ذوو شوارب رفيعة ملتوية الأطراف لأعلى، إنهم هنود، نعم، هم كذلك، ولكنهم ليسوا من الكجرات أو سكان ديو. تأكد من عدم وجود الراية حول خصره، إن كانوا أخذوها حين أسروه، فهي تعني لهم شيئًا.. كان مشوشَ الذهن بفعل الضربة المباغتة التي ما زالت تؤلمه، ويبدو أن الشمس وجدت في

تعذيبه لذة، فراحت تشويه على مهل بحرارتها الحارقة، الخوف وجد سكنًا له بسريرته وتشابكت الذكرى حتى سَمع صوتًا يعرفه، عبد الله الدبندار قارع الطبول وأحد عُمال السفينة المنصورة، كان مربوطًا جواره، اغرورقت عينا يونس بالدمع لسماع كلمات الرجل الذي طمأنه وهو ليس بحال أفضل منه، قصَّ الفتى عليه أيام وجوده على الشاطئ ودفنه الموتى الذين لم يكن بينهم أي أمير للبحر، وروى الرجل حكايته وكيف انتشلته سفن البرتغاليين من الماء كصيد سهل، ولكن قصة يونس كانت مختلفة وهو الذي جال في الغابة لأيام، راح يقصُّ على مسامع جاره الأسير كيف انتهى به المطاف إلى هنا:

- كنت أسير في دغل متشابك لا نهاية له، أتحسس طريقي بين الحشائش والأشجار، وقد أدمَت الأشواك قدميَّ، كانت الليلة الأولى الأكثر رعبًا في حياتي، وقد كنت أظن أن الرعب كله يسكن ذلك البيت المهجور على أطراف وادي الطليمات قرب قريتنا، شعرت بالموت يحدق بي من بين الآجام الكثيفة، أصوات غريبة لا أعلم إن كانت لمخلوقات من طين مثلنا أم إني قد وطئت مملكة جن لا يطيقون وجودي، لم أنم حتى بدأ النهار في فرش بساط ضيائه على البراري، الطيور تغرد وتنادي بعضها بعضًا لعلها تسأل عني أنا الغريب، ناجٍ يَئِس وحيد، ولعلها كانت تحكي فيما بينها وتنسج أسطورة ما عني. القردة تتقافز فوق قمم الأشجار تخشى النزول إلى أرضي التي أخوضها فاتحًا باحثًا عن ملجأ للحياة والأمل، وجدت بركة ماء فارتويت حتى اكتفيت وحملت قدرًا منها في قربتي الصغيرة، مضيت بين الجذوع على غير هدى وأنا أشعر أني أدور في مكاني، الأشجار باسقة متشابهة وأشق طريقي محاربًا بسيفي أعداء من أغصان جافة متشابكة كآلاف الأيادي تريد تطويقي والظفر بي، في الليلة الثانية تسلقت شجرة انحنى جذعها فوق مستنقع يضج بنقيق الضفادع وصفير صراصير الحقل. فحيح أفاعٍ لم أرها ولكني شعرت بقربها، نمت فوق جذع شجرة مستأنس بالضجيج ولم يوقظْني إلا شعاع شمس انسلَّ من بين أغصان الشجرة العظيمة التي أوتني، الحرارة شديدة وكنت أسير كمن سار ألف عام دون توقف، حتى جلست للراحة على صخرة ملساء تطل على منحدر انبثقت منها جذوع شجيرات متسلقة كأنهن يحاولن الصعود إلى حيث أجلس. الصمت يَملك المكان وقبيلة من نمل تصارع خنفساء، عملاقة ولكنهم يصعدون على ظهرها ويتشبثون بأرجلها، تقاوم ويحاربون، لا تستسلم ولا يكلُّون، يتكالبون عليها، تتعثر في ورقة شجر جافة فتنقلب على ظهرها. لعلَّ تلك الزمرة على بطنها يرقصون فرحًا بالنصر، وكذلك يفعل البرتغاليون الآن في حصنهم. ترى كيف سيكون وقع الأمر حين تصل أنباء هزيمتنا إلى جدة حيث يقبع أخي صالح؟؟ هل علم أيوب والسلطان الغوري وأهل مصر بأمر غرق المنصورة وأسطولنا العظيم. مر ما يزيد عن ثلاثة أعوام حين رحلت عن بر مصر المحروسة على متن الأسطول الذاهب من السويس لتحصين ميناء جدة. أيتذكرني أحد أم ظنوا أني مت.. أأنا حي حقًّا أم إني مازلت أتجول في البرزخ حتى يأتي يوم البعث.

مع الغروب عثرت على تجويف في تلة صخرية، المكان يصلح للمبيت، مرتفع كفاية لمشاهدة شمس الغروب الخجلة تتوارى خلف رءوس الأشجار، جلست ساندًا ظهري إلى صخرة نبت في مفاصلها العشب، لم يكن في جعبتي سوى ثمرة واحدة لفاكهة لا أعرف اسمها، ولكني أقتات عليها منذ يومين على الرغم من مذاقها اللاذع إلا أن بها قدرًا كافيًا من العصارة عوضتني عن الماء الذي نفد حين سقطت القربة في أثناء سيري دون أن أشعر، في المساء أرَّق نومي نحيب أمي -شيراز- لعلها بكت يوم رحلت.. خرجت من المنزل متسللًا ولم يستطع أحد رؤيتي، تلاحقني كلمات أخي سُليمان الخالدة

في وجداني «اذهب يا يونس. سيلاحقك غضب والديك لأنك عاق. اذهب وسيصير البحر قبرك». ولكن البحر لفظني وابتلع أصدقائي يا أخي!

ضجيج، تبعته صيحات وحديث صاخب، لغة غريبة، وهج بضعة مشاعل متناثرة بين الأشجار في الأسفل، الظلام يُهزم والظلال تتراجع أمام الضوء، يصطادون شيئًا ما. تضيق الدائرة أكثر فأكثر.. يرفض الاستسلام، يركض فيطاردونه، لحظات صمت أعقبها انطفاء أحد المشاعل، همهمات ونداء، وسقط مشعل آخر، النيران تتحسس طريقها بين العشب الجاف كأفعى تتلوى وتتضخم، الأمر يزداد سوءًا ويبدو أن عدد الرجال في الأسفل يتقلص، بينما تسود حالة من الهلع بينهم، نبرات أصواتهم تشي بذلك، ثم خيَّم الصمت فجأة قبل أن يعمر السكون بهتافات فرِحة، نجحوا في صيد ذلك الشيء، وهج النيران يظهرهم بين جذوع الأشجار كظلال شاحبة هزيلة يحملون هِراوات ورماحًا، هل أنزل إليهم وأرى إن كان بإمكانهم مساعدتي؟ وبين التردد في اتخاذ القرار ومتابعة ما يحدث شعرت بشيء حاد يلامس قفاي، حاولت الالتفات ولكن سنًّا باردًا غُرِس في رقبتي ليمنعني من الحركة، رفعت يدي محاولًا إظهار الاستسلام ولكن فات الأوان.. وفتحت عيني لأجدني هنا.

توقف عن الحكي بفعل صيحات صاخبة اقترنت بصهيل خيل، كان الإعياء يفتك بحواسه، خائفًا يجهل مصيره، راح ينقل بصره في المكان، جمهرة من الناس اجتمعوا حول عربات خشبية تحمل أقفاصًا من الخيزران، كل عربة يجرها بغلان، والأقفاص مكتظة بأناس يائسة وجوههم، عيون زائغة حزينة، الدماء والأوساخ تلوث الوجوه والأجساد، كان يتابع الأمر ويلوك بلسانه الحبل الخشن المحشو في فمه من أجل الحصول على أيَّة عصارة، وتوقف عن فعله حين رآه.. يقف داخل القفص يرمق المهللين حول العربات بنظرات خاوية وملامح جامدة، أغمض يونس عينيه مرارًا وفتحهما ليتأكد من أنه لا يهذي، كان يعرف ذلك الرجل ضمن الأسرى. يعرفه جيدًا. المَعلم حَسين الكردي، شهبندر تجار القلزم وأمير البحر في الأسطول المملوكي الراقد في أعماق المحيط الهندي أمام سواحل ديو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

كوتشي – ساحل الهند الغربي.

صباح صافٍ نقي هواؤه، معبق برائحة بحر رائق تدرجت زرقته ببهاء فيروزي، وقرص شمس يتلألأ كطبق عَسل ذهبي لا يشوب وجهه غيم، والضياء غَمَر بدن قلعة السيدة المقدسة، منيعة ومهيبة تعتلي بشموخ هضبة مطلة على خليج صغير، ومرفأ ذو رصيف خشبي طويل، برجاها الكبيران الدائريان يستقر عليهما تيجان من مدافع صُهِر حديدها وسُبك في نيران أفران لشبونة، الختم الملكي البرتغالي نقش على قطرها الحديدي البارد كجدران ذلك الحصن، أو سجنها كما تسميه، جاءت إلى تلك الأراضي التي وصفها خطيبها لورنسو بالجنة، رسائل شوقِه هيأت لها حُلمًا لم يتحقق، ويوم وصلت إلى حيث سينتظرها -كما قال- لم تجده، تركها وحيدة قبل لقاء كان مقدرًا له أن يكون بداية فرح لم تذقه.. يوم وطئت قدمها الرصيف الخشبي للميناء انقبض قلبها، حملقت في الوجوه الشاحبة والعيون الدامعة الزائغة، بملابس حداد سوداء استقبلت «ماتيلدا» العروس، عبارات التعازي أحاطت بها ودارت على عقبيها تبحث عنه ولم يكن بينهم.. صارت الدوقة العروس أرملة قبل أن تزف إلى لورنسو بن فرانسيسكو دي ألميدا. مات حبيبها وأميرها الموعود، وحين أفاقت من صدمتها لم تجد بجوارها سوى والدٍ مكسور مخمور على الدوام، يبحث عن سبيل للانتقام، وكأن غضبه الهادر وقتله الأعداء سيعيد فقيده. رحل الملك المُخلص، كان يُعاملها جيدًا ويأسف لحالها، ولكنه دومًا يذكرها بأنها حية وابنه مات، ويجب أن تبقى لأنها تذكره بالغالي لورنسو.

لا تدري لماذا يُسمون القلعة الكئيبة تيمنًا بالعذراء، فأم المسيح رمزٌ للحياة وتلك الأسوار الرمادية تمتص روحها رويدًا، قررت منذ هدأت وسَكن الحزن داخلها أن تقوم بتجميل المكان، أضافت لمسة جمالية أنثوية لذلك الركن من الحصن، أحبَّت الجلوس في جناح واسع متجدد هواؤه ذي شرفة كبيرة تطل على المرفأ وساحل الملبار الممتد ليلامس طرف السماء في الجنوب، ومن تلك الزاوية أيضًا يمكنها رؤية أنهار الهند الخضراء الكثيفة وبراريها الممتدة شرقًا، رتبت وصيفاتها مجلس يليق بها فملئ المكان بالوسائد المخملية والفَرش الوثير، يأتين كل يوم من بعد الظهيرة ليتسامرن ويتضاحكن حتى المغيب، ولكن كُل جمال ناقص، وعيب ذلك المكان أن هناك شرفة أخرى علوية تطل عليه، يسكنها سجين عجوز غير مهتم بها، على الرغم من أنه قام بتحيتها وتعزيتها حين رآها أول مرة، إلا إنه لا يبالي بوجودها، هكذا كانت تظن وتختلج الأفكار في رأسها حين تراه، لا تعلم أعليها كرهه كما يفعل الدون دي ألميدا! أم إنه لا يمثل شيئًا لها، ودت لو مات بأبشع الطرق، أو دُسَّ بعض السم في طعامه الفاخر، لا تعلم كيف لأسير وقائد حرب فاشل أن يعامل بكل هذا الود والتبجيل، في بعض الأحيان تمقته وتلعن ذلك اليوم الذي ركب فيه حبيبها لورنسو البحر معه.

«هو من قتل ابني، بتخلِّيه عن واجبه قائدًا للأسطول البرتغالي».

هكذا يقول حَمُوها الدون فرانسيسكو دي ألميدا الغائب في البحر منذ ما يقارب الشهرين، راحت تفكر بينما تجلس مستندة برأسها إلى سور شرفتها، شعرها الكستنائي زادته حُمرة شمس المغيب حُسنًا، ونَعم الضياء بملامسة النمش الرقيق فوق وجنتيها، وعيناها الواسعتان الرماديتان تشبَّعتا بلون الأفق بينما تقلب بصرها في الموج متسائلة: ماذا لو لم يعُد دي ألميدا من معركته ضد المماليك؟! ليس لها

أحد هنا، غريبة عن تلك الأرض وتتمنى الرحيل اليوم قبل الغد، العودة إلى لشبونة صار حلمها الأسمى، تسعى للهرب من ذكريات لم تحدث أبدًا، ولكنها ترسَّخت بأرض خيالها، هنا كانت ستسير مع لورنسو، وفي تلك الزاوية كان سيُقَبِّلها، سيقومان بجولة بالأحصنة في الغابات الكثيفة لاكتشاف ذلك العالم الجديد، ربما كانا سيخوضان معًا أنهارَ وشلالاتِ تلك الأرض الخصبة للبحث عن الكنوز وصيد الغزلان، سيعيشان أميرين حبيبين كتلك الحكايات التي تتمناها الفتيات، وسيهرمان معًا وتصبح دوقة مبجَّلة يفخر بها البلاط الملكي في لشبونة، ولكن كل هذا ولن يحدث.

أصرَّ الدون على بقائها حتى يتخلص من المماليك الذين صاروا يهددون طرق الإبحار، يريد الرجل أن يحصل على انتقامه، أصابه الهوَس وراح يجوب البحار بحثًا عن قاتل ولده، ليعدمه بجوار ذلك الشيخ الخائن كما ينعته، ولكن لمَ يُعامل الخونة كالنبلاء والملوك؟ لا تعلم هل ما يقوله الخدم صحيح؟ وأن ذلك السجين هو أعظم من أنجبته البرتغال بعد فاسكو دي جاما وهنري الملاح! يسمونه أسد البحار، وقيصر المحيط الشرقي، وبعض البحارة يهرطقون فيما بينهم أن الرجل هو الإله مارس، ربِ الحرب عند الرومان القدماء، هو مهيب الهيئة، قويم الجسد، ذو لحية طويلة بيضاء مصفرة غير مشذَّبة، وحاجبان كثيفان يعلوان عينان ثاقبتان لصقر هَرِم، سَمعت عنه كثيرًا من الأساطير التي يُكذبها ساجنه.

كانت في طريقها إلى غرفتها حين لمحت تلك السفينة الصغيرة ترسو في الميناء، وقفت تتأملها تحت ما تبقى من ضوء النهار الغابر ومشاعل الجنود، لم تتبين القادمين، ولكن الأشرِعة البرتقالية تؤكد أنهم من رجال مملكة كوتشي، السجين الشيخ يراقب أيضًا نزول البحارة عن ظَهر السفينة، رفعت نظرها نحوه فوجدته يلتفت إليها، التقت عيناهما في صمت لم يدم طويلًا بفعل صوت الشيخ الأَجَش:

- يبدو أن هناك أخبارًا جديدة عن الأسطول.

لم تعرف ما عليها قوله، أشاحت بوجهها عنه وعادت ببصرها إلى حيث المرفأ وهو يتابع بغلظة:

- هناك شيء جلل حدث، وأتمنى ألا يكون حموك الغبي قد أوقع نفسه في مأزق، سيكون من الصعب عليك تقبُّل موته الآن.

استدارت ورحلت عن المكان، وقلبها يخفق خوفًا من أن يكون كلام ذلك الرجل صحيحًا، لماذا يحدثها الآن على الرغم من مرور أشهر على آخر مرة نطق فيها، ماذا لو مات فرانسيسكو دي ألميدا؟؟ ماذا ستفعل حينها؟؟ أرسلها أبوها إلى هنا لتتزوج، ولكن كان للقدر رأي آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكد ماتيلدا تستقر في غرفتها حتى أخبرتها إحدى الخادمات بضرورة النزول لبهو الحصن، قائد الحامية يطلب حضورها، وضعت على كتفيها عباءة مخملية سوداء ونزلت إلى حيث كانوا في انتظارها، فرسان برتغاليون تعرف وجوههم كانوا يقفون إلى جوار «فرناندو كوتينهو»، حامي الحصن ورئيس حرسه، بينهم كان شاب طويل القامة أسمر الوجه، هنديٌّ قح بشارب كثٍّ ملفوف الأطراف ورأس أصلع، إلا من قُرص شعر تعلوه ضفيرة صغيرة معقودة لأعلى، وعلى جبينه كانت

تلك النقطة الحمراء التي طالما أثارت فضولها كلما رأت أحد الهنود، لا تعلم سبب استدعائها في ذلك الوقت، ولكنهم كانوا مبتهجين. انحنوا لها بلطف ووُد وبرناردو يقول بصوت يعمّه الفَرح:

- سيدتي الدوقة، أزُف إليكِ هذا الخبر السعيد؛ لقد انتصرنا. انتقمنا ورددنا لهم ما فعلوه بنا في شاول، هزم سيدي الدون فرانسيسكو دي ألميدا أسطول المماليك وحلفائهم.. صاروا الآن طعامًا للأسماك، سيسجل التاريخ تلك المعركة ونصرنا الخالد أمام سواحل ديو.

ابتسمت وضمت راحتيها أمام صدرها متمتمةٍ:

- الشكر للرب.

بينما حدثت نفسها سرًّا: ها هو الدون يحصل على انتقامه الذي أراد.

تابع كوتينهو وهو يُقدم لها الشاب الهندي ممسكًا بعضُده:

- هذا الشاب هو راما الراجبوتي، أمير هندي من حلفائنا بمملكة كوتشي، هو من زف لنا الخبر السعيد، كان ممن شاركوا في المعركة وجاء ليخبرنا..

- أهو يتحدث لغتنا؟؟

خفض راما رأسه وهو يهزها يمينًا ويسارًا قائلًا ببرتغالية ركيكة:

- سيدتي الدوقة، أستطيع التحدث بالبرتغالية والعربية والسنسكريتية كما أستطيع فهم اللغة الجغتائية التي يتحدث بها قسم كبير من أهل كابُل وسمرقند.

أضاف كوتينهو:

- سيدتي، يعد راما أحد أهم رجالنا هنا، يقوم بتوفير المؤن والعمال وكل ما نريده، إنه رجل المهام الصعبة.

رمقت ماتيلدا الشاب الهندي بنظرة غير مبالية وهي تسأل النبيل البرتغالي:

- متى سَيعود الدون فرانسيسكو؟

فأجابها راما متسرعًا:

- مازال يتعقب بحارة العدو الفارين، ربما يعود بعد أربعة أو أسبوع إن كانت الريح حليفة أشرعته.

لم يرق لها أن يجيب ذلك الهندي عن سؤالها، فتجاوزته مرة أخرى قائلة:

- فرناندو علينا الاستعداد لاستقبال أبطالنا المنتصرين كما يليق بهم.

أومأ قائد الحامية برأسه:

- بالتأكيد سيدتي.

بدى واضحًا للرجال أن راما لم يرق للسيدة، مضت دون أن تبالي بهم وراحت تصعد الدرج وقلبها يحاول ضخ بهجة زائفة بعروقها، كل ما كان يشغلها أن تعود إلى لشبونة، فقد اكتفت من تلك البلاد، في أثناء صعودها إلى غرفتها مر بخاطرها السجين الشيخ، شيء ما بداخلها دفعها إلى حيث محبسه، ربما أرادت أن ترى وجهه عن قرب حين يسمع بانتصار الدون، ماذا ستكون ردة فعله على خبر النصر الذي يعني دنو أجله!!

قادها الفضول عبر الممرات الحجرية الباردة إلى حيث محبسه، تلك المرة الأولى التي تأتي إلى ذلك البرج الكئيب، المشاعل بالكاد تضيئه والظلال تهيمن على الزوايا، على بابه الضخم وقف حارسان بكامل عتادهما، حدق كل منهما بوجه الآخر فور رؤيتهم لها، وخفض أحدهم رأسه منحنيًا أمامها، في حين فعل الآخر الأمر ذاته على عجالة وهو يسألها:

- سيدتي، أهناك ما يستدعي وجودك هنا؟ أم إنك ضللتِ الطريق!

- جئت لرؤية السجين.

- سيدتي، ولكن أوامرنا ألا يختلط الدون ألبوكيرك مع ساكني الحصن، وألا يقابل أي شخص.

- أنسيت مع من تتحدث يا هذا؟؟ أم عليَّ أن أخبر الدون فرانسيسكو أنكم منعتموني من زيارة أسد البحار الدون ألفونسو دي ألبوكيرك؟!

تبادل الحارسان النظرات قبل أن يقول الذي كان صامتًا منذ البداية:

- بالطبع سيدتي الدوقة، يمكنك زيارته وقتما شئتِ.

فُتح لها الباب الخشبي المتين كاشفًا عن غرفة شاسعة مضاءة بقناديل زيت وشموع، توترت قدماها بينما تخطو إلى عالم ذلك الرجل الغائب عن المشهد، على الجدار الكبير المقابل للباب عُلقت راية البرتغال، حريرية كبيرة الحَجم يستقر أمامها تمثال مجسم ليسوع المسيح، لوهلة ظنت أنه حقيقي وتلك الشموع الموقدة أمام قدميه تُنِير جسده المصلوب، تجاوزت خوفها ودارت ببصرها في المكان، في الزاوية المظلمة كان هناك سرير كبير ذا وسائد ملونة، يجاوره صناديق للأوعية والملابس، باب الشرفة يتوسط الجدار الأيمن الذي وضع بجواره منضدة بها عديد من الأوراق والكتب وأدوات نُحاسية عجيبة، كانت تسأل نفسها هل هذا الرجل ساحر؟ وجاءت الإجابة على لسانه بصوته الأجش الذي أرعبها:

- غرفة مخيفة، أليست كذلك؟

انتفضت ملتفِتة إلى حيث كان يَقف، لم يخفِ شاربه الكث شبح تلك الابتسامة على شفتيه، ألقى نظرة على الحارسين وأشار لهما، فأغلقا الباب من فورهما، تعجبت من فعلهما وعيناها لم تفارق وجه الرجل الذي توجَّه إلى كرسي وثير قريب منه:

- وددت أن أضايفك؛ تلك المرة الأولى التي تزورني فيها حسناء بهية مثلك. ولكن في الحقيقة لا أملك هنا سوى نبيذ معتَّق خاص بالبحارة ولا يليق بي أن أقدمه للدوقة ماتيلدا ابنة أليخاندرو دي جايا. وحتى إن ناسب هذا الشراب ذوقك فأنا أعتقد أنكِ مازلت صغيرة على شرب الخمر. كنت أعرف

والدك فيما مضى، ولكننا لم نلتقِ كثيرًا؛ لأني كما تعلمين أو كما يُقال عني أحب البحر وموجه أكثر من البر ورجاله المتملقين.

كان يحدثها بينما يَصب لنفسه كأس نبيذ، ملأ الكوب واستنشق حوافَّه مغمضًا العين متابعًا حديثه:

- ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟؟

قالت بتحدٍّ وقد تخلَّت عن رهبتها:

- لأراك مهزومًا.

- وماذا وجدتِ؟

- شيخ خرف خائن لملكه، وحانث كلَّ قَسَم مقدس أقسمه ذات يوم.

توقف عن ارتشاف نبيذه، وتطلع إلى عينيها ضاحكًا:

- أزعُم أن تلك كلمات فرانسيسكو المسكين، قام بزرعها في عقلك، لا ألومه في الحقيقة، فقد صار مجنونًا منذ مقتل ابنه الغبي لورنسو يوم شاول. أوه عذرًا؛ نسيت أن الفقيد كان خطيبك.

الغضب نال من قسمات وجهها ومن نفسها، اقتربت خطوتين للأمام، أرادت صفعه ولكنها توقفت وأمعنت النظر في وجهه:

- الدون فرانسيسكو دي ألميدا انتقم لمقتل العزيز لورنسو. هزم المماليك وحلفاءهم قبالة سواحل ديو.. حطمهم بينما جبُنت أنت وتخليت عن رجالك، تركتهم للموت على أيدي المسلمين.. لقد انتصرنا وحان وقت محاكمتك دون ألبوكيريك، وإياك أن تصف لورنسو بالغباء مرة أخرى!

كان هادئًا على الرغم من نبرتها الحادة، أخذ رشفة من كأسه ووضعه على الطاولة بكل ما أوتي من برود، نهض وتوجه إلى الباب وفتحه ليظهر الحارسان المتعجِّبان، ثم التفت محدثًا إياها وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

- نصرٌ مجيد للبرتغال، مجَّد الرب مَلكها وفرسانها. شكرًا لحضورك سيدتي الدوقة.

كادت أن تقاطعه وتقول شيئًا لولا أكمل هو موجهًا حديثه للجنديين:

- رافقوا الدوقة إلى مضجعها؛ إنها بحاجة للراحة؛ فهي لم تجد ما أتت لأجله.

غادرت المكان تلوم نفسها، أرادت التشفي به ورؤية الحزن على وجهه، ولكنها فوجئت بجبل ثلج لا يتزحح، قهرها وطردها في أول مواجهة بينهما، لا تدري هل كان من الخطأ زيارته والحديث معه، طالما كانت تقول إنه لا يعنيها في شيء، ولكنه تحدث بثقة المنتصر وليس سجينًا ينتظر الإعدام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أرقٌ توطَّن غرفة ماتيلدا وعقلها، ليلة طويلة قضتها في رفقة مشاعر مضطربة، تذكرت كلماته الباهتة، وكيف كان معتدًّا بنفسه وواثقًا في كلماته، وعلى عكس ما توقعت، لم يهتز لسماع خبر النصر

الذي حققه غريمه، تقلبت على فراشها تارة، وجلست أمام المدفأة تارة أخرى، حديثه القصير معها فجَّر بداخلها ينابيع الفضول، وراحت تغلي بداخلها، ودت لو كان الحوار أطول ولكنه طردها. نعم، هكذا فعل ولن تغفر له تلك الفعلة، ستضمها إلى قائمة أفعاله السيئة التي سمعتها من الدون فرانسيسكو، ولكن الجند والخدم يقولون غير ذلك.

في الصباح نزلت إلى باحة الحصن، ومرَّت بجوار الكنيسة التي لم يكتمل بناءها بعد، تناولت فطورها في الحديقة ثم تجولت بأرجاء المكان حتى وصلت إلى حظائر الخيل، مجموعات من الهنود يقومون بأعمالهم دون إبطاء، يبتسمون في وجهها ببلاهة ولا يتوقفون عن هز رءوسهم، يحملون الأجولة والمحاريث، وآخرون يسقون الخيل ويطعمونها، اقتربت من حظيرة لورنسو حيث ولدت مُهرة بُنية جميلة منذ أيام، اعتادت على القدوم ورؤيتها بجوار والدتها، وجدتها تلتقم ثدي أمها التي تهش الذباب بذيلها، أول مولودة برتغالية في الأراضي الهندية، فأل حسن. هكذا قال قائد الحصن حين أخبرها بالأمر، اعتادت على زيارتها خلال الأيام الماضية. جميلة، عمرها أيام ولعينيها أهداب طويلة مكحَّلة آسرة، لا تعلم ما ينتظرها في قادم العُمر وأي حرب تخوض، كحالها حين جاءت إلى ذلك الحصن، ماتيلدا الطفلة المدللة للدون أليخاندرو ابنته الصغرى بعد ولدين، قرر أن يضحِّي بها ويزوجها لورنسو، كان يأمل أن يصبح جدًّا لحفدة نبلاء يملكون بر الهند، بالطبع أحبت لورنسو على الرغم من أنها لم ترَه سوى مرتين في لشبونة قبل أن يرحل، توالت رسائله المذيلة بالوعود، كل بضعة أشهر تصل إليها رسالة منه، حتى جاء اليوم الذي حَمَّلها أبوها بأفخر المتاع والهدايا ومنحها خدمًا يسهرون على رعايتها ووصيفات موريسكيات يجدن فنون الطهي وتجميل النساء. كانت تراقب المُهرة حين لَمحت الظل القادم من خلفها، استدارت لتجد أمامها الشاب الهندي الذي رأته ليلة أمس، كان متأنِّقًا بثوب أبيض ذي رسوم طولية مذهَّبة ويشد على خصره حزامًا برتقاليًّا عريضًا، ومنحت الشمس سُمرته لمعانًا وكأنه قام بدهن وجهه زيتًا، ظلت صامتة حتى ابتسم، فعقدت حاجبيها سائلة إياه بغلظة:

- ماذا تريد؟

خفض رأسه قليلًا واضعًا راحة يده على صدره وقال بلغته البرتغالية التي تثير في نفسها الضحك:

- أنا هنا في خدمتك سيدتي.

- لم أطلبك..

- لقد نذرت روحي لخدمة الملك مانويل الأول حاكم البرتغال و..

قاطعته بإشارة من يدها:

- وهل ترى ملك البرتغال هنا؟!

- أمرني القائد بتلبية حاجاتك إن أردتِ، إن وددت الخروج وزيارة قرى وبلدات كوتشي وكنانور أو التجول على ساحل المحيط سأكون حارسك الخاص حتى لا يعترض أحد طريق الدوقة.

- ومن ذا الذي يجرؤ على ذلك؟؟

- عدونا، مسلمو كاليكوت والكجرات وآل لودهي وغيرهم، من المؤكد أن خبر هزيمة أسطول المماليك بلغهم، وقد ينتقمون لأبناء دينهم.

عادت ببصرها إلى المُهرة الوديعة وأمها غير المبالية بوجودهما، ظلَّت صامتة بينما استطرد راما قائلًا:

- لقد جئتم إلى هذه الأرض لنجدتنا ونصرتنا عليهم، وسيكون من دواعي فخري وسروري خدمتكم سيدتي، ربما أستطيع وفاء الدَّين للدون فرانسيسكو دي ألميدا وملك البرتغال خلف البحار الشاسعة.. لكم أود أن أزور بلادكم بعد أن تنتهي الحرب، هذا إن انتهت.

مع آخر حروفه استدارت ورحلت عن المكان تاركة إياه، وحين بلغت مدخل البهو فُتحت لها الأبواب لتمرَّ، كان هذا ما ينقصها، متطفلٌ وثَنِيٌّ ثرثارٌ، هناك شيء مريب في هذا الشخص، تتوجس منه خيفة، ربما كان جاسوسًا أو قاتلًا.. ولعله متملِّق حذق، صعدت إلى ركنها المفضل من الحصن، شرفة الورد كما أسمتها، استلقت على الوسائد الناعمة مستدفئة بضياء شمس تسلل من بين الأعمدة الحجرية، بقت على تلك الحالة حتى دخلت وصيفتها «لورا» بأطباق تحوي صنوفًا شتى من الفاكهة وتبعتها بقية الخادمات يحملن أباريق العصائر والقيثارات، قضت وقتًا مَرحًا صاخبًا معهن حتى أطلَّ عليهن الشيخ من محبسه، رأته ولم تتوقف الآلات عن العزف، ولم تلحظه لورا بينما تتمايل على نغم الألحان، ولكن «ماتيلدا» أمرتهم بالتوقف، وقبل أن يتساءلن عما عكَّر مزاج الدوقة، رأينه يقف مبتسمًا في شرفته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بين أروقة القصر سار تيار هواء شرقي بارد، رَطب الأجواء بنسيم الغابات الممتدة بالأفق، الشمس تسحب ما تبقى من رداء ضيائها الأرجواني، وتمسح ظلال المساء رءوس الأشجار وأسراب من عصافير تشدو بغناء بديع، وعقل ماتيلدا مازال يلح عليها بمحاورة البحار السجين مرة أخرى، أرادت أن تعرف كيف كانت لحظات لورنسو الأخيرة، ولماذا تخلى ذلك الرجل عنه في البحر، أسئلة عدة راحت تُحلق في سماء فضولها، وربما كانت بحاجة لأن تتحدث معه، ربما لأنه سيُعدم بعد أيام، مثير ذلك الشغف بداخلها، لم تفق من أفكارها إلا حين وجدت نفسها أمام باب محبسه، الحارسان يحدقان في وجهها، وما لبثا أن استأذن لها أحدهما، وجدته في استقبالها، يقف منتصبًا في تبجيل ممسكًا بقبعته السوداء الكبيرة أمام صدره، غريب أمر ذلك الشيخ، كانت تحدق في وجهه وهو يقدِّم إليها كرسيًّا خشبيًّا، جَلست مسلوبة العقل أمام دهشتها من فعله، نظَّم بعض الأوراق على منضدته وأغلق مِحبرة بعد أن مسح ريشة الكتابة ووضعها بجراب أنيق وهو يحدثها بصوته ذي النبرة الحادة:

- أعتذر عما بدر مني في المرة السابقة، لم يكن من اللباقة أن أعامل سيدة نبيلة هكذا. ولن أسألكِ ما الذي أتى بك هذه المرة، فمن القادر على كبح جموح أنثى، بمثل جمالك الأخَّاذ، لا أتغزل بك. فقد مضى زمن الغزل بالنسبة لي، ولكن ليس من اللائق ألا نُمجِّد الجمال حين نراه، فالشيخ الذي أمامك وهب روحه لحوريات البحر، إنهن حقيقة كالشمس والقمر، كنت أكذِّب تلك القصص والأساطير، وأجزم أنها من وحي خيال بحارة سكارَى، ولكن مع رحلتي الأولى بجوار العظيم فاسكو دي جاما، رأيت ما يَصعب على أهل البر تصديقه، في زرقة البحر والسماء اللامتناهية وجدت الحقيقة ووجدت

ذاتي، وكذلك عديد من الأجوبة لأسئلة كثيرة علقت برأسي، في البدء وحين سَحَبنا تيار بحر الظلمات جنوبًا، حسبت أن الرب يبسط البحر أمامنا ليختبر إيمان الرجال، الموج يتلاعب بالسفينة تارة ويهدأ البحر تارة أخرى، والخوف قادر على أن يضعف إيمان المرء، فقد بعض الرجال عقولهم وكان البحر قبرًا لرفاتهم إن بقى منها شيء، كنا نأمل الوصول إلى أرض لم تصل لها سفن القَشتاليين، أو ندور حول الأرض كلها لندخل القدس ونحرر قبر المسيح، الطعام والماء نفدا، وبدأنا رحلة الجوع والبحث في سراب أزرق لا نهاية له، الرب كان يرعانا ويرشدنا ويختبر صبرنا، التضرع كان وسيلتنا، وحين تخلصنا من آثامنا، وكان رجاؤنا صالحًا، عثرنا على الحياة، لابد أن رحلتكِ من لشبونة إلى هنا كانت رائقة مليئة بمحطات للتوقف عبر ساحل المحيط وليست كمثل رحلتنا الأولى، ولعلكِ كنتِ خائفة بعض الشيء، وهذا أمر لا يُخجِل، جميعنا عرضة للخوف، الإبحار لشهور مرهقِ ويمحق الروح، ولكن ليس لبحارة اعتادوا على العيش في الماء مع وحوش بحر هائج، هل سبق لكَ أن رأيتِ سربَ حيتان العنبر، أو تلك الأخرى السوداء القاتلة؟؟ أراهِن على أنك لا تتخيلين كم يَبلغ ذراع حبار عملاق يُهاجم سفننا، بدعوى أننا عكرنا صفو مائه حين خرج من الأعماق ليتنسم شمس ما بعد العاصفة! أنا لا أخيفك بهذا الحديث، أليس كذلك؟

رفعت أحد حاجبيها الجميلين، وقالت بنبرة ساخرة:

- وهل أبدو لك صبية ساذجة؛ حتى أخاف من تلك الأساطير الطفولية؟

- أجزم أنك في السابعة عَشرة من عُمرك، عود ليِّن رطِب، أقحوانة ملكية ما وجب عليها أن تنبت في هذه الأرض، مثلكِ لا يغادر القصور وهناء النعيم، كان من الغباء أن يُرسلك أليخاندرو إلى هنا، وصدقيني لا أقول هذا من باب عداوتي لفرانسيسكو دي ألميدا، ولكن صدقيني القدر أنقذك من براثن شخص مذبذب، كان يبحث عن بطولة تمكنه هو وأبيه من صُنْع عرشٍ لهما هنا على أرض الهند، التي قمت أنا الدوق ألفونسو دي ألبوكيرك بفتحها..

بدى جليًّا لها نبرته المتفاخرة، والطريقة التي أَلقى بها الجُملة الأخيرة، اتَّجه مضيفها المعتد بنفسه بخطوات هادئة نحو المنضدة، وضع كأس الشراب ليسحب من بين لفافات الورق واحدة، فتحها مثبتًا إياها على الحائط:

- من الصعب أن يَتقبل من ورثوا الدوقية والنبالة عن أجدادهم، شخصًا متدنيَ النسب بينهم، أن يرتفع اسمي أنا -الدون ألبوكيرك- بينما تقزُم أدوارهم، كانوا في خدمة الملك يتملَّقونه وكنت في خدمة الرب أبتغي مجده، كل ميل قطعته في البحر من لشبونة إلى كوتشي يشهد على صلواتي ليسوع، الذي ترنَّمتْ باسمه مدافع سفينتي زهرة البحار وهي تهشم حصون العرب الكفار، سواحل عَدن جعلتها جحيمًا، ومغنمُنا من سقطرة زاد عتادًا وفيرًا، وفي مسقط حظينا بكثير من الذهب، ولم تصمد مملكة جزيرة هرمز أمام قوتي، وارتعد الشاه الصفوي لمجرد ذِكر اسمي، في البدء كنت أحسب أن قذيفة مدفعية واحدة كانت كافية لتثير الرعب في نفوسهم، ولكنهم قوم ذو بأسٍ شديد، وكان عليَّ تلقينهم دروسًا عدة ليعلموا من البرتغال التي قضت على مُلكهم في الغرب! ها هي قد جاءتهم في عُقْر دارهم، بحر القلزم وبحر العرب صارا كمثل حديقة منزلي، أجوب رافعًا راية الصليب المقدس، هذا قبل أن ينقلب عليّ ذلك الغبي دي ألميدا، وحالما أعود لمنصبي فسأذهب إلى مدينتهم المقدسة، مكة،

وستدك مدافعي تحصينات المماليك في جدة، وبعدها كل شيء سهل، ففي تلك الأنحاء من الصحراء لا يوجد سوى البدو والدراويش، ماذا سيفعلون حين نصل إلى كعبتهم؟ ثلاثة آلاف منهم يهزمهم خمسمائة فارس برتغالي، وإن كان الخمسمائة لا يكفون فسنأتي بألف وأكثر، سنضربهم في القلب ونستعيد مملكة القديس يوحنَّا، ونحرر قبر المسيح من الكفار مرة أخرى. هذا هو الفرق بين من يخدمون المَلك ومن يمجدون الرب.

- وهل في عُمرك بقية لتفعل كل هذا؟؟ تُشرف على نهاية عقدك السادس، سجين بُرج بنَيْته بيديك مع رجالك، وستحاكم عما قريب بتهمة خيانة المَلك، والتمرد على الربان لورنسو دي ألميدا المُعين من قبل جلالته، ومحاولة الانقلاب على حاكم الهند والذي هو بالمصادفة والد لورنسو. أتعجب من كونك قادرًا على استبشار المستقبل بوضع خطط لأحلامك وأمجادك الحربية، على الرغم من أنك في عداد الأموات.

- الرب يرعاني يا فتاة؛ فلماذا عليَّ أن أخشى الغد؟!

- فتاة؟!

- أو لستِ عذراء؟ أم إن لورنسو ذاق العسل قبل أن يَغرق.

توردت وجنتها خجلًا وغضبًا، وهَمَّت بقول شيء ولكنه تابع مسرعًا:

- أعرف أني فظٌّ ولا أستحي، ولكنكِ شهية بحق. ثمرة خوخ تامة النضوج، عودي إلى لشبونة وتزوجي وانسَيْ.. تزوجي من البلاط الملكي واسكني القصور، وأنجبي أطفالًا رائعين تستحق مؤخراتهم تلك الوسائد المخملية الخاصة بحاشية الملك.

تطلَّعت نحو الشرفة والهواء يتلاعب بالستائر الرقيقة:

- كل ما أريده العودة إلى لشبونة وحسب.

رفع الكأس ورمى ما تبقى فيه من نبيذ إلى حلقِه:

- نعم، كنت أعلم أنكِ من ذلك النوع.

اعتدلت لتواجهه:

- أي نوع تقصد؟

لم يجبها، فقط اكتفى بالابتسام وحَكِّ لحيته الكثَّة بينما يسير إلى كرسيه الكبير قبالة الشرفة، جلس وأوْلَاها ظهره مستقبلًا البحر والأفق:

- منذ سنوات كانت لي ليلة لا تُنسى، حفل صاخب أقامه الملك وكنت حاجبًا بالقصر حينها، الموسيقى والمشاعل والطعام، وزوايا أروقة القصر المعتمة حيث الآثام تجد ملجأها، قضيت ليلة مع امرأة، نبيلة أرملة، لعب الخمر برأسها ورأسي، استيقظت وبالكاد أعرف تفاصيل ما حدث، وبعد عام كنت أجهز نفسي للإبحار مستشارًا لفرانسيس ابن عمي، وجاءت تلك المرأة وعلى يدها طفل وُلِد حديثًا،

ادعت أنه ابني وأنكرت ذلك، والخبر وصل إلى مسامع حاشية الملك، فاعترفت ببنوته. كنت أعلم أنه ولدي، أحسست بذلك، ولم أرد الاعتراف به خوفًا عليه أن يُيَتَّم، أردت أن يحظى بأبٍ غيري؛ فحياتي على الرغم من تجاوزي الأربعين، حينها كانت بالكاد تبدأ، وبداخلي كان يترسَّخ القول السائد بأن البحارة عمرهم قصير، على كل حال، حصل ذلك الصغير على اسمي، ولم أجد مناصًا من إرسال بعض الأموال والهدايا له ولأمه بين الحين والآخر، سينشأ نبيلًا في بلاط الملك، ولم أجد الوقت الكافي للجلوس معه ومعرفة هواياته وما يحب أن يكون، بالكاد أعرف شكله، وآخر مرة رأيته فيها منذ خمس سنوات، لعله كَبر الآن وتبدلت ملامحه. وربما لو عرضت عليه وعلى أمه أن يأتيا لهنا فسيرفضان، وللسيدة الحق في ذلك، إنها من ذلك النوع الذي تعودت مؤخراتهم على الوسائد الوثيرة، ذات ليلة راودتني أمنية أو طيف من خيال، ماذا لو كانت لدي ابنة أو ابن جاء وفق هواي للدنيا؟ ربما كان الأمر سيختلف حينها..

- كذلك أنا، كنت أحلم بعالم جديد وأن أصبح زوجة لشخص نبيل ويتوارث أبناؤنا النُّبل، ولكني وجدت من الصعب أن يوافق القدر أحلامنا.

- الآن تأكدت أنك من الفتيات الحالمات بأمير وسيم وحصان ذي سرج مذهب، وبيت أندلسي عتيق يُعلق على شرفاته الورد، الحياة ليست كما نتخيل، بل كما نصنعها، اغتنمي لحظاتك في هذه الحياة، فكل حاضر هو ماضٍ وذكرى ما بعد قليل، مازال في عمرك بقية لتفعلي ما تريدين يا فتاة.

- وماذا تبقى لك أنت لتفعله؟

- سأحفر اسمي في جدار المجد الأبدي، فحكايتي لم تنتهِ بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

غريبة هي الأيام ومجريات الحياة، والتي طالما كانت تشبه البحر، تارة هائج يموج غاضبًا، وكثيرًا ما يكون رائقًا، تقلبت حياته وتدرَّج عبر سِنِي عمره مرتقيًا درجات العز والوجاهة، حسين بن يزيد الكردي، أتمَّ عامه التاسع والأربعين يوم انتصاره العظيم في معركة شاول، ليحصل على مرتبة الإمارة، نعم، صار ابن الدباغ أميرًا للبحار، يقود أسطولًا عظيمًا هو رئيسه، يُبحر تحت إمرته سفن مملكتي الكجرات والزاموريين بالإضافة لبحارة من آل عثمان، تتهادى مراكبهم حول سفينته المهيبة المنصورة، ابتلع البحر حطامها ومعظم رجالها، لم ينجُ معه حتى الآن إلا قليل، وجميعهم مكبلون إلى صوارٍ خشبية غليظة من حوله، الفزع أصاب بعضهم بالوجوم وزاغت أعين آخرين، لم يتحدث معهم أحد مِن آسريهم، وكل محاولاته للتحدث معهم باءت بالفشل. كانوا متجهمين يعاملونهم بغلظة وفظاظة.

- إنهم هندوس ويبدو أن لديهم أوامر بعدم الحديث معنا.

هكذا قال إقبال أكبر البحار الهندي النحيف الجسد، وللمصادفة هو الناجي الوحيد من أسطول الكجرات الذي دُمِّر بالكامل، لا يترك الرجل شيئًا إلا ويعلق عليه، هو من كان يقودهم عبر الأدغال مدعيًا معرفته طريق العودة إلى مدينة ديو، وانقضى بهم الحال إلي الأسر، الشيخ الثرثار يُبدي فهمه في جميع الأمور، لغته العربية ذات اللكنة العجيبة لم تمنعه من التوقف عن الحديث، ولسوء حظه أنه مكبل بجواره متلاصقين الأكتاف، أما في الجهة المقابلة فكان الفتى يونس بن أيوب المصري، التقى بصرهما بأسى حين رآه في هذه الحال، يشفق عليه وعقله يعيد عليه ذكرى ذلك اليوم منذ بضع سنوات، حين وجده بحارة المنصورة مختبئًا في قبو تخزين الزيت، كان مصفرَّ الوجه يتصبب عرقًا وقد ملأ الأرضية قيئًا، وللوهلة الأولى ظنه سُليمان لصًّا، حتى عَرف هو عن نفسه صارخًا مستنجدًا:

- سيدي الشهبندر حسين، أنا يونس، أخو سليمان بن أيوب الذي يعمل معك في السوق..

استطاع مساعدته حينها وجعلهم يتركونه، وقبِل به ضمن طاقم السفينة بعد أن سمع منه حكايته وسبب هربه من بيت أبيه، أراد الفتى الالتحاق بركب الحرب المتجه إلى جدة لبناء التحصينات كما أوصى السلطان الغوري، واتفق معه في ذلك اليوم على أن يعيده إلى أبيه فور إيجاد مركبٍ عائد للسويس، مرت أشهر وكلما فكر في أن يرسل الفتى يونس إلى بر مصر يباغتهم القدر والبرتغاليون، ارتحل معه إلى مضيق باب المندب مطاردين سفن عدوهم ومقدمين الغوث لأهالي عدن وسقطرة، وصار يونس مساعده الذي يُعتمد عليه، كان نبيه العقل فصيح اللسان، يتعلم كل شيء بسرعة، وبعد أشهر من الإبحار كُلِّلت حملتهم بنصر ساحق في ديو، وللفتى نصيب من المجد إذ إنه -وفي خضم المعركة- قفز إلى سفينة البرتغاليين وقتل قائدهم الشاب لورنسو دي ألميدا، والآن من يصدق أن من أغرق الأسطول البرتغالي، صار أسيرًا لدى ثُلَّة من الهنود الوثنيين، على هذا الأمر أن ينتهي سريعًا، بأيَّة طريقة، حتى لو اضطر للموت وهو يحاول إيجاد سبيلٍ للعودة إلى مصر أو أيَّة مدينة من مدن الكجرات، اليأس والاستسلام لم يكونا من صفاته منذ كان صبيًّا في وكالة أبيه المعلم يزيد الكردي، لم يفتخر يومًا بأنه سليل الأيُّوبيين، بل عمل لنفسه وكدح ليصل إلى مكانته التي يستحقها، ساعات العمل في دبغ الجلود وتحميل القوافل الذاهبة إلى القاهرة والإسكندرية، اعتاد الرائحة المقززة التي تزكم

الأنف، وأكل المِلح جلد يديه وساقيه، ثم كبر وأمسك بزمام سوق الدباغة في وادي الطليمات والسويس وكل أرجاء بندر القلزم، وذاع صيته في أسواق القاهرة، وابتسم القدر له حين تزوج من سليلة أمير مملوكي، وهذا هو آخر ما كان يحلم به، رُفع قدره ولقبه من مُعلم إلى شاهبندر التجار، صاحب السوق الذي يجيد استغلال الفرص، جواد كريم يحبه العامة والخاصة، يمنح السائلين صدقات وافرة ويجزل العطاء للأرامل، هداياه تصل إلى حضرة السلطان الغوري في القلعة، ويبجِّله أمراء المماليك وجلبانهم، لم يَلبث أن سمع بأن مكة والحجاز وتجارته مهددة، فنهض بين الناس مناديًا للجهاد، حرب مقدسة ظن أنه سيحصد فيها المجد، ومنحَه قنصوة الغوري كل ما يريد ليحصن جدة ويقاتل البرتغاليين، ولكن الحرب لا يستوي لها حال، والمنتصر الأمس مهزوم اليوم.

مع شروق شمس ثالث أيام الأسر، جاء ما كان يخشاه، لفيف من الجنود البرتغاليون، استقبلهم الهنود بتبجيل، في البدء اختلى قائد الصيادين الهندوس مع القائد البرتغالي، الذي قضى النهار في كوخ الزعيم وبين رجاله، ومن وقت إلى آخر كان يلقي ببصره ناحيتهم، أمر رجاله بنقل الجرحَى من أسرى المماليك إلى أحد الأكواخ، ووسط نظرات الريبة والتوجس، جيء لهم بقليل من الطعام وبقربة ماء، لم ينتظر أحد الإذن من الرئيس حسين الكردي ليأكلوا، فحالما فكت أيديهم انكبوا على القصعة، يكبشون بأيديهم الطعام، ولم يكن هناك مجال للتلكؤ، كانوا جوعى وأكلوا دون أن يعرفوا ماهيته، ولكن إقبال حثّهم على الأكل، قال إنها خضروات مشوية ومهروسة مع التوابل نفاذة الرائحة، أكل يونس على استحياء، واكتفى حسين بشربة ماء وعقله مشغول بما هو آتٍ ولا يعرفه، وأما إبراهيم الصبَّاغ فكان يُحصي بنظره الجند البرتغاليين محدثًا أميره حسين الكردي بخفوت:

- أخشى أن يكون هذا الطعام كتسمين العجول استعدادًا لذبحها.

دار الرئيس بعينيه في المكان:

- لا أعتقد ذلك، إنهم يُمهدون لنقلنا إلى مكان آخر. ربما قويضْنا بما يحتاجه هؤلاء الناس من حاجة.

- الغريب في الأمر أنهم يعاملوننا بلطف، وليس هذا من طبع البرتغاليين، جميعنا يعرف ما فعلوه بمدينة مسقط وهرمز ومن قبلهم سُقطرة وعدن.

- اسمع يا إبراهيم، وأنتم كذلك.. أنصتوا جيدًا لما سأقول، سنرحل مهما كلف الأمر، حتى لو قُتلنا جميعًا ونحن نحاول الهرب من بين أيديهم، سننتظر اللحظة المناسبة لفعل هذا قبل نقلنا من هنا.

بدت الحماسة في أعين رجاله وخاصة يُونس الذي ابتلع ما كان يمضغه من طعام وقال هامسًا:

- أثق في أنك ستخرجنا من هنا سيدي الأمير.

وأضاف إقبال:

- سيدي إننا في مكان ما في شمال ساحل الملبار جنوب مومباي، ربما مازلنا بالقرب من مدينة شاول، وهؤلاء القوم من أهل الدكن يعرفون طبيعة الأرض أكثر منا، سيكون علينا الهرب إلى البحر.

قاطعه حسين بصرامة:

- بل شمالًا، بالتأكيد سفن البرتغاليين ترسو قبالة الساحل، كل ما علينا هو أخذ خيولهم إن استطعنا.

- شمالًا إلى أين؟

- نتوجه نحو أراضي آل لودهي، ونطلب العون من سلطانهم في دلهي.

لم تبدُ الفكرة جيدة لإقبال الذي تمتم:

- إنها بعيدة عن هنا كثيرًا.

بعد برهة صمت تحدث الصباغ مضيفًا:

- كما إن عددنا كبير مقارنة بعدد الأحصنة.

فما كان من حسين إلا أن رد بهدوئه المعتاد:

- سنتكاتف معًا ونخرج جميعًا من هنا، أعدكم.

ما إن أتم كلماته حتى أتى الجند يدفعونهم للعودة إلى الصواري الخشبية، رُبطوا جميعًا، وهذه المرة وُضِع يونس إلى جوار قائده، كان مبتسمًا واثقًا في أن الأمير حسين الكردي سيحررهم حتمًا، لقد رأى ما صنعه الرجل خلال ثلاثة أعوام ونصف من الإبحار معه، كان إلى جواره يوم شاول، حين فتك بالأسطول البرتغالي، يذكر رائحة النفط المحترق وهواء البحر الممتزج بالدخان، كانت معركة شرسة أثبت فيها بحارة المماليك سطوتهم على البحار، حتى جاء اليوم الذي باغتتهم فيه المدافع البرتغالية، وكانت الهزيمة التي جعلتهم الآن أسرى ينتظرون مصيرًا مجهولًا، ولكنه مطمئن لوجود رجال كإبراهيم الصباغ وحسين الكردي وإقبال بين الأسرى، إنهم سيفعلون أي شيء ليخرجوا من أغلال البرتغاليين وأعوانهم.

في تلك الليلة قص يُونس على قائده كيف أسِر، وكل تلك الهواجس التي راودته حين وجد نفسه وحيدًا على شاطئ مكدَّس بالحطام، أما عَقل حسين فكان في وادي الطليمات حيث منزله الكبير، اشتاق لرؤية بناته الأربع وزوجته، والجلوس معهم والاستماع لثرثرتهن، لم يرهن منذ سنوات، كيف أصبحن في غياب والدِهِن، وكان قد عهِد إلى رجاله ومن بينهم سُليمان برعاية بيته، هل ستُكتب له العودة إلى بر مصر مرة أخرى؟! كيف سيستقبله الناس وهو الأمير المهزوم، مَحقت الهزيمة أسطول المماليك الذي كان هو قائده، ولكن الحرب مازالت قائمة، وما زال بداخله ذلك الدافع للاستمرار، سيعود حتمًا، ويبني أسطولًا جديدًا حتى لو دفع فيه كل ما يملك، سيعيد الكرة وينتقم من ألبوكيرك وسيجليهم عن تلك الأراضي التي صار لهم فيها موطئ قدم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح استيقظوا والفزع يسيطر على قلوبهم، صرخات متتابعة لشخص يتألم أعقبها صمت مخيف، تبادلوا نظرات التساؤل فيما بينهم، ولم يمضِ كثير من الوقت حتى خرج من الكوخ الكبير، مجموعة من الهنود حاملين أجسادًا عارية، ألقوا بهم أمامهم وسط الساحة تباعًا كخِرق باليَة، الدماء تغطي الجثث الخاوية من الروح، مشهد بشِع ارتجفت منه أوصال الرجال وهم يحملقون في وجوه

أصحابهم الموتى، وعلى باب الكوخ الكبير كان يقف دون روميرو -القائد البرتغالي- وقد لوِّثَ قميصه الأبيض بالدم وكذلك يديه، كان نحيفَ الجسد أشقر المحيَّا، ذو وجه طويل وشارب رفيع منمق، يشق جانب وجهه الأيمن ندبة لجرحٍ أصاب جَفنه فجعل نصف عينه مغمضة، ملامح مخيفة وابتسامةُ دهاء لا تفارق وجهه المشوَّه، أملَى شيئًا في أذن أحد رجاله، وتقدم الجندي فوقف بينهم وراح يقلب بصره فيهم قبل أن يحدثهم بالعربية:

- يؤسفنا مصاب رجالكم، ولكنهم لم يتعاونوا معنا. كان بالإمكان أن يحتفظوا بحياتهم مقابل الإدلاء بمعلومة صغيرة، ولكنهم آثروا الصمت والموت، على كل حال، كانت حالتهم سيئة وسيموتون عاجلًا أم آجلًا، ولكنكم مازلتم أحياء تستطيعون فداء أنفسكم.. والعودة إلى بلدانكم وأهلكم، فقط إن أجبتم عن بعض الأسئلة.

ثبَّت الجندي بصرة على إبراهيم الصباغ ثم تابع ساخرًا:

- منذ عام انتصرتم على أسطولنا، أغرقتموه وقتلتم ابن نائب الملك، الدون لورنسو بن فرانسيسكو دي ألميدا لروحه السلام، وكل ما نريده منكم هو شخص واحد، الأمير حسين الكردي، وأعتقد أنكم تملكون عقولًا ناضجة كفاية لاختيار الحياة على الموت، أمامكم حتى الظهيرة، وهذه أجساد رفاقكم لتذكركم بمصير من لا يتعاون معنا.

تركهم ليغرقوا ببطء في وحل الأفكار الذي راح يبتلع عقولهم رويدًا، سكونٌ خانقٌ راح يغزو الصدور، وكل العيون تحاصر الأمير المكبل بجوارهم، ودَّ يونس لو صاح وقال إنه قاتل هذا الدون، ولكن شيئًا ما ألجمه، فآثر الصمت الذي كان مَلك المكان لساعات، وظلال الأشجار تتحرك من حولهم لتخبرهم أن الشمس في طريقها إلى الموعد المحتوم، حسين في وضع لا يتمناه أحدٌ، في الليلة الماضية وعدهم بالحرية، وأصبح لا يعرف ما عليه فعله، لا يستطيع لوم أحدهم إن وشى به، لا يَملك عليهم أمرًا وهم مثله أسرى لدى عدو يريد رأسه، شَعر بالأسى لحال رجاله، واختلجت مشاعره بين خوف وتسليم لما هو آتٍ، آثر الصمت بينما حدثهم إبراهيم الصباغ بلهجة حازمة وإن كانت نبرته خافتة:

- إياكم أن تفعلوا، نموت جميعًا أو ننجو جميعًا.

هز حسين رأسه نافيًا:

- دعهم وشأنهم يا إبراهيم، سأخبرهم أني من يريدون.

- سيدي، إننا جميعًا سواء هنا، أخوة تعاهدوا على النصر أو الشهادة، وكتب الله لنا النجاة معًا، سنبقى معًا حتى النهاية. إنهم يفرِّقون بيننا بتلك الحيلة، وإن جريحَ الأمس لم ينجُ اليوم، إن كانوا يضمرون خيرًا ما قتلوهم، ولكنهم فعلوا، ورفاقنا ماتوا ولم يشترِ أحدهم حياته مقابل تسليم رجلٍ منا، ثبتوا حتى النهاية، هذا البحر خُضناه معًا ولم نخشَ أهواله، قاتلناَ وانتصرنا وانكسرنا ولم نترك جرحى وراءنا، حملناهم معنا وتحمَّلنا معًا مشقة الهرب، بالله كيف نقدم قائدنا لهم، سيدي إن عدونا غادِر.. هو من جاء إلى أراضينا وهدد الحجاز وفتك بمدن المسلمين وسفنهم عربهم وعجمهم، سيدي الأمير أولسنا راية

الحق؟! ألم تعاهدنا على الموت في سبيل الله؟ وبايعناك أميرًا ورئيسًا على مراكبنا؟ ما تفعله من إيثار لن ينجينا! لن تخبرهم بشيء ولن نفعل نحن مهما طال تعذيبهم وأسرهم لنا!

صَمت برهة وجال في وجوههم جميعًا وهو يضيف بنبرة حادة صارمة وإن كانت خافتة كمجمل حديثه:

- قسمًا برب البيت الذي تركنا ديارنا وأهلينا للذود عنه، لأقتُلَنَّ من يخور إيمانه منكم، وهذا دين عليَّ ما حييت.

ما إن أتم إبراهيم كلماته حتى جاء دون روميرو في زُمرة من جنوده، في غير هيئته السابقة، بدى أكثر تأنُّقًا كفارس من أصول نبيلة، ينتعل حذاء جلديًّا طويلًا وسروالًا أبيضَ كَسَر سواد ملابسه، وقف أمامهم وعدَّل من وضع قبعته ذات الريشة الحمراء، ومن خلفه تراصَّت الخوذات والدروع الرمادية المصقولة، عكست ضياء شمس الظهيرة لتعلن عن انتهاء المهلة، وعلى أفرع الأشجار القريبة حطت عصافير وطيور، تنقلت بين الأغصان مغردة فيما بينها، ربما كانت تختار موضع رؤية جيدٍ لتشاهد ما سيفعله بني آدم ببعضهم بعضًا.

« حسنا من لها؟! من ذا الذي سيخبرنا بمصير أميركم ريس حسين الكردي»

أنهى الجنديُّ كلماته العربية، وقائده يحدق في الوجوه ببرود وملامح جامدة، مسح على طرف شاربه الرفيع والجندي يتابع قائلًا بغضب مفتعل:

- هل أكل السَمك ألسنتكم؟

أشار إلى أحد الأسرى فأتى به الجند:

- أنت! ما اسمك؟ وما عَملك على ظهر الأسطول؟

تلعثم البحار الأسير:

- أبو المعالي خليل، دبندار – ضارب الطبول- السفينة المنصورة.

- هل لديك أولاد؟

- نعم، ثلاثة.

- تشتاق لرؤيتهم بالتأكيد؟

كان يُترجم لقائده ما يتفوه به البحار الأسير، عدة أسئلة حاول بها الجندي رفع الخوف عن الرجل وأعين رفاقه المتوجسة، وسأله:

- ما مصير أميرك حسين الكردي؟ هل هو بين هؤلاء؟؟ وما آخر مرة رأيته فيها، علمًا أنك كنت ضارب طبول سفينته، تأتمر بأمره، وقد عايشته سنينَ أليس كذلك؟ ولكن قبل أن تجيب على هذا أخبرني، هل شهدت معركة شاول؟؟

أومأ برأسه وعيناه ترجو الحياة، اقترب منه القائد روميرو ومال عليه مربتًا على كتفه قائلًا بالبرتغالية جملة لم يفهمها البحار المرتعد، فأعادها الجندي بالعربية:

- هل تخبرنا الآن بما حدث لقائدك؟

تردد الرجل قبل أن ينطق:

- غرق، ابتلعه البحر مع حطام المنصورة.

قالها بثقة على الرغم من الرجفة السارية بجسده، كانت عيناه تلتقي بعيني القائد البرتغالي، الذي اقترب منه كثيرًا محدقًا في وجهه محدِّثًا إياه بالبرتغالية:

- أصدقك، ولكن خنجري لم يفعل..

قالها وهو يسحب سكينه من غمد بجانبه، ويغرسه في صدر البحار بقوة، كان ممسكًا بكتف البحار دافعًا الخنجر ببطء إلى صدره، صرخة مكتومة تبعتها شهقة خروج الروح ثم أفلته ليسقط والخنجر مثبت في موضع القلب، جحظت عين رفاقه واكفهر وجه حسين الكردي الذي تمتم في خفوت:

- لو أن لي بكم قوة..

في تلك الأثناء انحنى القائد البرتغالي نازعًا خنجره، وأخرج منديلًا من جيب صدريته، وتحدث إليهم وهو يمسح الدماء عن النصل اللَّامع، بينما الجندي يترجم لهم:

- أنا، دون روميرو دي سانتا، وقد عُوقب الوثني بما يستحق..

رسم الصليب في الهواء متمتمًا بصلوات في سره قبل أن يفتح عينيه ويثبتها على الفتى يونس، مستطردًا:

- كذب الرجل حين قال إن أميركم غرق، كما إنه شارك في قتل رجالنا المخلصين في معركة شاول، وربما كان صادقًا، وفي كل الأحوال مصير الأمير حسين كردي هو الموت سواء أصدق المنافق أم كذب، ولكني ألوم مساعدي الغبي، لأنه لم يَستطع الاختيار جيدًا من بينكم، فما أراه أمامي هم رجال ذوو مكانة ونبل يقدرون الأمور وفق نصابها.

استدار إلى مساعده وقال له:

- أحضر لي الصبي.

جملة تَرجمها الجند بالفعل، اتجه ورجاله إلى حيث رُبِط يونس، فكّوا وثاقه ودفعوه أمامهم ليسير عَنوة حافي القدمين، تجاوز الأسرى دون أن ينظر إلى وجوههم، العيون دامعة مترقبة ما سيحدث والقلوب يطحنها الألم، ووقف يونس بن أيوب أمام الدون روميرو دي سانتا.

شد الفتى قامته رافعًا رأسه محدقًا بوجه الدون، فوكزه الجندي بغلظة قائلًا بالعربية:

- اجثُ أمام الدون.

ولكن روميرو أشار للرجل بالتوقف، ألقى نظرة خاطفة على وجوه بقية الأسرى ثم عاد إلى الشاب ذي العين الكهرمانية وقد لامس نور الشمس وجهه وشعره الكستنائي، قائلًا بالبرتغالية التي لا يفقهها يونس:

- شاب واعد، ذو عود صلب وأصل نبيل لا يجب أن يُكسر.. ما اسمك يا فتى؟

اكتفى الجندي بترجمة السؤال للفتى فأجابه من فوره، نطق اسمه واسم أبيه بعزَّة، ثم سأله القائد وهو يشير نحو الأسرى:

- هل بين هؤلاء المقيدين خلفك هو الأمير حسين الكردي؟؟

أجاب يونس باقتضاب قبل أن يتم المترجم السؤال:

- لا.

- حسنًا أيها الفطين، ما دورك على السفينة؟؟

- الخادم الشخصي للشاهبندر حسين الكردي أمير البحر وريس المنصورة.

- عظيم، هل تهاب الموت يا يونس؟

- بل خرجنا لنبحث عنه.

- أولستَ صغيرًا على الخروج للحرب؟

لم يُجب يونس، ودَّ إخبارهم أنه قاتل قائدهم الشاب لورنسو ليفتدي حسين، ولكنه صمت كما أوصاه الصباغ، ساد السكون واشرأبَّت الأعناق والدون يرفع الخنجر أمام وجه يونس، لامس بطرف النصل الحاد جبين الفتى الذي لم يهتز، فضغط قليلًا ليحدث جرحًا انسابت منه الدماء، وروميرو يحدثه:

- لا تخف؛ لن أقتلك، سأقتلع عينيك البنية الجميلة، فهي آخر من رأت الأمير، أترى تلك الندبة في وجهي، ذات يوم حاول أحدهم استخراج معلومة مني، كنت في مثل عمرك، ولكني كنت أشجع بكثير..

كان يسحب نصله نزولًا على جبين يونس راسمًا خطًّا من جرح نحو حاجبه الأيسر والدماء تسيل، لم يستطِع تحمُّل الألم، حاول التملص رجوعًا للخلف، ولكن يد الجندي ثبتته والنصل يتجاوز عيني الفتى إلى خدِّه، وهنا قرر إبراهيم الصباغ النطق بصوت هادر:

- اتركوا الفتى، أنا حسين الكردي.

سرت بين الأسرى همهمات، بينما دفع روميرو الفتى الجريح جانبًا محدثًا إياه:

- أُنقذت يا فتى على الرغم من إنك جبان، ولعل تلك الندبة تذكرك بهذا اليوم إن كان لك حياة قادمة.

والتفت مبتسمًا إلى حيث يقبع إبراهيم الصباغ، أشار لرجاله ليأتوا به بينما حدَّث مساعده:

- أرأيت كيف يتم الأمر؟

أعيد يونس لمربطِه وسُحِب إبراهيم الصباغ على وجهه إلى داخل كوخ الدون، انفضّ الجند البرتغالي كلٌ إلى مهامه، وانتشر الهنود إلى ما كانوا يَفعلون خلف الأكواخ، حزن حسين لمصاب يونس النازف والمربوط إلى جواره، ظل يلوم نفسه ويخشى النظر في وجوه رجاله، كان يحدث نفسه سرًّا:

- كم أنت جبان يا ابن يزيد الدباغ، ماذا يقولون الآن عنك؟؟ قائد جبان خوار يخشى الموت، افتدى إبراهيم الفتى بشجاعة، وبقيت أنت وقد تملك الخوف من لسانك! اللعنة عليك يا حسين! تحمل كره المماليك له لسنوات، لم يكن مثلهم، كان حرًّا، وحاز منصبه ومكانته بالكد والقرب من السلطان الغوري.

- سيدي، هوِّن عليك، رأيت الخوف في عيني قائدهم.

قالها يونس المبتسم على الرغم من خيط الدم المنساب على جانب وجهه الأيسر، ظل حسين محدقًا في وجه الشاب العنيد، والذي بدا أنه قرأ أفكار أميره، تعجَّب من صموده أمام القائد البرتغالي، يَملك من الشجاعة والفطنة ما لا يملكه هو، ها هو مقيَّد عاجز عن إنقاذ رجاله الذين يتناوبون افتداءه بأرواحهم، شَرد قليلًا قبل أن ينظر إلى عيني يونس الذي مازال يحتفظ بابتسامة متوجعة:

- يونس، سنخرج من هنا، أعدك.

ثم استدار برأسه ليواجه رجاله:

- لن يَقتلوا إبراهيم الصباغ، لن يَموت أحدٌ بسببي، سنخرج من هنا عندما تسْنح الفرصة، وحتى ذلك الحين تجهزوا بإيمانكم على أن تكونوا في الموعد.

ابتهجت الوجوه المتوجسة، وما لبثت أن تبدلت القسمات لدهشة حين نادى حسين في الجند البرتغالي بصوته المَتِين:

- أنا الأمير حسين الكردي.

كرَّرها مرتين حتى خرج الجندي الذي يُترجَم من الكوخ، ألقى ببصره نحوهم، فكرر حسين كلماته، ولم يمضِ كثيرٌ من الوقت حتى أتوا، فكُوا وثاقه ثم انهالوا عليه ضربًا قبل أن يسحبوه إلى كوخ القائد كما فعلوا بإبراهيم الصباغ من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

داخل الكوخ الخشبي، جَلس الدون روميرو رافعًا ساقيه فوق المنضدة، ممسكًا بخنجره ممرِّرًا إيَّاه بين أصابعه بخفة، ومثبتًا عينيه على الرجلين الجاثيين أمامه، وخلفهما مساعده الجامد الملامح وجنديان آخران، بَصَقَ روميرو جانبًا قبل أن يقول محدِّثًا إياهم بالبرتغالية بينما يترجم مساعده:

- أكره الكاذبين، والآن يجلس أمامي اثنان، كل منهما يدَّعي أنه حسين الكردي.

أنزل ساقيه ضاربًا الأرض بعَقِب حذائه واعتدل في جلسته:

- على الرغم من حالكم هذا ومظهركم الرث، إلا إنني أرى في عينيكما أنفة وعزّةَ الأمراء.. أحدكما صادِق، والآخر يفتدي رفيقه، أحب هذا الإيثار النبيل بداخل الكاذب منكما، ولكن تعذيبكما أو قتل أحدكما لن يفيدني في شيء، وليس لديَّ الوقت لذلك، ولكن الدون فرانسيسكو يريد الأمير حسين الكردي، ماذا عليَّ أن أقول له؟ وجدت اثنين يحملان الاسم نفسه؟؟ هل أجز عنقيكما وأخبره أن الأمير حسين مات؟؟

قطع مساعده الصمت مجيبًا:

- دون روميرو، أرى من الحكمة أن نذهب بكليهما.

نهض منفعلًا عاقدًا حاجبيه، ملوِّحًا بالخنجر صارخًا في وجه الرجل:

- من طلب رأيك؟؟

- سيدي..

- اصمت أيها الغبي.. وخذ هذين الأحمقين خلفك واتوا لي بثلاثة أسرى، سنلعب لعبة قطع لسان الكاذب، هيا امضِ.

خرج الجندي متأفِّفًا بعد أن أدَّى التحية للدون المغرور، وقف بين حسين وإبراهيم اللذين لم يفهما حديثه مع رجاله، تأمَّلهما واضعًا يدًا فوق رأس الأول والثانية القابضة على الخنجر على رأس الثاني، أغمَض عينيه وتنفَّس ببطء، بينما يفرك شعر الكردي الفضي الناعم بفظاظة ويضرب ببطن النصل رأس الصباغ، كان روميرو يَشعر بنشوة عارمة تسربت إليهما، جاثيان تحت رحمة رجل مجنون سيتلذذُ بتعذيبهما، شعور سيء حين تحاط بخطر يهدد حياتك ويرج كيانك ولا تعرف ما عليك فعله، جذب الدون رأس الأمير حسين للخلف قابضًا على شعره بعنف وواضعًا النصل المصقول على رقبة تنبض عروقها، وتمتم بالبرتغالية:

- شجاعتك زائفة يا هذا! وسنرى مدى تحملكما. قررت أن الليلة لن تمر إلا وسينجو أحدكما من الموت، على الأقل حتى يقابل الدون دي ألميدا.

ألقى جملته الأخيرة وترك رأس أسيره، اعتدل وأقفل بزهوٍ وملأ صدره بشهيق ناقلًا بصره بين وجهيهما، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة زهْوٍ قبل أن يوليهما ظهرَه، وليته لم يفعل. كان ذلك كافيًا لمن تعود على اغتنام الفرص طوال حياته، من عاش يرتقي درجات الحياة دون خوف من أيَّة عاقبة، غمزة عين من حسين لصاحبه، وهب الاثنان واقفان خلف الدون، لم يكمل التفاتَتَه حتى فوجئ بقبضة إبراهيم تعتصر معصمه، وحين هَم بالصراخ كانت يد حسين الكُردي تحيط بجانبي وجهه، صوت قرقعة تحطم عنقه كان آخر ما سُمع في الكوخ، سكن كل شيء، قتلاه في طرفة عين وظلَّا واقفين ممسكين به تغلفهما الظلال، والشاهد عليهما خيوط الشمس المتسللة من الجدران الخشبية، أرقداه أرضًا بروية وإبراهيم الصباغ يحدث جثَّته:

- وددت لو طعنت بذلك النَصل قلبك.

نهره حسين بيديه وتوجه إلى أغراض القتيل عابثًا بها:

- إبراهيم، علينا تحرير بقية الرجال قبل أن يلحظ الجند موت قائدهم.

سحب السيف الرفيع من غمده متأمِّلًا إياه محدثًا إبراهيم:

- لا أعرف كيف يقاتلون بتلك السيوف الغريبة.

- سأكتفي بخنجر ذلك المنافق.

قالها إبراهيم بصوته المتحشرج بينما يُبصر من الشقوق ما يحدث في الخارج، خيَّالة هنود يخرجون من القرية في طابور معتمرين عمائمهم البرتقالية، وقعُ حوافر خيلهم النحيل راح يبتعد، وفي الساحة حيث رفاقهم الأسرى، وقف مساعد الدون يُباشر شيئًا ما يحدث عند بقية الأسرى، سرعان ما تبين لإبراهيم الأمر فحدَّث صاحبه:

- سيدي، إنه يوم سَعدنا.

جاء حُسين ليقف في الجانب الآخر من جدار الكوخ، ألقى ببصره، وما لبثت أن برقت عيناه، المساعد قادم بجنديين وثلاثة أسرى، اثنان من بحارة الأسطول المملوكي وثالث من أسطول الزاموريين، أطلَق صفيرًا خافتًا وأشار لإبراهيم أن استعد، التصقَا بجانب الباب، الوقت مر ببطء ولا يُعكِّر صفوَ الصمت إلا دقَّات قلبيهما وأنفاسهما التي تُلهب نصلين برَّاقين.. وفُتح الباب.

كُل شيء تم بسرعة مذهلة، ما إن فَتح مساعد الدون الباب، هرول إلى الدَّاخل جاحظ العينين متفحصًا جسد قائده، وفي الوقت الذي انحنى فزعًا على سيده مَرَّ من فوق رأسه الخنجر الذي ألقاه إبراهيم، وفي اللحظة ذاتها بُوغت الجُنديان خلفَ الثلاثة أسرى بسيف الدون الرفيع، كان أداة مُثلَى ليجز به حسين رقبة الجندي الأول ويُرشقه بكل قوته في عنق الثاني، وقبل أن يسقطا دفع قاتلهما الباب بقدمه ليغلقه، وحين صاح المساعد مناديًا على رجاله بالبرتغالية، أفاق صراخه الأسرى الثلاثة، انقضوا عليه وانهالوا عليه ضربًا، خفت صوته وسط بركان الرَّكلات حتى ارتطم رأسه بالحائط، صاح فيهم حسين وهو يركض نحو الباب الموارب:

- ابحثوا عن أي شيء يصلح للقتال؛ لقد سمعوا الجلبة، علينا تحرير رفاقنا، نحن أكثر عددًا منهم.. أسرعوا.

التقط إبراهيم سيف أحد القتلى، ثم عاد وبحث في ركن الغرفة عن خنجر الدون وأميره يتابع:

- سنباغتهم قبل أن يقتربوا من الكوخ. إبراهيم، تأكد أن كلَّ رجالنا أحرار قبل أن نمضي للغابة.. من ينجُ يتبعْ الشمس؛ فهي إلى مرقدها ذاهبة. وكذلك من سيقف في طريقنا.

غمر الضوء النهار أجساد الخارجين من الباب المعتم، حسين ورجاله شقُّوا طريقهم عبر الساحة يقاتلون ببسالة ومهارة، كانوا خفيفي الحركة كمن يرقص على الماء، بحارة حفاة وجدوا في الركض على الثرى متعة لا توصف، السيوف تصطك والمناورات من كلا الجانبين متفاوتة، كرٌّ وفرٌّ، تراجعٌ وتدحرجٌ، أسقط إبراهيم رجلين قبل أن ينضم مع حسين الذي فتك بمبارزه، قطعوا الحبال ليتحرر الرجال تباعًا، وتستعر المعركة أكثر بوصول الفرسان الهنود، سقط من لم يستطع الحصول على سلاح من الأسرى، وانقلبت الموازين، والخيل يركض يمينًا ويسارًا مطيحًا بهم، وجندي برتغالي

يسقط على نيران، فيركض يمينًا ويسارًا ووراؤه خيط من نيران، اشتعل المكان سريعًا وانفرط عقد الأسرى، فرُّوا إلى الغابة ركضًا وبما غنِموه من الأحصنة، تركوا خلفهم حسين وثُلَّة قليلة يقاتلون على الجانب الآخر من النيران، ناداهم إبراهيم ولم يسمعوه، وربما فعلوا، ضاع صياحه وسط هدير المعركة، غير متكافئة والغلبة عليهم لا محالة، حوصِر حسين وإبراهيم ورجالهم، وأحال سورٌ من نار بينه وبقية من أسرى لم يُفكَّ وثاقهم، ومن خلفه المعركة قائمة، التقت عيناه بعيني الفتى يونس من وراء النيران، الوهج يترقرق فيهما، والصباغ يناشده الرحيل ممسكًا بعضده:

- إن بقينا فسنموت جميعًا لنرحل، وسنعود لنجدتهم. مولاي، ليس هناك وقت.

وأمام بصر يونس الراجي الحريةَ، جذبه إبراهيم الصباغ ليخوضا معركة شرسة من أجل الحياة، وبكل غيظ داخله راح حُسين يُقاتل بضراوة، كإعصار راح يطيح بمبارزيه، يشق طريق نجاته ورجاله عبر الأكواخ والنيران حتى اختفوا جميعًا داخل ظلال الدغل الكثيف، وانسكب من عيني الفتى يُونس فيضان من دمع لم يفلح في إخماد نيران اشتعلت بقلبه، ونفسه تحدثه:

- لقد تخلَّى عنك الأمير حسين الكردي يا ابن أيوب المصري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

صُبِغت سماء تلك البقعة من هندستان بالأرجواني، الغابة تحترق من أثر مرور شيفا في الأنحاء، يبدو أنه كان غاضبًا على تلك القرية القاطنة وسط الأشجار الكثيفة، لم يهتم بهؤلاء الثكالى من عباده المخلصين، نحيب النساء اقترن بصيحات الرجال الفزعة، النيران المتأجِّجَة التهمت كل شيءٍ في طريقها، ولا مفر من موت يتلذذ باختيار ضحاياه على مهل، وبينما كان الناس يركضون بحثًا عن النجاة، انكفأ الصغير «سونجار» تحت قدمي غانيش، تضرَّع ضامًّا كفيه، منكس الرأس والدمع يقطر من مقلتيه، ابتهل طالبًا من إله الحكمة والسَّلاح أن يُنجيه وأهل قريته من محنة عاصفة، لم يضروا أحدًا ولم يعتدوا على جيرانهم، قال الصبي الصغير بصوت متهدج ونبرة باكية حزينة:

- أيها الميمون غانيش، سأسمع كلام أمي ولن أعصيَ والدي.. أرجوك أيها القدير أنجدنا وجميع أهل القرية من الجحيم، لا تجعل شيفا يأخذنا بذنب لم نقترفه.. إننا نحبه كما نبجلك يا قدير..

كان سونجار منهمكًا في تلاوة دعواته العفوية حين جذبه أبوه، أمسك بذراعه وهو يصيح:

- لنرحل قبل أن تبتلعنا النيران.

تطلع الصبي بوجه أبيه الفزع وقال ببراءة:

- سينجينا غانيش يا أبي!

اكتفى الأب بإلقاء نظرة سريعة على تمثال معبوده الجالس أمامه متربعًا يشير بأذرعه الأربع في اتجاهات مختلفة، أشاح ببصره عن تلك العين الجامدة التي تحدق فيه، والفتى يحاول الإفلات من قبضة أبيه مستطردًا:

- أبي، ثق فيه؛ لقد تحدث إليَّ منذ قليل..

جذبه أبوه إليه وحمله عَنوة على كتفه، كان عليهما الهرب قبل أن تصل النيران إلى الكوخ، صرخ سونجار وتشبثت أنامله بالفراغ، كان يرجو لو أن يحتضن جسد غانيش الجالس في ركن الغرفة، النار ترتفع من خلف التمثال ويضوي الوهج على جسده الأصفر، والدخان راح يَعُم المكان، وذو وجه الفيل لم يتحرك ليُنجي نفسه من الحريق، وكان آخر ما رآه الصبي هو اشتعال الميمون غانيش، وألوان عينيه تسيل فوق خرطومه اللامع.. وفي الخارج وبينما يهرول الناس، راح الأب يركض حاملًا ابنه الباكي، سعى بكل جهده للخروج من الأتون المشتعل، ولكن لا مفر، وقف بين الناس في الساحة يبحث عن بقية أفراد أسرته، وسونجار مازال يتضرع لصورة غانيش المستقرة في رأسه، كان يُؤمن أن القدير سيمحو المِحن في طرفة عين، طالما أخبرته أمه أن حكمة غانيش ورحمته يأتيان عَقِب غضب شيفا، إنه قادر على التجلِّي وإنقاذ رعاياه في لحظات الكرب. ولكن لا مفر وقد أطبق الموت عليهم جميعًا، أحيط بهم من كل حدب وصوب بنار تصلى الوجوه والأجساد، ضمه أبوه بقوة إلى صدره قائلًا في أذنه:

- أغمض عينيك ولا تفتحهما يا سونجار.. سنكون بخير وسنعود مرة أخرى لتلك الحياة، ربما بصورة أخرى، ولكننا حتما سنلتقي يا بُني..

ودوى هزيم رعد ليصم الآذان، وكأن النار ارتعدت خوفًا من ذلك الصوت المهيب، برق يَضرب سقف السماء الأرجوانية من فوقهم مرارًا، القلوب انخلعت، وسونجار الوحيد الذي رفع عينيه للسماء، وحين دمدم الهزيم مرة أخرى خُيِّل إليه أنه سمع اسمه يأتي من فوق سُحب الدخان، ولما أنار البرق الأفق البعيد رآه.. الميمون غانيش يقف كعملاق خلف حاجز النار والدخان والأشجار، بصدر عارٍ وأذرعه الأربع وقوامه المشدود مفتول العضلات، وأذنين كبيرتين يخفقان مع الريح، رفع خرطومه للأعلى في هيبة تليق بقدير جاء لنجدَةِ صبيٍّ مكروب دعاه.. وانهمر مطر ثقيل فوق الهامات ورماد الأكواخ، ولم يلبث الماء أن جرى فيضانًا مغرقًا الأزقة والبنايات، واهتزت الأرض فتوجَّست قلوب لم تكد يخفت خفقاتها، واقتحم ما بقي من نيران قطيع كبير من الأفيال، عبرت البلدة بطولها فاتحة طريقًا عبر أكوام من حطام ورماد ونيران خمدت بفضل دعوات سونجار.. وسجَدَ الأب فرحًا مصدقًا ومبجِّلا الإله غانيش.

ما أن أتمَّ راما الراجبوتي كلمات قصته على مسامع الأطفال المحيطين به، فسأله أحدهم:

- ماذا حدث لسونجار بعد ذلك؟

داعب الشاب رأس الصبي بلطف وحدثه بينما يضع إكليلًا من زهور حول رقبة التمثال الماثل أمامهم:

- عاش في سلام وصار خادمًا مخلصًا للميمون غانيش.

متسرعًا سأله طفل آخر وهو يلوِّح بيده في الهواء:

- سيدي، هل قطيع الفيلة الذي فتح الطريق لأهل قرية سونجار هم جنود غانيش.

تدخل طفل ثالث ووكز صاحب السؤال:

- أيها الأحمق، إنها مجرد حيوانات.

هزَّ راما رأسه نافيًا وهو ينحني محدثًا الطفلين:

- عليكما التأدّب في الحديث فيما بينكما، حتى يحبكما غانيش، ولا تنسيا أننا في حضرته الآن.. بالتأكيد هم جنود القدير سخرهم لينقذوا عباده.

خفض كل منهما رأسه في تبجيل، وراما يتابع حديثه إلى بقية الجَمع من الأطفال حوله:

- إن القدير يرعانا ويرى كل أفعالنا، وفي تلك الأيام خاصة علينا أن نتحلَّى بالخلق الكريم والفعل الأصيل، ليمنحنا هباته ويمحوَ المحن عنَّا وينصرنا على أعدائنا.

قاطعت حديثه فتاة سمراء تقف بين زمرة الصغار:

- هل تلك المرأة الجميلة وقومها في الحصن هم أعداؤنا؟!

ألقت كلماتها بينما تُشير ناحية ماتيلدا التي كانت تقف على مسافة منهم تراقب ما يَفعلونه، ألقى راما ببصره نحوها وأطال النظر فحدَّثته الصغيرة مرة أخرى:

- سيدي، هل هم كذلك؟؟

التفت إلى الصبية مبتسمًا محاولًا تفادي النظر إلى مقلتين يفيضان بالفضول، مدَّ يده إلى طبق الحلوى الكبير أمام تمثال غانيش، التقطه وأخذ قطعة من حلوى الأرز وجوز الهند وراح يمنحها تباعًا للصغار أمام مرأى الدوقة البرتغالية، كان يُحدِّثهم بمرح:

- من يريد مزيدًا من حلوى الدواك، عليه أن يأتيني بمزيد من أكاليل الزهور والاستعداد لمهرجان غانيش غدًا.

انفض الصغار من حوله مهللين فرحين، تابعهم حتى ابتعدوا عن المكان ومازال جاثيًا على ركبتيه، وضع طبق الحلوى الفارغ إلا من قطعة واحدة جانبًا، ورفع وجهه لتلتقي عيناه بعين غانيش، أطال التأمُّل في وجه معبوده، ودفء الشمس يغمر المكان، قلبه كان عامرًا برجاء أن يمنحه غانيش ما يكفي من الحكمة لخوض حَرب الحياة، كان منذ زمن أميرًا كشتاريا -محاربًا- رفيع المقام كوالده مهراجا جبال راجبوتانا التي انفصلت عن حُكم إبراهيم لودهي حاكم دلهي، ولكنه الآن مجرد خادم شريد عند غزاة جدد، نعم، البرتغاليون كذلك ولكنهم لم يطاردوهم وينسفوا تماثيل الآلهة كما فعل المسلمون المتوحشون، الذين دنَّسوا معابد شيفا وبافارتي واصطادوا الفيلة المقدسة، كم يبغضهم ويتمنى زوالهم عن أرض هندستان، ستلفظهم عنها ذات يوم، هكذا كان يحدث نفسه دومًا حتى صارت الأمنية أملًا أتى به سفن البرتغال، شاهد بأم عينيه سفن العرب المسلمين تغرق قبالة سواحل ديو، وقريبًا سيقود جيشًا عظيمًا من الراجبوت وقبائل السند إلى دلهي ليسقط حُكم آل لودهي المسلمين، سيبني ذات يوم تمثالًا عظيمًا بحجم جَبل للميمون غانيش، وسيرفع راية الشمس البرتقالية فوق جبال الراجبوت وهضَاب الدكن ووادي السند، بعد أن نُكِّست لقرون منذ أتت أول جحافل الغزاة العرب ومن بعدهم قبائل الترك والمغول، على هندستان أن تعود إلى أصحابها الأصليين، أغمض عينيه وسجد ملامسًا بأطراف أصابعه قدمي غانيش متمتمًا:

- أقسم أمامك وأمام جميع الآلهة، أني سأخوض الحرب حتى آخر أنفاسي، وأرجو أن يكون لاسمي حظًّا مما ناله المُبجل راما ذات يوم، أنا قوس الحرب ونصل رُمح يرتوي من دماء المسلمين الجبناء ممن غرر بهم.

اعتدل جالسًا والتقط صحنًا ممتلئًا بمسحوق تشاندان الأحمر، راح ينثره فوق تمثال غانيش المبتسم على الدوام.. ما أن انتهى من صلاته حتى سَمع صوت ماتيلدا من خلفه:

- إلى ماذا يَرمز هذا الوثن؟؟

نهض من فوره وانتصب قائمًا أمامها، حاول جاهدًا إخفاء حنقه لوصفها، خفض رأسه قليلًا وقال:

- إنه الميمون غانيش، إله الحكمة والسلاح.

اقتربت من التمثال وأخذت تتفحصه عن قرب:

- ولماذا يحمل إلهكم رأس حيوان فوق ذلك الجسد السمين المترهل؟؟

- تلك قصة طويلة، أيتها الدوقة، هل لنا أن نذهب من هنا؟؟

- يبدو أنك تخشى تدنيس مقام صنمكم هذا.

هز رأسه نفيًا:

- لا سيدتي، ولكن المكان لا يليق بك هنا، علينا العودة للحصن وفي الطريق سأقص على مسامعك كيف حصل الميمون على رأس الفيل إن كنتِ تحبين سماعها.

- سيكون من الجيد سماع بعض الهرطقات في ظل تلك الأجواء الكئيبة.

- عفوًا سيدتي، لم أفهمك.

- لا عليك، ولكن أخبرني ما الذي يحدث هنا؟؟ أرى أنكم تعلقون الأكاليل والزينة منذ أيام، هل هذا لاستقبال الدون فرانسيسكو دي ألميدا؟؟

- لا، إنه عيد غانيش، احتفالات نقيمها للإله.

- حسنا، ثم؟؟

- من الأفضل أن نسير إلى الحصن؛ فالناس هنا ليسوا لطفاء على الدوام حين يتعلق الأمر بوجود شخص غريب في حَرم القدير.

كان يحدثها مشيرًا إلى الجموع التي بدأت تتوافد على أطراف الساحة، كانوا يرمقونها بامتعاض بينما يقف حارساها واضعان أيديهم على مقابض سيفيهما، وراما يستطرد:

- بالتأكيد ستشاهدين الاحتفالات، ستستمتعين بالأمر، أؤكد لكِ.

أتم جملته وانحنى ملتقطًا قطعة الحلوى المتبقية في صحن الأطفال، مد يده إليها ولكنها لم تأخذها، رمته بنظرة حادة واستدارت متجهة إلى حارسيها اللذين دفعا الجموع ليفسحوا الطريق للدوقة، تبعها راما بعد أن ألقى بقطعة الحلوى في فمه وراح يلوكها غير مبالٍ بنظرات الممتعضين من حوله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قضى راما بقية اليوم داخل الحصن بينما يُعلق أهل البلدة الزينة، تتبع طرف ثوب الدوقة الشابة وراح يقصُّ على مسامعها حكايات عن قريته وأهله ومغامراته في سهول البنجاب وجبال راجبوتانا، مقاومته لملك المُسلمين الكَجرات مالك معاذ، وبطولته أمام سلطان كاليكوت في معركة هلك فيها عشرات الفيلة ومئات الرجال، كان هنا في كوتشي حين رست سفن البرتغاليين أول مرة، حينها رأى البحار العظيم ألفونسو دي ألبوكيرك وصاحبه الدون المرموق فرانسيكو دي ألميدا، تأسَّى للحال الذي وصل إليه الرجلان، من صاحبين متعاونين إلى عدوَّين أحدهما أسير وآخر يحظى بمجد ثأره من قاتل ابنه، أخبرها كيف تَعلم لغتهم سريعًا حتى صار الرجل الأول في تقوية التحالفات وحشد قبائل الهند وممالكها للحرب ضد عدوهم المشترك، أراد إثارة شغفها في محاولة بدت واضحة للجميع، فضحه التودُّد إليها، وكانت ماتيلدا جامدة المحيا وإن بدى قبس من بريق بعينيها الجميلتين، حين قصَّ عليها سبب تَسميته «راما»، وكم هو محظوظ لأن أباه سماه هكذا تيمُّنًا بالإله راما، كان حكَّاء بارعًا، يعرف كيف يَلضم التفاصيل ليحوك أسطورته الخاصة التي يصدقها ويؤمن بها، ولعلها ابتسمت حين

روى وأدّى أمامها جزءًا من قصيدة لملحمة شعرية تعثر في ترجمتها إلى البرتغالية، الرامايانا. قصَّ تفاصيل التفاصيل بأداء حركي مشخصًا المشهد، حكاية الصراع الأزلي بين الخير والشر حين خاض راما حربه، في مهمة جليلة ليطرد الشر ويدحره وهذا ما تسبب في خطف الغالية زوجته المحبوبة سيتا، سعيه لإنقاذها كان محل تقدير شيفا الذي مُنحه خلودًا وفرصة، لتكون له ملحمة يتحاكى بها لسان التاريخ، شَرح لها كيف تحالف مع قائد القردة هانومان المقدس، والذي ساعد الميمون راما لينقذ الجميلة سيتا. كانت المرة الأولى التي يزور مجلس الدوقة، عبير عطر الياسمين يعبق الجناح الوثير، الصليب المُذهب يُشِع ويضيء الحائط الحجري، المكان رائع وينقصه لمسة جمال هندية، هكذا أخبرها، لم يُنغص عليه الوقت سوى ألبوكيرك، القائدِ الأسير ذي النظرة الحادة، كم يَصعب عليه تصديق أن هذا الغازي الداهية يُحبس هكذا. ولكن للبرتغاليين شئونهم الغريبة في القيادة والحُكم ويرهقه التفكير فيها، كل ما يَعلمه ويترسخ بداخله أنهم أناس جاءوا في وقتٍ مناسب ليغيروا ما ألمَّ بالهند تحت حكم أعدائه. رحل عن مجلسها وقد داهمهم الليل، كان على يقين أن حكاياته سَلبت لُبَّها، أسئلتها وإن كانت قليلة، فهي تدل على لمحة فضول تراود روح الفتاة بداخلها.

قضى ليلته مستلقيًا فوق سَطح الحصن، متدثرًا بلحاف سماء صافية مرصعة بنجوم ساطعة، الجو دافئ، والريح ساكنة، وراية البرتغال منسدلة على الصاري، لعلها ترجو قليلًا من هواء يداعب ثناياها، كذلك الشعور الذي راوده هذا النهار، لا يدري سبب تلك القشعريرة التي تملكت قلبه حين كان بجوارها، هل حماسته كانت مفرطة وهو يتحدث عن ملحمة الرامايانا؟ وكيف للحب أن ينتصر على المصاعب والشرور؟ التقط ثمرة تفاح وقضمها، وعيناه تتأملان زرقة الليل ونجومه الماسية المشعة، أعاد عليه عقله مشهد حديثه مع الدوقة الفاتنة. مُهر برتغالي أصيل، ودَّ لو لامس بأصابعه ذلك العنق المرمري الطويل، وشعرها الكستنائي المائل للحمرة، تثير بداخله كثيرًا من العواصف، منذ جاء إلى هنا صار تلصصه عليها هواية اعتاد عليها، وأصبحت الأيام لا طعم لها دون رؤيتها، مغرورة كبني قومها، تتبختر في مشيتها وتنتقد كل شيء، كلماتها اللاذعة وسخريتها من معتقدات قومه لم تؤثر في ذلك الشغف المقرون بحضورها الطاغي، حتى إن عاملته بازدراء فسيظل إلى جوارها حتى يظفر بها، وإن كان الأمر يكاد يكون مستحيلًا، ربما خُلِقت من طين آخر، ولكنه التجلِّي الحي لراما، هكذا كان يَنظر إلى ذاته وحياته التي خاضها على أنها ملحمة، كل المآسي ما كان ليجتازها لولا قوته وسعيه وقدرته على تخطي العقبات، تذكر سؤال الطفلة الصغيرة له حول البرتغاليون، فأخذته سِنَة شرود قبل أن يغلق عينيه محدثًا نفسه:

- نعم يا صغيرتي، هم كذلك.

نوم عَميق لم يقطعه سوى كابوس أقضَّ مضجعه، كانت الآلهة دورغا ذات العشر أيادٍ، ولكنها في حال يرثى له، سقطت عن ظهر ببرها العملاق، والذي كان يقف غارسًا مخالبه في صدرها وينهش بأنيابه أذرعها، حين هَم بالاقتراب منه استدار له كاشفًا عن أنيابه ولسانه الخشن يقطر زبد، ترك جسد الربة الممزق واقترب منه وقد حاصرته عيناه المتقدة، كان يتصبب عرقًا وقد تَملكه الخوف من ذلك السَبُع الضاري، وحين انقضَّ الوحش المفترس ليقضم رقبته، نهض راما صارخًا فزِعًا، تحسس عنقه وراح ينظر للسماء من فوقه وقد تبدلت ألوانها معلنة عن قدوم الفجر البعيد، أَمسك إبريق الماء وشرب دون أن يأبه بالقطرات المنسابة على صدره، حاول جاهدًا إبعاد ذلك الكابوس عن رأسه،

وعقله يُنْبِئَه أن تلك الرؤيا في ليلة عيد غانيش قد تكون نذير شؤم، وخاصة أن الربة التي قضى عليها الببر في حُلمه هي أم غانيش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حركة لم تتوقف منذ الصباح في محيط الحصن والبلدة الصغيرة من ورائه، سكانها الهنود انتشروا يكملون استعداداتهم للمهرجان، بنشاط وضحكات وغناء، رأتهم ماتيلدا يحملون قصعات عامرة بصنوف شتى من الفاكهة وصحون الطعام المختلف ألوانه ورائحته، يرتدون أبهى حللهم التي يغلب عليها الأبيض والبرتقالي، نسوة يتضاحكن لمغازلة الرجال لهن، وأخريات يرقصن على قرع الطبول، صخب من ألوان زاهية عَمرت المكان، ونُصُبُ تمثال غانيش على منصة خشبية مرتفعة، بدَّلت بصرها بين ساحة الحصن الهادئة، وزحام البلدة في الأسفل، هؤلاء الوثنيون يثيرون ضجيجًا لا تتحمله، كذلك الشغف الذي أصاب لُبَّها، تريد أن تتعرف أكثر إلى خبايا وأساطير تلك البلاد العجيبة، أحسَّت أنَّ تناقضًا غريبًا تملك من روحها، بعدما سَمعت قصصًا جديدة أضيفت لحكايات السمر، التي تحظى بها في زيارتها المتكررة للأسير ألبوكيرك، في الليلة الماضية وبعد العشاء ذهبت إلى البحار العجوز كعادتها، وحين حدثته عما ذكره ذلك الهندي عن آلهته الوثنية، بَصق الرجل ومط شفتيه قبل أن يحدثها بعصبية:

- احذري من أولئك القوم، وعلى وجه التحديد ذلك المدعو راما، هؤلاء الناس مجرد عبيد أدنى مرتبة منا نحن، عامليهم هكذا دومًا، أنا أدرى الناس بهم وبه، لا أعلم لمَ سَمح لهم فرانسيسكو ببناء قرية نتِنَة بجوار الحصن، إن مَلك كوتشي مدين لنا بكل شيء، وتلك الأرض اقتطعناها منه مقابل قذائف مدافعنا التي أمطرنا بها أعداءه، والآن يَمرح الهنود فرحين بنصب أصنامهم على أرض مسيحية، كل شيء انقلب رأسًا على عَقِب، ولم أعد أستطيع تحمل مزيدٍ من حماقاته، ولكن صبرًا.

- وماذا تنوي فعله وأنت مقبل على الموت؟!

- ما بكِ يا فتاة؟

- أنا؟ أم أنت دون ألفونسو؟؟ لماذا كل تلك العصبية، أنا لست عدوتك لتنفعل عليَّ بتلك الطريقة.

- كلما أتيْتِي إلى هنا جئتِ على ذكر الموت.. ستعدم يا دون.. ستموت يا ألفونسو، توقفي عن فعل هذا، فمازال لي في الحياة بقية.

- هل تنوي الهرب قبل عودة صاحبك المنتصر؟؟

صب لنفسه كأسًا من نبيذه المفضل وهو يحدثها:

- سفينتي والبحر صديقاي، وليس لي سواهما خليلان.

- هل تفكر في الهرب، أستطيع مساعدتك إن أردت؟

- تسخرين مني يا فتاة؟! الأسد لا يهرب من ساحة حربه. لماذا تأتين إلى هنا؟؟

تهدج صوتها وهي تنهض مستقبلة الشرفة بوجهها:

- لا أعلم حتى اللحظة، ولا تظن أني أشمت بك أو أتشفى بكونك حبيسَ ذلك البرج الكئيب. ربما الوَحدة والرغبة في الحديث مع أحد نبلاء قومي، أنا وحيدة تمامًا أيها الدون، أتعرف ذلك الشعور بضياع الأحلام وضبابية المستقبل؟! هذه أنا أقف تمامًا في منتصف حياة لا مستقبل فيها، وكل ما مضى مجرد ذكرى سترافقني إلى حيث أمضي.

- يا بُنيتي، أنت صغيرة، ومازال أمامك كثير لتفعليه، أما أنا، فالموت وشيك.

ضحكت على الرغم من الدمع المترقرق في عينيها، كانت تلك المرة الأولى التي يناديها بُنيتي، ولعلها كانت بحاجة لعناق أبوي يحتويها، أيامُ طَمَثها تجعل مِزاجها عاصفًا وروحها منقبضة، وأصاب حديث الرجل شيئًا من لين، ظل طوال الليل يذكِّرها بمعجزات المسيح وآلامه في سبيل أبنائه، وكيف خاض أجدادها حروب استرداد ساحل إيبيريا من عرب الأندلس، وحين أحس بوجومها أخبرها أنه لا بأس إن استمتعت بمهرجانات وأغاني وقصص أولئك الهنود، ولكن يجب عليها أن تتحلى بيقين ضلالهم وأنهم بحاجة لمعرفة ضياء الرب، الذي سخَّره لفتوحات البحر والبر ومحاربة أعدائه، وكذلك عليها أن تؤمن بسبب ما لوجودها هنا على ساحل الهند الشرقي.

أمرت حُجَّاب الحصن بتجهيز موكبها للخروج إلى الاحتفالات، تحدَّت نظرات وقسمات وجه القس المعترض، لم تبالِ سوى بأمر اكتشاف ما يفعله الهنود عن قرب، أرادت المشاركة حقًا في قرارة نفسها، ولعل كلمات ألبوكيرك هي من شجعتها لاكتشاف ذلك العالم الغريب من حولها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج من الحصن ثلاثة خيول حربية يمتطيها فرسان مدرعون من حملة الرايات، ومن خلفهم فرس سوداء ذات غرة بيضاء تمشي بخيلاء متقافزة برشاقة، فلا تكاد تلمس أطراف حوافرها الثرى الرَطِب، شموخ وسمو يليق بتلك الفاتنة على صهوتها، ومن خلف الدوقة المبجلة يسير طابورٍ من الجند منتظم الخطوات، لم تكن المسافة للبلدة بعيدة وتستدعي كل هذا الحشد من الجند، ولكنها فَعلت كما قال ناصحها الأسير، أن تتعالى وترتفع فوق هامات الهنود الوثنين، وكذلك فعلت. راح موكبها يشق جموع الناس والضجيج يخفت كلما توغلت هي ورجالها داخل بَحر صاخب من اللونين الأبيض والبرتقالي، حدقت فيها العيون وحاصرتها لعنات لم تغادر الصدور، رائحة العرق نفاذة على الرغم من قصعات البخور المنتشرة في أرجاء المكان، رائحة تزكم الأنوف وسط توجس وترقب وهمهمات ارتفعت حين اعترض موكبها «راما»، برز من وسط الجموع ليقف أمام حملة الرايات وخيولهم الضخمة، كان يربط حول رأسه عصابة من قماش برتقالي، قميص عارٍ صدره يظهر منه جسده المفتول، قدم التحية للفرسان وابتسم في وجه الدوقة سائلًا:

- هل هناك شيء نستطيع تقديمه لكِ سيدتي؟!

أجاب عنها أحد الفرسان:

- الدوقة تريد أن تشارككم بهجتكم.

- بالطبع يمكنها ذلك، ولكن لمَ كل هذا السلاح؟! أتخشى الدوقة في حضرة رعاياها؟!

لكزت ماتيلدا بطن فرستها فتقدمت بضع خطوات للأمام وهي تحدث فرسانها:

- عودوا إلى الحصن إن شئتم أو شاركوا في الاحتفالات إن أحببتم ذلك.

أنهت كلماتها وهي تنزل عن صهوة الفرس الهادئة، وأمام النظرات المتسائلة حدثت راما:

- أخبر قومك أن يحتفلوا كما يشاءون، ما جئنا لهنا لنخرس صلواتهم ونبدد فرحة عيدكم.

ما أن أتم راما ترجمة كلماتها حتى ماجت الناس بصخب هادر، عادت الطبول تُقرع والمزامير تنشد، فرحت النسوة بها، رُحْن يتحسسْن ثوبها وأخريات يُلبسنها أكاليل الزهور البرتقالية، أجواء احتفالية عمتها البهجة والأغاني، ألبسنها ساريًا مخمليًّا زيتيَّ اللون، ونقشن الحناء على يدها، تنافسن في تقديم صنوف الحلويات إليها، أعجبها ذلك النوع الذي اسمه موداك، كان يذوب سُكره في الفم بنعومة، كانت منبهرة بما يفعله الناس من حولها، بسطاء يهزون وجوههم المبتسمة على الدوام، يقدمون مصنوعات يدوية وفاكهة وصحون الطعام لتمثال إلههم، يتضرعون لأن يمحوَ اليأس ويجنبهم المحن، بعد الظهيرة راحوا يتجمعون حول قصعات الطعام والفاكهة، يأكلون ويطعمون الأطفال الذاهلين مما يحدث حولهم، ألوان تُنثر في الهواء، وراما يَرقص مع الرجال أمام نظر غانيش المبجل وعيني ماتيلدا. كانت تختلس لحظات لمشاهدته، محبوبٌ وسط قومه، وسيم ذو ثغر باسم على الدوام، تتبرك بجسده الفتيات في أمر مثير للعجب، يتمسَّحون به ويحتكون بجسده بينما يقدم القرابين لغانيش عنهن، ما إن انتهى من تأدية الشعائر المثيرة للدهشة وأتى إلى حيث تجلس بين النسوة، انحنى أمامها في تبجيل محدِّثًا إياها:

- لقد ازداد العيد جمالًا بوجود الدوقة، ونرجو أن تكوني قد استمتعتِ حقًّا بالاحتفالات.

- يوم مبهج بالطبع، ولكن مازالت هناك كثير من الأشياء تثير فضولي.

جلس بالقرب منها، فقامت النسوة وتركوا المجال لهما، ابتسم وهو يقدم إليها إبريقًا فَخاريًّا وراح يصب لها عصير الفاكهة الممزوج بالعسل:

- أنا رهن إشارتك، وكل ما تودين معرفته سيكون من دواعي شرفي أن أخبرك عنه، إن كنت أعلم.

تناولت كأس العصير الذي قدَّمه لها قائلة:

- ما المغزى من كل هذا؟؟

- إن كُنتِ تقصدين الغناء والرقص والقرابين، فهي طقوس وصلوات ونذر؛ حتى يرضى غانيش وتحل روحه بالسلام علينا. ما إن ينتهي ذلك القِسم من الاحتفالات فسيكون علينا حمله إلى مياه المحيط وغمسه في الماء قبل أن يَرحل حاملًا معه الآلام والمحن.

- وهل يَفعل ذلك حقًّا.

- بالتأكيد سيدتي، كل هؤلاء المؤمنون من حولك يمنحونه صلواتهم وذخائرهم من كل شيء يحبوه، يضحون بكل غالي ونفيس لأجل أن يعطف عليهم بما يريدون.

ابتلعت ضحكتها برشفة من عصير الفواكه الممزوج بالعسل، استساغت طعمه حُلو المذاق قائلة:

- إلى ماذا يرمز ذو وجه الفيل هذا؟ وما حاجته لأربع أيادٍ؟؟

- أرى أن نبرتك ساخرة سيدتي، وقد يثير هذا غضب غانيش، ولكن على كلٍّ، سأصلي ليغفر لكِ، سيعذرك بالتأكيد فأنتِ لا تعلمين شيئًا عن بركاته وكرماته.

- لم أقصد الإهانة، ولكني أردت مَعرفة مزيدٍ عن عاداتكم وتلك الأمور الخاصة بهذه التماثيل والعقائد المتعلقة بها، هذا كل ما في الأمر.

- حسنا، لم يتبق كثير من الوقت في الاحتفال، ولكني سأكون سعيدًا بقصِّ حكاية الميمون غانيش على مسامعك..

راح راما يخبرها قصة القدير شيفا ذي الجسد الأزرق وزوجته بافارتي الحسناء وابنهما غانيش، الذي قارع والده في معركة كبيرة، بينما كان الأب لا يَعلم أن ذلك الفتى المقاتل هو ولده، وكذلك لم يكن يَعرف غانيش أن ذلك المقاتل الغاضب هو أبوه كبير الآلهة شيفا المبجل، قتال عنيف انتهى بأن طارت رأس الشاب الصغير مفارقة جسده بعد أن جزَّ أبوه عنقه، ووسط زهوة النصر وتلاحق الأنفاس خَرجت بافارتي عارية من مسبحها لتجد ابنها دون رأس والدم يُغرق صدر زوجها وسيفه البراق، صراخها بلغ أقاصي الأرض، راحت تلطم وتبكي وتهيل التراب على رأسها، احتضنت بحسرة جسد ولدها الذي قتله أبوه، الذي اعتذر لها وأقسم إنه لم يكن يعرف أن ذلك الحارس الصغير هو ابنه. ولكن بافارتي أقسمت أن تعيد ابنها للحياة مرة أخرى، وعلى الرغم من حزنها أبت أن يساعدها شيفا في الأمر، قررت أن أول من يَمر من أمامها فستأخذ رأسه، وكان عابر الطريق فيل، فقامت بقطع رأسه وتركيبه على جسد غانيش، ليعود الفتى للحياة مرة أخرى وبقوة قدير يزيل العقبات ويمحي الأحزان عن نفوس عباده.

ضحكاتها أوقفت حكيَه، استفزته تلك القهقهات المرتفعة، راح يتأملها بصمت حتى توقفت فسألها:

- عفوًا سيدتي، ما المضحك في القصة؟!

- في الحقيقة لا أعرف كيف لا يَعرف الإله أن ذلك الفتى الذي يحاربه هو ابنه؟؟

- لم أفهمك.

- أعني أن الرب يَعلم كُل شيء، فكيف بهذا المدعو شيفا إن كان إلهًا حقًّا ألا يعلم بأمر ولده؟؟

بحث في أركان عقله عن إجابة، وما كاد ينطق حتى أتى له جمع من الناس والكهنة يخبرونه أن الوقت قد حان، نهض دون أن يستأذنها ومضى معهم، رأته يندس وسط الزحام قرب التمثال الكبير، جميعهم يترقبون تلك اللحظات الأخيرة من المهرجان، التفَّ الرجال حول غانيش وحملوه على محفة خشبية كبيرة واضعين أكاليل الزهور حول عنقه، كان راما بينهم، لم يلتفت، ويداه تمسك بخشب المحفة، راحت الطبول تدق برتابة، والمحفل ينطلق نحو الشاطئ وتتبعه الجموع الغفيرة، وفوق الرءوس والهامات كان غانيش يسير إلى محطته الأخيرة، على شاطئ البحر، وقفت في أول الصفوف، وشمس المغيب الحمراء تتهادى بلطف لمرقدها، ومن فوق البحر الأزرق الهادئ تجلى

اللون الأرجواني في السماء، خاض الرجال في الماء حاملين وثن غانيش، وما أن وصلت المياه إلى صدورهم غمسوه ثلاثًا، وعلى البر كانت الابتهالات تختلط بالدمع، وأفلتت الأيادي المحفة الخشبية، دفعوها لتطفو برقَّة حاملة جسد غانيش الممدد عليها، أبحر مع الموج الناعم، وجميعهم يودعونه، وما إن خَرج الرجال ومن خلفهم راما الراجبوتي، انبثقت في الأفق الأرجواني البديع، أشرعة الأسطول البرتغالي المنتصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

انسابت زهرة البحار بنعومة فوق سطح المحيط، بدنها القوي يحمل أثر عاصفة عاتية، خرجت منتصرة بأعجوبة من معركة شرسة، ورُقعت ألواح جانبيها بأخشاب جديدة لم يعلق بها الطحالب بعد، تتهادى فوق الماء مخلفة وراءها موجًا رقيقًا وعدة نوارس مُحلِّقة، وجدت في كنفها ملاذًا وراحة إن اضطرت للمبيت، وعلى متن البسطة العملاقة ذات المدافع، عَمل البحارة على لملمة الأشرعة الكبيرة الحمراء ذات الصليب الأبيض، شراعها يُميِّزها عن غيرها من السفن والطرادات من حولها، على مقدمتها وقف الدون فرانسيسكو دي ألميدا عاقدًا يديه أمام صدره، الريح الخفيفة داعبت ريشة قبعته الكبيرة، وعيناه تراقب شاطئ كوتشي وتفاصيله التي تظهر رويدًا، الرمال الصفراء الناعمة عامرة بالناس، ومن خلفهم على التلّة المرتفعة قلعته الكبيرة ذات الأبراج، كان شاردًا حين ارتطم ببدن السفينة شيء جعله يميل بجسده إلى الأمام ساندًا على الحاجز الخشبي، تمثال غانيش مستلقٍ على ظهره، وعيناه الواسعتان تحدقان فيه بينما يطفو بجسده المغطى بالورد، بصَقَ ونادى في رجاله:

- أغرقوا ذلك الوثن اللعين.

سارع رجاله في تنفيذ الأمر، ووسط الضحكات الصاخبة، كانت عينا دي ألميدا مثبتة على الشاطئ وبُرج الحصن الشمالي، حيث يقبع غريمه وسجينه ألفونسو دي ألبوكيرك، راح يُرتب أفكاره بصعوبة، سيكون عليه الجلوس أمام أسيره، سيفحمه بقصص معركته البطولية التي هَزم فيها أسطول المماليك، سحق سفنهم وحلفاءهم، انتقم لروح لورنسو، وقصم ظهور سلاطين المسلمين في تلك الواقعة التي سيخلِّدها التاريخ، ولكن قاتل ابنه هَرب، لم يَمت حُسين الكُردي، ودَّ لو ظفر برأس ذلك الأمير المملوكي، لاذ الوغد بالفرار بعد أن كان تحت قبضة رجاله، يَشعر بغصة تَسدُّ حلقه والسفينة تستعد للرسو، البحارة يُلقون بالحبال لعمال المرفأ، وانقبض قلب الدون، وتملكت رجفة من ذراعه الأيسر وكأنه خُيِّل إليه أن ابنه -لورنسو- بين الجموع، وها هو يعود منتصرًا على الرغم من أنف المتربصين والمشككين في قيادته، وهؤلاء الذين يحبون ألبوكيرك وينفون روايته، سيخرسون جميعًا الآن، ويُحكم سيطرته على جميع سفن الأسطول البرتغالي وقادته، ولكن كيف يحدث هذا دون مقابل، عاد من الحرب خاليَ الوفاض، لا ذخائر من ذهب ولا عملات من فضة، بالكاد كان يحصل على الماء وقليل من الطعام من الهنود الغادرين، هؤلاء الهمجيون، لا يكاد أحدهم يثبت على رأي ثم يبدِّله، ولكن الآن على جميعهم أن يخشوه، سيطلب من ملك كوتشي مزيدًا من الإمدادات من الرجال والخيل والسفن، سيفرض عدة مراسم تسمح له بالتحكم في تجارة التوابل، سيبجِّلونه رهبة وخيفة، فهو بطل معركة ديو المنتصر، الذي أغرق في معركة واحدة أسطول عظيم من سفن ممالك المسلمين المتحالفة، سيكون عليه أن يقود حملة بطول ساحل المليبار لتوطيد مُلكه وسطوته نائبًا للملك على أراضي الهند، وبالتأكيد أخبار الانتصار ستعيد إليه مكانته حاكمًا بأمر المَلك، في قرارة نفسه كان يَعلم أن بقاء البوكيرك يهدد حياته وكل ما يبنيه، لذا سيدبر أمر محاكمة للخائن وسط زخم الاحتفالات بالنصر، سيعدمه أمام الجنود والنبلاء وحتى تحت أنظار الهنود.. وربما سيتزوج من جديد لينجب أطفالًا، لمَ لا؟ وهو لم يتم عامه الخمسين، سيعيد الكرة مادام في جسده روح، سيأتي بوريثٍ يحمل اسم عائلته النبيلة، ويَرث مُلك تلك الأراضي البعيدة عن الديار، حلم أراده لابنه الفقيد، ولكن ما حدث قد حدث، وللرب حتمًا حكمة في ذلك، وها هي جنة الرب ممتدة أمامه في انتظار فتوحاته.

هبط فرانسيسكو الدرج الخشبي بخطوات زهو متفاخرة، نالت من وجهه الأبيض حُمرة شمس المحيط التي مكث فيها أشهرَ، ونَمت لحية كثة بُنية تناثر فيها الشَّيب، احتفاء رجاله تزامن مع وقع طبول الهنود من حوله، رقص وأغانٍ وأهازيج، وظن البسطاء من الناس أنه تجسيد لروح غانيش وقد عادت بالأفراح، ملابسه السوداء المذهبة منحته وقارًا وهيبة، راحوا يحيّونه وينثرون ما تبقى لديهم من ورد فوق موكبه، كان يسير بينهم متجهًا نحو القلعة في موكب نصر رفض فيه أن يمتطي جوادًا، أحب تلك الأجواء وشعور بالزهو يعتري روحه، كان يضحك والصغار يتسارعون لتقبيل يده، ووقفت عيناه بغتة حين رآها، كانت تقف في مقدمة المستقبلين قرب باب الحصن، نعم، هي على الرغم من اللباس التي ترتديه، إلى جوارها كان فيليب وراما الراجبوتي، لم يلق لهما بالًا وهو يدقق النظر في ماتيلدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان نهارًا طويلًا، أوت ماتيلدا لفراشها بعد أن تَحمَّمت، شمَّت إبطها بعد أن فركته بالطيب، أزالت أثر ما عَلق بها من عرق وروائح المهرجان، استرخت في ثوب نوم من الكتان الأزرق المُعرق بماء الذهب، أغمضت عَينيها لتتدفق في ثنايا ذاكرتها أحداث اليوم، الاحتفالات والبهجة التي غمرتها حتى وصلت لذروة نشوَتها وقت وصول الأسطول، والفرحة التي تحوَّلت إلى لوم وكلمات قاسية عن الواجب والحداد، تلقَّت تعنيفًا قاسيًا ولم تستطع الرد، لم تكن تُريد لشيء أن يُفسد الغبطة التي تملأ روحها، لم تشاركه العشاء، وادَّعت أنها بحاجة للراحة، وبينما كان الدون ورجاله يقيمون حفلة عشاء ويلوكون لحم الخنزير المشوي، اكتفت بحبات من فاكهة منحتها السُكَّر الكافي لتهيم برياض حلمها، العودة إلى لشبونة والبدء من جديد، ربما عليها وداعُ ألبوكيرك حين تحيَّن الفرصة، منذ الصباح ستنهمك في تجهيز أغراضها والإشراف على خادماتها، سيرحلن معها بالتأكيد، عليها أن تجمع بعض الهدايا لوالدتها وزوجات إخوتها، وربما يجب أن تختار شيئًا ثمينًا للملكة والملك، سيكون ذلك لطيفًا، ستجالس نساء البلاط وتقصّ على مسامعهن حكايات عن تلك الفترة التي قضتها هنا، اكتفت من الهند. يشغلها أمر البحار الشيخ وما سيحدث له، لا تدري لما اختلجت مشاعرها وهي تتذكر كلماته لها، الرجل بحاجة لمساعدة لم يَطلبها، ولكنها لن تُغضب فرانسيسكو دي ألميدا، لن تُقدم على شيء يجعلها في مهبِّ رياحه، كل ما تريده هو أن تنعم بنوْمٍ هادئ على الرغم من صخب الرجال المحتفلون في ساحة الحصن.

غَفت، أخذتها سِنَة، فتحت جفنيها وقد خُيِّل إليها أنها سَمعت وقع أقدام، أرهفت السمع ولا شيء سوى عزيف الريح يجول في أروقة الحصن، مازال مصباح الزيت موقدًا، تدثرت تحت الفراش وهَمت بالنوم، ولكن جلبة ما قرب بابها جعلتها تتجمد، ظلت بالوضع ذاته مولية ظهرها للباب، هناك من يَقف خلفه، تكاد تَسمع أنفاسه، لم تعتَد على وضع خنجر أسفل وسادتها كما أخبرها والدها يومًا، وليتها سَمعت نصيحته، صرير أصابها بقشعريرة تملك أوصالها، وقع الخطوات صار أقرب وأثقل.. والتفت بحركة سريعة أفزعت المتسلل، رَفع الرجل يديه ملوحًا في الهواء، بينما كانت تُمسك هي بيديها مصباح الزيت، رفعته أمام وجهه وهو يحدثها قائلًا:

- تمهَّلي.. أنا فرانسيسكو دي ألميدا.

تفحصت ملامحه على الضوء الشحيح، كان قد شذب لحيته الكثة وبدى وجهه منتفخًا مُحمرَّ العينين، تفوح منه رائحة الخمر، تمايل وهو يخطو نحوها متلعثمًا:

- لا تخافي، جئت لأطمئن عليكِ فقط.

- دون فرانسيسكو، ربما عليك الذهاب للنوم، كانت رحلتك شاقة.

جلس على طرف الفراش بينما مازالت هي واقفة بالجانب الآخر، حدثها بعد أن تجشَّأ:

- عذرًا، يبدو أني أسرفت في الشراب الليلة، أتعرفين؟ نفتقد خلال إبحارنا النبيذ الجيِّد، نعم، كانت الرحلة شاقة، وكم أحتاج للراحة!

وضعت المصباح على المنضدة الصغيرة بجوار الفراش وهو يتابع حديثه:

- تعالي واجلسي بقربي يا صغيرة..

كانت نبرته تفيض بالغرابة، ولم تتحرك هي نحوه قيد خطوة، سَكن الكون فجأة إلا من صوت أنفاسهما، صمت طويل قطعَه فرانسيسكو بنبرة يشوبها الحسرة:

- كان من المُفترض أن تكون تلك غرفة لورنسو.. أفتقده كثيرًا، كيف لا؟ وقد شَب على يدي! اصطنعته لنفسي ليكون خيرَ وريثٍ، ارتحلنا معًا وأبحرنا معًا نحو المجهول، خاض معي أهوال الحرب ونعيم السِلم، كان خَير ولد، والآن.. رحل حتى دون أن يودعني. دون أن يترك قَبرًا أزوره وأجعل فوقه نُصُبًا يخلد ذكرى بطولته.. كم أكره البحر! كان آخر من ضم جسده، طوال الأشهر الماضية كان يُخيل إليَّ أني أراه بين الموج، سمعته ينادي اسمي مرارًا ليكسر صمت الإبحار المُوحش..

لا شيء يُبكي الرجال سوى العجز والقهر، حين يوقن أحدهم أنه عاجز عن مقارعة القدر وتغيير مجرى المقادير، حينها يكون البكاء معذرة للنفس على العجز وقِلة الحيلة، كان الدون مكسورًا ينتحب على فلذة كبدِه، حاولت أن تَكتُم الدمع فلا ينساب، ولكن مُقلتيها أُثقِلت به، فاضت الدموع على وجنتيها وهي تقترب منه وتحتضن رأسه بين يديها، هدهدته قائلة بنبرة حاولت جاهدة أن تكون قوية لا ضعف فيها:

- سيدي، هون على نفسك، ما حدث قد حدث ولا شيء يرد ما كتبه الرب..

ظلت تحدثه بينما كانت يداه تطوقان خصرها بلطف، ورأسه المُثقل على صدرها الفَتِيِّ، حديثها ناعم كملمس جلدها العَبِق بعطر سُكَّري الرحيق، نفاذ توغل إلى رئته، وصُمَّت أذناه عن كل شيء إلا صوتها العذب، تغرد وتزقزق كعصفور رقيق يفيض بدفء وحنان، لم تَشعر إلا بذراعيه وقد التفت حولها كثعبان عاصِر أطبق عليها فجأة، شفاهه جالت بجنون على منبت نهديها الكاعِبَيْن، على الرغم من الدهشة، تملك منها الفزع سريعًا وحاولت المسكينة التملص من الشيخ الماكر، كتم صرختها وهو ينهض حاملًا إياها ملقيًا بها على السرير، وانقض فوقها كوحش مسعور يريد نهش ما أمكن من لحم ضحيته، اليائسة تحاول الفرار، وتؤكد لعقلها أن ما يحدث ليس إلا كابوس، أرادت أن تفيق ولكنه جثم فوق جسدها الضئيل، ولم تجد للتخلص منه سبيل، محاولاتها اليائسة لم تتوقف لتتحرر يدها اليسرى

من تحت صدره، وغرست مخالبها في لحم وجهه، وكقطة حُوصِرَت بين أنياب كلب شرس راحت تدافع عن نفسها، ما أن أفلتت يدها الأخرى حتى انقضت عليه تكيل له اللكمات والصفعات، ابتعد صارخًا متحسِّسًا وجهه وآثار أظافرها، أما هي فكانت تقف فوق الفراش ممسكة خنجرًا سحبته من غمدٍ بحزام خصره حين تراجع عنها، أشار لها أن تخفضه، وحدثها بصوت مرتفع على الرغم من رجفته:

- أنزلي ذلك النصل يا فتاة!!

- ماذا تحسبني أيها الخنزير، هيَّا اخرج على قدميك أو تخرج جثةً.

- أعتذر عمَّا بدر مني.

- لا مزيد من الكلمات أيُّها النذل، قسمًا إن لم تخرج الآن فسأقتلك وأرسل رأسك هديةً للملك..

- إن أردتِ قتلي لفعلتي..

بتر جملته وهو يتراجع للوراء من أثر هجومها المباغت عليه، كانت تنوي قتله، عيناها لا تكذبان، التصق بالباب متحسسًا مقبضه وعيناه لا تزالان على ماتيلدا، التي تحوَّل شكلها تمامًا عما يعرفه وهي تقترب منه أكثر فأكثر، فما كان منه إلا أن خرج مسرعًا وأغلق الباب، دوى صدى الباب عبر أرجاء الحصن، وكذلك صوت المزاليج النحاسية التي أغلقتها هي من الداخل، على الرغم من انتصارها، كانت خائفة ترتجف وتستند بظهرها إلى الباب، لم تُفلت الخنجر وهي تجلس أرضًا القرفصاء باكية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة باردة على غير العادة، وربما هو الخوف الذي يسري بعروقها، أحسَّت بالوجع يتملك بجسدها، ظلَّت جامدة خلف الباب لساعات حتى انبلج الصبح، ضياء النهار ارتفع رويدًا في طرف الأفق البعيد فوق الغابات الممتدة، لم تكن تتخيل أن هذا يحدث يومًا، الرجل كان بمثابة والدها، فضلًا عن أنه كان سيكون والد زوجها، لم تجد له مبررًا لفعلته الدنيئة، ردعته، ولكن ماذا بعد؟؟ لمن ستشكو فعلته التي سينكرها إن واجهته أمام جميع النبلاء، ولكن أي جميع هنا سيقف ليشهد على الحاكم؟! كانت ضعيفة وحيدة، لا تملك سوى خنجر و.. ألبوكيريك.

الشخص الوحيد الذي قد يسمعها، قشَّة وسط بحر هائج، أسيرٌ مثلها في ذلك الحصن، ربما يتعين عليها أن تتقوى به، هكذا فكرت على الرغم من يقينها أن الرجل ميت لا محالة، بدَّلت ثوب نومها الممزق وقبل أن ترتدي آخر تحسست أثر أصابعه الخشنة على جسدها، اغرورقت عيناها بالدمع وارتدت ثوب الحداد الأسود، وقلادة ذهبية يتدلى منها صليب كبير كانت قد أهدته لها أمها، عَبرت ممرات الحصن الخاوية، جميعهم نيام، ودورية الحراسة يسترخون فوق الأجولة وكثبان القش في الساحة، ورياح الفجر الباردة تعبث بما تبقى من مشاعل لم تُطْفأ نيرانها، وعلى باب محبس ألبوكيرك نهض الحارس متفاجئًا من قدومها في تلك الساعة، عملة ذهبية ووعد بمزيد إن أدخلها ولم يخبر أحدًا، تردد قبل أن يحدثها هامسًا:

- الدوق نائم الآن.. سيدتي لا أريد الوقوع في المتاعب، الدون فرانسيسكو قد يقتلني.

حرصت على أن تظهر قبيعة الخنجر المخفي في كُم ثوبها وهي تحدثه بنبرة جافة:

- لن يعلم أحد بتلك الزيارة، افتح الباب.

فتح الحارس الباب بيد مرتجفة وبيده الأخرى تلقف رِشوَته، مرَّت وظلَّ يحدق فيها ولم يغلق الباب إلا حين التفت إليه وهمست:

- لا تخف، ما جئت لقتل شيخ نائم.

أوصد الحارس الباب برفق أمام ابتسامتها الباهتة، وما أن استدارت حتى فوجئت بصوت ألبوكيريك الأجشَّ يُفزعها:

- حسنًا، لماذا جاءت الفتاة إذن؟ إن لم تأتِ لقتلي خلسة؟؟

ظلا يحدقان في بعضهما بعضًا لبرهة قبل أن تركض وتلقي بجسدها على الرجل الذي تلقفها بين ذراعيه، انفجرت بالبكاء، احمرت وجنتاها وسال أنفها من جراء تلك السخونة التي تملَّكت منها، أزاح دهشته من فعلها جانبًا وأخذ يُربت على ظهرها متعجِّبًا، وما أن هدأت روحها، أخذت تقصُّ عليه ما حدث من الدون الخبيث، ورقَّ قَلب ألبوكيرك، لعلها المرة الأولى التي يأسى فيها على أحدهم، طالما ظن أن قلبه صار جامدًا مُغطى بملح البحر، ظل يستمع إليها حتى فَرغت عيناها من الدمع، ولم يجد لسانها كلمات أخرى لتضيفها، وظل السكون يجالسهما حتى نَهض محدثًا إيَّاها:

- من الأفضل أن تَعودي إلى جناحك، حتى لا يُلاحظ غيابك.

حدقت فيه بعينين أُجهد جفونها البكاء وسألته:

- أهذا كل شيء؟

رفع كتفيه وحرك رأسه محاولًا تفادي نظراتها:

- ماذا تتوقعين من أسير ينتظر الموت؟

- تساعدني..

- وقد فعلت..

عقدت حاجبيها واختلجت أنفاسها:

- كيف؟؟

- أظهرت لكِ معدن دي ألميدا.. لقد زارني قبل أن يأتي إليَّ غرفتك بالأمس، الخمر لعب برأسه وراح يتباهى متفاخرًا بصنعه ونصره على المماليك، وكيف انتقم لمقتل ابنه.. ولكن فرانسيسكو نسي أني أعلم أهل الأرض به، نسي أني أعرف نقاط ضعفه ومخاوفه.. كنا صديقين في زمن ما، وأعرف ما يُريد وما يشتهيه.. وما أبقاكِ هنا إلا ليحظى بكِ.. هكذا حسبت وصدق حدسي، وما كان عليَّ سوى أن

أشعل فتيل رغباته التي يراها مستحيلة. الرجال يكرهون من ينتقص رجولتهم ويثير مخاوفهم، ويحاولون تكذيب تلك الدعاوي بكل السُّبل، اكتفيت بتذكيره أنك راحلة إلى لشبونة، وأن حُلمه بالحصول عليكِ سينتهي بمجرد أن تسدل سفينة رحيلك أشرعتها، وتكفلت الخمر الرديئة التي يشربها ببقية الأمر..

نهضت وتوجهت نحوه، أرادت أن تنظر في وجهه:

- كنت تعلم بما ينوي فعله؟؟

- ربما راهن عقلي على سذاجته، ولكني لم أتوقع ما فعل، كنت أحسب أن يَفعل أيَّة حماقة خلال الأيام القادمة ليحول دون رجوعك إلى البرتغال..

قاطعته:

- ماذا إن كان قد نال ما يريد؟؟ أكنت ستشعر بالرضا؟ اللعنة عليكم جميعًا معشر الرجال.

ألقت جملتها واستدارت تاركة إياه، هَمَّت بفتح الباب والخروج حين استوقفتها كلماته:

- ماتيلدا، إن هذا العالم مُتوحش بقدر ما يَحمله قلبك من وداعة ونقاء، وما قصور لشبونة التي ستعودين إليها إلا أقفاص تحوي وحوشًا من أنواع أخرى، الذنوب والآثام الغليظة تمحوها صكوك الغفران، ونبيل مثل فرانسيسكو يستطيع أن يَحصل على ما يريد وقتما يريد، ها أنا حبيس أنتظر حُكمه المُسبق بالموت، وأنتِ أسيرة هنا لديه، سيكون قاسيًا وقد تملك شيطان شهواته منه، كما سبق وحثه على الانتقام والتمرد على الملك والتضحية بالجند والسفن مقابل الثأر لابنه، إن أردتِ العودة إلى الديار فأنا سبيلك الوحيد، والرجل سيزداد شراسة ليحصل عليكِ أو يُخرسك.

أفلتت يدها المقبض الحديدي للباب وسألته دون أن تلتفت:

- لقد أهانني دي ألميدا؛ وسأفعل أي شيء للإيقاع به.

- إن الرجل ينوي الهجوم على المسلمين في مملكة كاليكوت، وهذا خطأ فادح قد نَدفع جميعنا ثمنه، علينا ردعه بكل ما أوتينا من قوة، مازال وجودنا هنا مهدَّدٌ، محاطون بالأعداء من كل جانب، زاموريون كاليكوت جنوبًا، وسلطنة بيجابور شمالًا، ويسيطر آل لودهي الأفغان على النص الشمالي من شبه جزيرة الهند، والضربة القادمة يجب أن تكون شمالًا لا جنوبًا... علينا إزاحته عن منصبه لأجل البرتغال ولأجل ما فعله بنا.

حين استدارت إليه كان يَقف على مسافة قريبة منها أمام نافذته، وقد غمر جسده الضياء ملقيًا بظل ثقيل على محيَّاه وإن بدت منه ابتسامة جلية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت إلى غرفتها وهي تتذكر كل نصيحة ألقاها ألبوكيرك عليها، يجب أن تتفادى غضب دي ألميدا، وأن تحذر من ذلك المدعو فرناندو كوتينهو، كما عليها البحث عن رجالٍ تثق بهم لينفذوا أوامرها

ومخطط البحار الشيخ، التقطت الخنجر من بين طيات ملابسها، لفته وربطته بقطعة من حرير حول فخذها الأيسر، عدلت من هندام فستانها الأسود وأخذت نفسًا عميقًا وطُرِق الباب ثلاث طرقات:

- من؟

- سيدتي أنا لورا..

- ادخلي.

دخلت الوصيفة بوجه متوجِّس قائلة:

- اقلقتِني عليكِ..

- لماذا؟؟

- جئت مرتين ولم أجدك بالغرفة.

- وما الذي يقلق في هذا؟

- ليست من عادتك الخروج مبكرًا هكذا.

تطلعت ماتيلدا في وجهها محاولة قراءة ملامحها:

- لورا، هل حدث شيء؟ هل هناك ما تخفيه؟!

- لا سيدتي، فقط أردت أن أُطمْئِن نفسي بأننا عائدون إلى لشبونة، فلم أعد أطيق هذا المكان.

اقتربت منها ومالت بجسدها لترى عيني لورا جيدًا:

- نعم، سنعود، فأنا أيضًا لم أعد أتحمَّل وجودي هنا.

ابتسمت لورا التي تفاجأت بماتيلدا تحتضنها، وتضع رأسها على كتفها متنهدة، احتاجت الوصيفة بعض الوقت لتحل عقدة حاجبيها وتستجمع قوة لسانها وتنطق:

- ما بكِ؟؟

انسلت ماتيلدا منها وابتسمت:

- لا شيء، احتجت لعناق.

تركتها خلفها ورحلت عن الغرفة، ووقفت لورا لبعض الوقت حائرة في الغرابة التي ألمَّت بروح الفتاة التي تعرفها جيدًا، تصغرها ماتيلدا بعدة أعوام من العُمر، تربَّيَتا بالقرب من بعضهما بعضًا، ولكنها دومًا كانت ابنة الدوق المدللة وإن كان أبوها قاسيًا، سلالتها النبيلة منحتها حياة راغدة، تشاركَا اللعب معًا، كانت بمثابة شخص مُقرَّب، ولكنه ليس ككل البشر، وبينما كانت ماتيلدا مسيحية الأب والأم، نشأت لورا مسلمةً مُدَجَّنَة، خادمة هي وأسرتها في قصور كانت يومًا مِلك أجدادها من العَرب، حتى تبدَّل كل شيء وفُرض على كل مسلمي البرتغال التنصير الجبرِيّ، وهي لم تكن متديِّنة يومًا،

وإنما ورثت عادات والديها وطقوسهما، ولشبونة التي تريد العودة لها، لم تمثل لها سوى انفراجة أمل لشوق لا يهدأ بقلبها، وكانت مصيبة ماتيلدا في موت لورنسو نبضة حياة لقلبها الذي يشتاق هو الآخر، ولكن ماذا لو عادت ووجدته رحَلَ أو تزوَّج، أو قُبض عليه من ديوان التفتيش، حين قُرر رحيلها مع سيدتها، ذهبت وبحثت عنه، ولكنها لم تجده، أجبرت على الرحيل لتخدم الدوقة العروس، وبقيَ طيف حبيبها يزورها، ومازالت خُطَبه في العائلات الموريسكية تسري في وجدانها، حديثه عن الحرية وضرورة رفع مطالبهم للملك، تذكر كيف وقف أمام رجال ديوان التفتيش ومنعهم من أخذ أحد عماله بحجة أنه ذبح خروفًا وأقام عقيقة لمولودٍ أتاه، مكانته عند النبلاء منحته حَصانة، كيف لا؟ وهو طاهر بن محمد الأشبوني، سليل مُلك بائِدٍ.

مر بخَلَدِها كل هذا، بينما كانت تسير خلف الدوقة الشابة، يحبونها ويبجلونها، نزلت الدرج وعَبرت البهو، وفي شرفة إقامته كان فرانسيسكو يقف متابعًا إياها، أحسَّت ماتيلدا بوجوده قبل أن تلمحه بطرف عينها، خطواتها الهادئة وتجاه سيرها أثار فضوله وقلقَه. كنيسة القديس فرانسيس الواقعة في زاوية الحصن، بِناء لم يُكتمل بَعد، مُحاط بسقالات خشبية وحجارة بيضاء، رهبان يتحركون ببطء بين عُمال يرفعون الأخشاب والحجارة، تلك زيارتها الأولى للموقع، اكتفت بتلاوة الصلوات حين تريد في غرفتها، ولكن ليس هذا ما جاء بها إلى هنا، كانت تَبحث عن شخص ما، وهو ما أقلق لورا أيضًا، لماذا تبحث سيدتها عن الأب دييجو؟!

لم يَكن بين جموع الرهبان، ولكن أحدهم قال إن الأب دييجو ذهب لتفقُّد الأسرى، استدارت ماتيلدا حينها وسألتها:

- منذ متى لم تزوري كنيسة يا لورا؟

همت لورا بالحديث ولكن ماتيلدا أضافت بعفوية:

- لا فائدة من كنيسة دون قس، عودي أنتِ؛ سآخذ جولة في المكان.

هزت الخادمة رأسها ورحلت عن المكان تجُرُّ خلفها أطنانًا من الدهشة، فسيدتها غريبة الأطوار هذا اليوم. وبينما كانت لورا تعبر باب الحصن الداخلي كانت ماتيلدا في طريقها إلى حيث يَجلس من تبتغي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ساحة خلفية كئيبة وجدته، كان يوليها ظهره بثوبه البُني المربوط بإزارٍ من حبل غليظ حول وسطه، الحراسة شديدة هنا والأسرى مُكبَّلين بحديد إلى جانب السور، متَّسخين خائفين زائغي الأعين، لم تتبيَّن ما يَفعله الأب دييجو حتى اقتربت منه، كان يُمسك بوجه أحدهم، وإلى جانبه يقف شمَّاس شاب مليح الهيئة يحمل مجموعة من قوارير زجاجية ملونة وقطعًا من قُماش، التفتَ دييجو ورماها بنظرة عميقة عاقدًا حاجبيه قبل أن يَعود لينهمك فيما يَفعل محدثًا مساعده الصغير:

- أعطني قليلًا من الكحول يا كارلوس!

وضع فوهة القارورة فوق قطعة قماش، ثم راح يَمسح جُرح الأسير الذي بين يديه، شاب عربي كثيف الشعر، مُكبلٌ بالحبال شَقّ وجهه جُرح حيٌّ، وإن بدى خطًّا رفيعًا أحمر اللون، كانت تتفحصه حين جاءها صوت دييجو:

- كيف أخدمك أيتها الدوقة؟

أبعدت عينيها عن الأسير لتحدث الأب:

- أعتقد أن المكان غير مُناسب للحديث.

أخذ على إصبعيه قطعة من مَرهم ورديِّ اللون وراح يَدهن الجُرح في وجه الشاب محدثًا مساعده الوسيم:

- أتعلم يا كارلوس؟ هذا الدّهان له مفعول رائع في معاجلة الجروح، سأعلمك طريقة صناعته قريبًا.

أنهى ما يصنع وربت على رأس الأسير وهو يَقول لقائد الحَرس:

- أوصيكم بما قال الرب، إذا جاع عدوك فأطعمه خبزًا، وإذا عطش فأسقه ماء.

- سيدي، ولكن الدون فرانسيسكو دي ألميدا أمرنا بألا نتهاون معهم.

زمَّ الأب دييجو شفتيه وهز رأسه نافيًا قبل أن يقول:

- ما بال رجلٍ أقول له الرب، فيقول لي الدون!

- إنهم أعداؤنا الوثنيون.. وقد قتلوا رفاقنا.

- والآن هم أسرى لدينا، لعل الرب يهديهم إلى ضيائه وملكوته، وتلك شمسه في كبد السماء تُشرق على الأشرار والصالحين، كما أخبرنا المسيح أن نحب أعداءنا.. إن تُرك جرحُ ذلك الشاب الصغير ذي الوجه الحَسن، لتعفّن ومات بالحمى، وإن عاش فسترافقه تلك الندبة حتى نهاية عُمره، ولكنه سيذكر أن يد الرب رعته، ومنحته رحمة ومحبَّة.

كانت ماتيلدا تتفحص بنظراتها الأسير الشاب، بينما انحنى الرجل أمام دييجو الذي باركه باسم الصليب ودعا له، التفت إليها مبتسمًا:

- أستمضين معنا أم ستبقين هنا؟

انتشلها من شرودها، وأسرعت تتبع خطواته الهادئة بينما يُخبر شماسه الصغير بالبحث عن جرحى آخرين ليعالج جروحهم كما علمه، وخارج حظيرة السجناء، وقفا متواجهَيْن سائلًا إيَّاها:

- ها نحن وحدنا..

- سيدي، عذرًا على مقاطعتي ما تَفعله، ولكن لديَّ رسالة لك..

- ممن؟؟

- الدوق ألفونسو دي ألبوكيرك.

تلفت الرجل يمينًا ويسارًا، فهمست:

- لا تخف، لن يعلم أحد بأمر ما سأقوله لك.

- ولكن الدون..

- دعك من فرانسيسكو دي ألميدا، الأمر سيزداد سوءًا، فكما تَعلم، إنه ينوي قتل ألبوكيرك، وأيضًا تعلم أنه مغتصب الحكم هنا، أخبرني البحار بكل شيء، وهو من أرسلني إليك..

- ماذا يُريد؟

- فقط أخبرني أن أقول لك، أنك تخدم الرب والملك، وأن السكوت عن الحق يجعلك في دائرة الإثم.. ولن تُفلِح صلواتك وصكوك غفرانك في محو ما سيلحق روحك من عارٍ وخزيٍ، إذا ظل فرانسيسكو دي ألميدا يقود قوات البرتغال هنا فسنهلك ويختفي أثرنا وما صنعناه فيِ أعوامٍ، وسيبلعه بحر هائج من الأعداء. فأنت تعلم جيدًا أنه مجنون غاصبٌ الحكمَ ويريد أن يقيم دولته ومجده الخاص.

- أهو أخبرك هذا؟؟

- نعم، ويثق أنك الوحيد الذي يستطيع تبديل الحال.

- كيف؟!

- يقول إنك تدري ما تفعل..

- ولماذا تأخذين صفَّ بحار سجين على رجل في مقام الدون.

- لأن الرَّب لا يُحب الآثمين.

ظلَّ شذى عطرها في المكان بعد رحيلها، تأمل دييجو مشيتها وتابعها ببصره حتى غابت عن المكان، شَعر وكأن رأسه يضج بأسئلة متصارعة ومخاوف مظلمة تنهش قلبه، ماذا تعرف بنت دي جايا عنه؟!

عاد إلى كنيسته مُثقلَ الخُطى، أعاد صياغة كل ما قالته الفتاة في حوارهما، كم تمنى أن يَهلك ذلك الوغد ألفونسو! ولكنه راعي الرب وعليه أن يمحوَ كل ذرة كره من قلبه، ترى ماذا أخبرها ذلك اللعين؟! سرَت بين الأعمدة الخشبية نسمة من هواء بارد، بينما كان الضيق يحيط رقبته، أحس بالخوف يجتاحه، وعيناه ترقبان مساعده الشاب برناردو، الفتى الأمرد صاحب الوجه الملائكي، ابتسامته الهادئة وملامحه الدقيقة تبعث في نَفْس دييجو محبة الرب الخالق الذي أبدع في صنعه، يرى فيه هِبة الرب له، انتشله صوت أحد الرهبان من جموده، التفت واجمًا؛ مما جعل الرجل يعيد ما قاله:

- أبتِ، هناك أمرٌ أريد التحدث معك عنه.

بابتسامة باردة لم تخلُ من لطُف أومأ برأسه ليتحدث الراهب:

- لقد طفح الكيل من هؤلاء الهنود، لا نستطيع أن نرى ما يفعلونه ونصمت، صار بعض الجند يشاركونهم في احتفالاتهم وهرطقاتهم، إنهم سحَرة وأخوة للشياطين، سحروا الدوقة الشابة وجميعهم رأوها بملابسهم، ماذا ننتظر؟! جئنا معك لنبشر ونهديهم إلى طريق الرب.

- ماذا تريد يا إلياي؟!

صمت الراهب لبرهة متطلعًا إلى وجه دييجو قبل أن يتمتم:

- نحن بحاجة لأن نقيم ديوان تفتيش هنا، ونفرض مراسم صارمة تُجرم..

قاطعه دييجو:

- الأمر مازال مُبكرًا على فعل أي شيء، إن بناء الكنيسة لم يكتمل بعد، ونحن بحاجة لمزيد من الرجال للعمل، هل نمنع الهنود من الدخول إلى هنا؟! أهذا رأيك؟؟ دع روح الرب تدخل إلى قلوبهم، إنهم مفيدون على كل حال، ثم عن ماذا تفتش؟! في ضمائر أناس بالكاد ما زلنا نتعرف إلى لغتهم؟؟

- سيدي، ولكن ما يحدث.. وتلك الدوقة الشابة الجامحة ربما تتأثر بهرطقاتهم، إنها ابنتنا ويجب علينا حمايتها.

«حمايتها ممن؟!» قالها في نفسه وأومأ برأسه ناهيًا الحوار مع الراهب الفضولي، مضى إلى غرفته وهو يُفكر ويبحث عن مخرج لنفسه، إنه عالق بين الرجلين، وعليه أن يختار جانبه، يَعلم بأحقية ألبوكيرك بمنصب حاكم الهند البرتغالية، ويقينُه يحدثه أنه مهما طال أمد فرانسيسكو دي ألميدا فسيأتي مدد من الملك يزيحه عن القيادة، ودي ألميدا لن يستسلم؛ سيراق كثيرٌ من الدم إن تعنَّت وظلَّ في منصبه، وضع عَنوة في قلب صراع لا يريده؟؟ وماذا عن ماتيلدا الفتاة التي بدت أنها تعرف ما تقول، وتعي كل حرف جيدًا؟ تعامل معها منذ قدومها بوُدٍّ ولطف، وطالما بجَّلته، ولكن هذه المرة لم تفعل، اللعنة على النساء وخُبْثهن.

على طاولة الطعام في البهو الكبير، جلست ماتيلدا تتناول فطورها، وعلى الجانب الآخر من الطاولة كان فرانسيسكو، لم يأكل، فقط اكتفى بالنبيذ وبمراقبتها، يتعجب من جسارتها ورباطة جأشها، إنها تتحداه بالتأكيد، حاول طمأنة نفسه وفشل، باردة الملامح، راحت تلقي بقطع لحم الخنزير المُحمر إلى فمها، تلوكها ببطء، شَعر وكأنها نَمرة مفترسة تطمح لنهش قلبه، أنهت طعامها، ووضعت يدها أسفل المنضدة، خادمه صبَّ لها كأس نبيذ، بينما تتحسس راحةُ يدها اليسرى مقبضَ الخنجر المثبَّت على فخذها، ما أن ابتعد الخادم حتى نهضت مزيحة كأس النبيذ برفق بعيدًا، وحيَّته بابتسامة قبل أن تمضي إلى رواقها الخاص.

أحكمت غَلق الباب خلفها، وألقت بجسدها بين وسائد مجلسها الوثيرة، وبداخلها تنبت شجره نشوة تسري أغصانها في مجرى الدم، ضحكت وهي تتذكر وجه القس دييجو ودي ألميدا. من المثير رؤية الخوف على وجوه الرجال، تلاعبت بمخاوفهم كما أخبرها ألبوكيرك، والآن عليها أن تنتظر، وعيناها تطالع شرفته الخاوية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

6

حلَّقت أسراب من طير وردي اللون في سماء ما قبل المغيب الذهبية، قرص الشمس بادٍ للعيان باهِتَ الطلَّة وقد تخلى عن ثوب وهجه، وهواء الخريف البارد يملأ صدور العُمال العائدين إلى مساكنهم، أربعة أشهر مرُّوا منذ مجيئهم إلى كوتشي، بالأمس القريب كانوا أسرى مُكبلين بالحبال والأغلال الحديدية، والآن أضحى مآلهم عمال بناء وحطابين وخدمًا في القلعة البرتغالية المنيعة، كل يوم تزداد تحصينًا وأسطولها الرابض بالخليج يخضع للصيانة وتجديد الأبدان، في الجهة المُطلة على النهر بُني مرسى صيد صغير، وورشة لصناعة قوارب الصيد، وقطع النهر أوتادًا خشبية لقنطرة يقوم الأسرى ببنائها، مع حلول الليل، يتركون حبالهم ومطارقهم ويتَّخذون طريق العودة إلى الحصن، محاطين بجنود يمتطون خيولًا قوية، وعلى الرغم من ذلك، لم يعد أحد يحاول الفرار، لأن آخر شخص حاول الهرب عُلِّق على بوابة القلعة، حفاة، يلازمهم يائسون يسيرون على طين لَزِج، يؤثرون الصمت على البوح بآمال قد لا تتحقق، أصابهم اليأس في مقتل، وتملك الخذلان أرواحهم، تركهم أميرهم وجمهرة من رفاقهم، هربوا دون أن ينظروا وراءهم، وما عاد الخوف من النهاية يقلقهم، ولكن تؤلمهم الحسرة على ما فات، كانوا أحرارًا، والآن محاطون بالبنادق والرماح، يخرجون من حظائرهم كما الدواب، ويساقون للعمل تحت ويلات العذاب، أبدان شاحبة تكسوها أسمال بالية، ووجوه مرهقة، وقد أصاب الشعث الرءوس، مات منذ يومين مملوك، لدغته أفعى سامة، وقبله أحد البحارة من الكجرات خُطف في فجرٍ ضبابي، وقبل المغيب وجدوا ما تبقى من أشلائه، هذه الأرض موحشة، متعطشة للدماء، كان هذا رأيَ يونس، الفتى المتمرد الذي لم يتوقف طوال الثلاثة أشهر الماضية عن العصيان.

حماقة الشباب أعيته، لا يكف عن اعتراض كل مَشهد محاولًا التحلِّيَ بالبطولة، العُمال والجند من الهنود يبغضونه، لا يكفون عن مضايقته وهو لا يدَّخر وسعًا في تلقينهم درسًا وراء الآخر، وينتهي بهم المطاف مخذولين، فطن حذر يُمنِّي نفسه أن يخرج من حياة الأسر، طيب القلب وقريب من كل رفاقه السجناء، وربما كان هو همزة الوصل بين المستجدين منهم والقدماء مثله وإقبال البحار الهندي الطريف، ولاشين الألفي المملوكي، وغيرهم من أسرى يوم ديو، في حظيرة العبيد كما يطلق عليها البرتغاليون، تشارك الرفاق الثلاثة كل شيء، وجدوا في رفقة بعضهم بعضًا أنسًا وصفاء، وتناجوا في الليل كلٌّ بقصته وحكايته وأمنياته، لم يفلح البرتغاليون في أن يثنوهم عن الصلاة، وحنق الهنود على فعلهم هذا، كانوا يَسخرون فيما بينهم بعدة لغات ولهجات كلما زارهم القس دييجو، حاول أن يحدِّثهم بالعربية ولكنتها البرتغالية فضحكوا منه، وبعد محاولات صار لديه مُترجم، وفطن يونس للكلمات والأحرف، وصار يتعلم لغة البرتغاليين، يشاكس الجند والبحارة، صار أكثر من مجرد أسير عامل، الأمر الذي لم يعجب راما الراجبوتي، إنه يبغضهم وهذا جَليٌّ في عينيه، لا ينفك عن مضايقة الأسرى وتعنيفهم، يأتي بين الحين والآخر يبصق ويفتعل العراك، يُسميه يُونس «كلب الأميرة»، أصبح الفتى طريفًا نشطًا في النهار، وفي الليل يأوي إلى فراشه ويحدثهم عن أبيه أيوب وإخوته سليمان وصالح ويحيى والصغيرة ورد، كم يشتاق للعودة إليهم ورؤيتهم، وربما يموت منسيًّا على تلك الأرض البعيدة، ويُجزم إقبال له قائلًا:

- فتى يونس، أنت وإخوتك معجزة الله لأبيك. ولكل منا حكايته وقصته، ولتكونَ قصتك شائقة مثالية، فعليك السعي والبذل نحو ما تطمح، وما دمنا أحياء فستبقى ولن تُنسى، ولكن ما الهدف من أن نبقى؟!

إننا عابرون في هذه الدنيا، تموت أجسادنا وتبقى الروح، فهيِّئ روحك للخلود الذي يليق بها، ها أنا وحيد تمامًا، بعد أن فقدت أسرتي منذ زمن بعيد، والآن لا أملك من الدنيا إلا نفسي وقد وهبتها لله، وكنت من قبل أقدِّس الواجب الإلهي كراهب يحفظ الفيدا وشروحها وأحاول الوصول لكمال الروح ونقائها، اعتقدت ككل أبناء قومي بأن الإله موجود في كل شيء، درست الباجفاد جيتا وقدست كريشنا والرامايانا وعلقت بذهني نصوص المهابهاراتا، تقربت إلى راما وشيفا، عشت معظم حياتي متجولًا في المعابد، وممارسة طقوس العبادات والتصوف، وابتهلت سعيًا للصفاء والسلام، بينما كل شيء حولي يضج بالدَّنس والخرافات، حتى وجدني الله.. في يوم ما، خرجت من بلدتي في قاع الغابة إلى ساحل مومباي، ساقني القدر إلى المتاجرة مع تاجر مُسلم بحار عربي من مكان يدعى مسْقط، جود أخلاقه ونبل روحه جعلاني أسأله، وسؤال جرَّ سؤالًا وقد وقعت في شَرَكِ الفضول، الإسلام والمسلمون، الرحمة والسلام والمعاملة الطيبة بين الناس وضوابط الأخلاق، لم أكن أحتكُّ بالمسلمين من قبل، فقط كانوا حكام البلاد لقرون، وصار كثير من الناس يتبعونهم، أعراق مختلفة ويجمعهم دين واحد، لم يشغلني أمرهم بقدر البحث في أصول معتقدي وإيماني، وأنا قد ولدت لأسرة متدينة وهبتني منذ الصغير إلى معبد كريشنا.. وبينما كانت تحيط بي تماثيل الآلهة ذات ليلة، رُحت أسألهم ولم يُجبني أحد.. لكل واحدٍ منهم مكان عبادة وسبب، كانوا كُثرًا وضجت الكتابات السنسكريتية بصراعاتهم مع بعضهم بعضًا، ولكن لماذا لا يكون لهذا الكون إله واحد قوي عادل؟! قادر يقوم بمهام كل هؤلاء؟!! لماذا نبحث في الكارما عن الخلود والتوحد مع روح الحياة الذليلة، بينما نحن عابرون في عالم مليء بالصراعات والشهوات؟؟ آلهة كُثر لكل طبيعة ضارة ونافعة؟؟ ماذا لو رأى كل إله منهم مصلحتي أنا كبشري من وجهة نظره؟ فيصير إله الشر له نظرة بمنحِي قدرة على الشر والجبروت والانتقام في حين يحثني الآخر صاحب الخير لأؤمن بقدره الذي يسوقني؟؟ كيف هذا؟! ثم إن متُّنا وأحرقت أجسادنا، وطافت الروح إلى عوالم أخرى وحلتَ بجسد آخر، قد يكون حيوانًا أو حشرة أو نباتًا أو أي شيء آخر، ماذا لو حلت روحي بجسد كلبة في موسم التزاوج؟؟ سيكون على كل كلاب البلدة مضاجعتي إذن؟! وسألت رهبانًا أكبر عُمرًا مني ولم يُجبني أحدهم، فسافرت أميالًا عائدًا للميناء لأبحث عن البحار وأسأله، ولكني لم أجده وبقيت في تلك المدينة لأعوام بين ظهور المسلمين، أراقبهم وأتعرف أكثر إليهم، أمارس تأملي وعقلي، سابح في عوالم من أسئلة لا إجابة عنها، وربما كان هناك حدثان مهمان غيَّرَا مجرى حياتي، الأول هو ذهابي إلى حيدر آباد، كانت مدينة جديدة أقامها سلطان هندي مُسلم يدعى محمد قلي قطب شاه، كانت قبلة للمسلمين الجدد، وللباحثين عن فرصة للحياة، تغنى الشعراء والناس بجمال عمرانها ومساجدها الزاخرة بالعلماء، كانت فرصة مثالية ولم أدعها تفوتني، وفي تلك الأثناء كان هناك مهرجان كومبا ميلا، القرى الهندوسية تجمَّلت وتزيَّنت وضجَّت شوارعها برهبان الكاباليكاس أو كما نسميهم حَمَلة الجماجم، لم أصادفهم يومًا مجتمعين في مكان واحد حتى رأيتهم في ذلك اليوم، طقوسهم الغريبة جعلتني أعيد التفكير في كل شيء مر في حياتي، منهجهم في العبادة هو كسر المحرمات وتجاوز المفاهيم المعتادة للخير والشر، يقومون بممارسات خطرة ومجنونة، يضاجعون الموتى ويتناولون اللحم البشري، متصوفون متشددون، قد يأكلون حتى فضلاتهم معتقدين بأن إقدامهم على ذلك يعزِّزُ تجاوزهم لحالة النقاء لتحقيق التنوير الروحي للتوحد مع الإله.

قال يونس ممتعضًا:

- شيء مقزز، هل هم بشرٌ مثلنا؟؟

- نعم، ويرون في كل شيء تجسيدًا للإله، وهم لا يرفضون أحدًا ولا ينكرون على أحدٍ، وهم لا يفرقون بين لحم من حيوان أو بشر؛ إذ يأكلون ما يجدونه، يتبرَّك بهم الناس ويسجدون لهم؛ لاتقاء شرهم، فهم يعبدون شيفا رمز الدمار والخراب، والبشر عامة يخافون الموت وأراضي المحارق، ولكنها لهذه الفئة من الرهبان هي مكان مفضل، وهذا لأنهم يريدون تحدِّي قيم الرجال العاديين. رأيتهم يمارسون الجنس مع سيدات يردن التبرك، تركت المهرجان وأنا أشعر بالقرف مما يحدث، أصبحت تائهًا هائمًا لا أعرف ما عليَّ فعله حتى وصلت إلى حيدر آباد، وهنا كان الأمر الآخر الذي دفعني نحو الإسلام.. سَمعت مؤذن الحج وكيف سيتحمل السلطان محمد قطب شاه تكاليف الحجاج، سترحل السفن من بومباي إلى مكة، وشرط الصعود إلى السفينة أن تكون مسلمًا.. ربما هذا كان قبل ولادتك بسنوات يا يونس.

- لماذا أسلمت؟؟

- لأن الإسلام جعل لي هدفًا في الحياة، واجبات تجاه نفسي والمحيطين بي، إن روحانية الإسلام ليست عسيرة التطبيق، ولا تضعك في طقوس شاقَّة، إن مبادئه تحترَم العقل، ويمنح لك فرصة للتفكر والتدبر والبحث عن الحق وتنقية الروح، ذهبت إلى مكة، ولم يكن إيماني على الملأ إلا غاية لرؤية جوهر ذلك الدين الذي نشأ في صحراء قاحلة قاسية، وقد وجدته في رحلة حجِّي، وانجلى الضباب عن عيني حين رأيت الكعبة، شعور غريب بالرغبة في البكاء وصفاء النفس ولومها على ما فاتها من النقاء الذي غمر روحي.. تغلغل نور الله في مجرى النفس ونبض قلبي لشوق مقابلة الخالق، وهناك تعرفت إلى كثير من أخبار الممالك العربية وقصص سلاطين مصر والشام. في طريق عودتي اتخذت درب البر عبر بلاد فارس مرورًا بفرغانة التي مكثت فيها بضعة أعوام، وتعرفت إلى أميرها ميرزا عمر سليل تيمورلنك، كنت جليسًا لولده ظهير الدين محمد ومعلمًا له، كما زرت كابُل قبل عودتي لأرض الهند مرة أخرى، لأجد واقعًا مريرًا، كيف يتصارع ملوك الهند فيما بينهم، ودولة آل لودهي في دلهي يُرثى لحالها، الفوضى جعلت من اليسير أن ينشق الأمراء الهندوس والمسلمين كلٌّ بقلعته ومدينته، ولكن هذا لم يمنعني من دعوة الناس للإسلام، توغلت داخل أراضي متوحشة لتعريف الناس إلى الله وإرشادهم، وما كان ينقصنا هو قدوم البرتغاليين الذي دفعني للذهاب إلى مملكة الكجرات، انضممت إلى سفن المتطوعين لمحاربة براغيث البحر، وها نحن ذا هنا أسرى.

قصص إقبال مع يونس والألفي لم تتوقف يومًا، وبعيدًا عن الأمنيات والحكايات، وجد يونس فيهما رفيقين طيبين، يتشارك معهما كل شيء، لم يتناسَ الفتى فِعل حسين الكردي، ولكنه وضع تلك الذكرى في هُوَّة سحيقة بذاكرته، يتحاشى الولوج إليها، صار يتعامل مع واقع جديد فُرِض عليه، وكما يقول إقبال أكبر دومًا:

- نحن عابرون في هذه الحياة، فلنعِشها كما كُتب علينا أن نعيش، فلا تشغل بالك بكيفية الفرج إن تعسَّرت الأمور، بل أشغل نفسك باليقين أن الله على كل شيء قدير، وأن الله عند ظن عباده به.

كان للشيخ الطريف حكم فلسفية، على الرغم من طرافته وحديثه الدائم الذي لا يتوقف، صار نبراسَ ضوءٍ ينير ليونس عتمة الليالي وظلمة الأفكار، يَعرف كل شيء ويترجم ما يقوله الهنود للعربية، هي

قنطرةَ وصلٍ بينهم وبين الأسرى الآخرين، وحياة الأسر الكئيبة يهونها وجود رفاق تخلت قلوبهم عن الأمل وإن تاقت له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ إقبال فجرًا وراح يوقظ الرجال للصلاة، اعتاد الأمر منذ زمن، أقام الأذان بلكنته ذات النبرة الرفيعة، ونهض رفاقه تباعًا يتناوبون على قِدْر الماء للوضوء، الأجواء باردة ولم يُفلح المشعل الوحيد في المكان في محو الظلال عن الزوايا، تراصُّوا وصلوا خلف الهندي الكبير، وحين فرغوا من الصلاة عاد كل منهم إلى مكانه، تسامروا فيما بينهم حتى يحين موعد فتح الحظيرة، مر الوقت سريعًا وراحت السماء تبدل بثياب الليل ضياء الشروق، وبينما كانت الشمس ترتفع ببطء في الأفق، فتح باب محبسهم ليخرجوا في طابور طويل، مروا على منضدة مكدَّس فوقها أكوام من الجزر وأخرى من القرع، كالعادة نصيب كل واحدٍ منهم جزرتين وثمرة قرع يعبرون بعدها بوابة الحصن كلٌ إلى حيث عمله، النجارون وعمال البناء إلى النهر، والمزارعون إلى الحقول القريبة، في أثناء سيرهم راح يونس يقضم الجزر متأفِّفًا:

- لقد سئمت الجزر والقرع..

كان يسير خلف إقبال الذي حدثه دون أن يلتفت:

- قل الحمد لله أننا نأكل ما نعرفه.

أضاف لاشين الألفي الذي كان خلف يونس:

- اشتقت لمذاق اللحم.

ابتلع يونس ما في فمه قائلًا:

- يبدو أنك نسيت أننا أسرى، ولعلك تشتاق لحياة الترف والحرية أكثر..

- من المضحك أن تُحدث مملوكًا عن الحرية والترف، يبدو أنك نسيت كيف أُخِذنا من أهلنا عَنوة، وهناك من يبيعه أبواه مقابل سعر زهيد، صُنِعنا من أجل الحرب والذود عن الدين والضعفاء، وسعيد الحظ منا من يصبح أميرًا أو يصير سيده السلطان.. حتى ذلك لا يمنحك الترف والحياة الراغدة، فها أنا ذا من مماليك السلطان قنصوة الغوري، هو في القاهرة يجلس على العرش وأنا هنا أسير معكما..

دخل إقبال إلى الحوار:

- الغوريون الأتراك حكموا وادي السند لسنوات، أعتقد أن سلطانكم من سلالتهم.

قضم يونس جزرته وأخذ يلوكها بصوت مرتفع، بينما قال لاشين:

- طمحت يومًا بأن أصير سلطانًا عظيمًا كقايتباي، وربما المنصور بن قلاوون، ولكن للقدر تصاريف أخرى غير ما نبتغي.

صوته المُعبَّق بالأسى جعل عقل يونس يَشرد إلى برِّ مصر، حين ولى وجهه شطر البحر وترك الديار خلفه، كانت له آمال كبيرة بأن يصير بحَّارًا مجاهدًا يتحاكى الناس ببطولاته وقصصه، ولكن الدنيا لا تسير وَفْق أهوائنا وإن فعلت، ولعل ما فيه الآن بفعل غضب أبيه عليه، يؤرِّقه ذلك الأمر، يقشعر بدنه لمجرد التفكير في أن أيوب غاضب عليه، اشتاق لتلك الليالي على سطح منزلهم في السويس، مشاهدة الخليج ونجوم السماء في الليالي الصافية، سهرات السمر مع إخوته ولعبهم معًا، لا يدري لمَ بدرت إلى ذهنه قصص أبيه عن تيه بني إسرائيل لأنهم عصوا أمر ربهم، ربما ضُرب عليه هو الآخر الشتات والذلة لأنه عصى أمر أبيه وسرق من كيسِه بضعة دراهم. وصلوا إلى معسكر عملهم على شاطئ النهر، صباح غائم والنهر يفيض جاريًا، خلع يُونس قميصه ولف ثمرة القرع بداخله، وضع جعبته جانبًا إلى جوار شجرة ميتة بينما ينادي فيهم صوتُ كبيرِ العُمال الهندي بالسنسكريتية:

- سنعمل اليوم على تثبيت الأعمدة الوسطى للجسر.

ترجم الأسرى من الهنود وعلى رأسهم إقبال ما قاله الرجل الذي تابع:

- النهر هائج اليوم، ومن سيتطوع للنزول فسيحظى بوجبة إضافية، وربما ما هو أكثر من ذلك.

ما أن أتمَّ إقبال الترجمة، حتى رفع يونس يده للأعلى قائلًا:

- أنا أريد التطوع.

اتسعت عينا لاشين الألفي بينما لكزه إقبال محدثًا إيَّاه:

- هل جننت يا فتى! دعك من هذا الأمر، وكفاك حماقة.

- على ماذا يجب أن أخاف؟!

مضى في سبيله بين الجموع مستطردًا حديثه:

- إن مت فتقاسَم أنت والألفي ثمار القرع على روحي.

شجاعة أم تهور؟ حَارَ الأسرى من فعل الفتى يونس، كيف سيخوضون في النهر الهائج، ولكن سُرعان ما تبعه عشرة رجال، ما الذي سيخسرونه؟؟ حياتهم؟! إنهم ضائعون بالفعل، ولعل الأمل في وجبة ساخنة قد يكون ذا قيمة في هذه الأيام المملة، كلها سواء. تُرجمت لهم الأوامر وشُرِحت لهم خطة العمل لليوم، بقوا ساعة مجتمعين مع كبير العُمال وأحد الفرسان البرتغاليين، وفي الناحية الأخرى كان لاشين الألفي على حافة النهر يعمل مع الحمالين لرفع كتل الأخشاب، ووقف إقبال قرب سقيفة من الأغصان، يضفِّر الحبال ويعقدها، لم تُفارق عيناه ظِلّ يونس، يخشى أن يُصيب الفتى مكروه، حمل على عاتقه رعاية الفتى المشاغب مذ جاءوا إلى هنا، ربما رآه عَوَضًا من الله عن عائلته التي فقدها يومًا، يشعر بالضيق بفعل هواجس قديمة برأسه، يحاول التَّناسي، ولكن الذكرى جمرة متقدة في قلبه تأبى الخمود، الشعور بالأبوة راوده حين رآه حزينًا يوم هرب حسين الكردي وتركه خلفه، لم ينسَ مظهره لما أثقل الدمع جفنيه، وجهه المكفهرُّ وجرحه النازف، كان مُكبلًا إلى جواره، أراد أن يضمه إلى صدره ويهون عليه الأمر، ولكنه لم يستطع، كما لم يستطع احتضان ولديه

وزوجته في زمن بعيد، لم ينسَهم أبدًا، مازال محتفظا بصورتهم في ركن مظلم من عقله، يلوم نفسه، ثم يتذكر كيف جالت وصالت به الأيام، وكيف تبدَّل حاله واختار دينًا جديدًا وحياة جديدة، وانتهى به المطاف أسيرًا مكبَّلًا إلى شجرة، لم يُشغله مصير الفارِّين من الأسر، أسيعودون أم لا؟! يذكر كم تملك الوجوم من الفتى لأيام، وكان يظن أن وجهه شُوِّه، ولكنه أخذ بيده وأنساه ولو قليلًا من القهر والحَزَن، أخبره أن يعيش الحياة كما هي، فاليوم هو ماضي الغد، وما يمضي لا يعود، حياة واحدة، فاختر ما تريد فعله ولا تندم على شيء فعلته، لماذا يخاف عليه الآن؟ لم يَجبُن إقبال حين نأى بنفسه عن التطوع مع الفتى، كيف سيصارع شيخ هزيل الساقين تيار النهر الجاري، إنه يفعل ما يعرفه، حياكة الحبال وتضفيرها، تلك صنعته التي تعلمها خلال تجواله بين المدن والقرى، زهده الذي قاده لغياهب المجهول، كيف كان يخشى الوقوع في المحرمات وهو خادم للرب، نأى بنفسه عن القرب من نساء جميلات أردن التبرك به، إن أراد أن يكون له ألف ابن وابن لفعل، ولكنَّ حزنه على فقدان أسرته كان أكبر وأعمق، كل ما أراده هو أن يجتمع بهم مرة أخرى، ولكن حين وضعت أجسادهم في المحرقة أيقن أنه لن يجتمع بهم مجددًا، جمع رمادهم في جرة وراح يجوب البلاد في رحلة بحث عن حقيقة الحياة والروح ومن خلقهما. وُلِد من جديد يوم تعلم العربية وأتقنها، وعلى الرغم من كون المسلمين في الهند منذ زمن بعيد، إلا إنه كان يجهلها، وكان عهد على نفسه إن انقضت الحرب وانتصر الكجرات على البرتغاليين فسيذهب إلى مدينة «دلهي» ليدرس في أروق جوامعها، لم يكن يشغله أمر تقدمه في السن وقد تجاوز الستون، عمر مديد قضى أكثر من ثلثيه وثنيًّا، يتبرَّك بتماثيل شيفا وبافاراتي وغانيش وراما..

ظهر الأخير قرب مدخل المعسكر، اسم لا يليق بوجه الراجبوتي ذي الشارب الكث الملفوف الطرفين، يرفل في ثوب برتقالي اللون، ويلف وخصره بنِطَاق من حرير أبيض، عاقصًا ضفيرة شعره فوق رأسه الحليق الجوانب، يذكره بأمراء هضبة الدكن في الجنوب أكثر من أن يكون راجبوتيًّا، لم يُحب إقبال التطيُّر والتشاؤم يومًا، ولكن في هذا التوقيت باغتته نفسه، أحس أن ظهور ذلك المهراجا الهندي المتعجرف هو نذير سوء قد يحدث، أبقى إقبال بصره ناحية باب البوابة حيث توافد الجند البرتغاليون قبل أن يبرز جواد الدون فرانسيسكو دي ألميدا، يتبختر في مشيته وينقل سيقانه الأربع برشاقة وخفة، انحنى له راما الراجبوتي وكذلك فعل كل الهنود، جاء الرجل ليباشر العمل، ترجَّل على بعد خطوات من الشاطئ الطيني، حذاؤه الجلدي الطويل سمح له بتخطي بِرَك الوحل، ويسير إلى جواره مساعده فرناندو كوتينهو، وخلفهما كان كبير العمال يهز رأسه وهو يشرح ما أنجزه رجاله، أما الأسرى فهم أدنى مرتبة من أن يُلقى لهم بال، لم يكن لهم وجود بالنسبة للدوق البرتغالي، وكأنهم أطياف غير مرئية، عَبَر من بينهم وهو يتأمل الجِسر والرافعات الخشبية على الضفتين تتأرجح بينما تحمل جذوعًا كبيرة، وعلى حافة النهر بدأ الرجال النزول تباعًا، أحد عشر رجلًا، رُبط خمسة منهم بحبال من الخصر، وأمسك الستة الآخرون بالحبل مكونين ستة فِرق، كل فِرقة من رجلين إلا الأخيرة كان فيها يونس، خاضوا مياه النهر الباردة معترضين التيَّار الجارف، قاوموا وتشبثت أصابعهم بالصخور، تحسسوا مواضع أقدامهم بعيدًا عن العشب الزلِق والصخر الحاد، وتعلق بفعلهم بصر كل المحيطين بموضع العمل، الرافعات تتدلى متأرجحة فوق الرءوس، وعلى المتطوعين الإمساك بها فور أن تتدلى، كل مجموعة سيكون عليها تثبيت الجذوع كعوارض بين الأعمدة وربطها بالحبال، سَمع إقبال قول كبير العمال وهو يحدث راما:

- سيدي كان من الأفضل أن ننتظر حتى يهدأ النهر.

هز راما رأسه نافيًا:

- سيكون علينا الانتظار لأيام، ونحن بحاجة لفتح ذلك الطريق، البرتغاليون ينوون شن هجوم كبير على كاليكوت، رسائل أعيُنِنا هناك تقول إن حسين الكردي ورجاله هناك، سفنهم قد تصل قريبًا بمزيد من المؤن والرجال والمدافع..

كانا يتحدثان بلغتهما، مما جعل الدون يرمقهما بنظرة لائمة:

- لا أحاديث جانبية بلغتكم.

ابتسم كبير العُمال المتعرق، واكتفى راما بإيماءة، أمَّا إقبال فقد أراد أن يبتهج بسماعه الخبر، ولكن يونس سلب عينيه وعقله، وخفق قلبه خوفًا على الفتى، سيفرح بالتأكيد حين يعلم أن الكردي والصباغ أحياء، وربما يحزن، لا يهم الآن كل هذا، فأكثر ما يُشغله هو مصير الفتى الممسك بالحبل.

أُنْزلت العوارض الخشبية بروِيَّة وسط أنظار المتواجدين، النهر غاضب وخُيِّل إلى إقبال أنه يزداد غضبًا، والدون دي ألميدا يُشاهد العمال وهم يتلقفون العارضة الأولى، راحوا يثبتونها في موضعها على الرغم من الماء الجاري، بينما كانت مجموعة يونس تعاني، حاولوا أن يمسكوا بالأخشاب الكبيرة المتأرجحة ولكنهم فشلوا، التيار في ذلك الموضع يجرفهم، والرجال الممسكون بالحبال على الشاطئ يحاولون التشبث قدر الإمكان برفاقهم، كان عليهم واجب تثبيتهم، ولكن الوضع بدى عسيرًا، المياه تموج وتبعدهم عن العارضة المتدلية، وبينما كانت المجموعة الأولى تقوم بربط وتثبيت الأخشاب بالحبال، انزلق أحد رجالها، ارتطم بأحد الأعمدة ثم غطس، ابتلعه الماء الهائج، قبل أن يَظهر شاهقًا يضرب الماء بكلتا يديه صارخًا، الدماء تغرق وجهه والتيار يجرفه، حالة من الذعر والهلع أصابت مَنْ في الماء، ساد الاضطراب في بضع ثوانٍ ولم يجد الرجل سوى يد يُونس تتعلق بقفاه، أمسك الفتى بتلابيب الرجل الثقيل بيد والأخرى كانت تمسك بالحبل الغليظ.. فعل لم يتوقعه أحد، وربما كان ذراع الشاب يئِنُّ تحت وطأة ثقل الرجل، ولكنه نادى في رفاقه:

- اسحبونا إلى الخارج، إنه مصاب.

جاهد يونس ورفاقه للإمساك والتشبث بالرجل الذي فقد وعيه، وكذلك فعل من هم على الشاطئ، ركض إقبال ولاشين الألفي وجمهرة من العمال إلى شاطئ النهر، لا يدرون ما يفعلون ولكنهم أرادوا المساعدة، الأمر الذي لم يُعجب راما الصارخ في وجه كبير العمال:

- أعدهم إلى عملهم.. تراجعوا!

ولكن صيحاته راحت سدى حين شخصت الأبصار وهوت القلوب، انفلتت حبال الرافعة، وسقطت العوارض الخشبية فوق رءوس من هم في الماء، وفي خضم ثورة النهر والأخشاب المتساقطة، لم يُفلت يونس الرجل، ولكن رفيقيه الآخرين تمكَّنا من الإمساك برجل آخر قد أفلت حبله من المجموعة الأخرى، وفي وسط حالة الهرج راح الرجال على الشاطئ يسحبون الحبال ليخرجوا رفاقهم، ولم يبق سوى حبل يونس المتعلق به خمسة رجال، كان يُمسك بأحدهم بينما يقبض صاحباه الآخران على

شخص آخر، التيار يجرفهم ويدفعهم بقوة، وأقدام الرجال على الشاطئ تحاول أن تثبت، انضم إقبال إليهم وكذلك الألفي، راحوا يسحبون يونس وفريقه للخارج بصعوبة، وبينما هم كذلك، فوجئ إقبال براما يحدِّث كبير العمال غاضبًا:

- اقطع ذلك الحبل.. الآن!

وبين تردد الرجل ونظرات راما نادى إقبال في الأسرى والعمال بصوت جهوري:

- لنخرج رفاقنا بسرعة..

اندفع الرجال تباعًا يمسكون بطرف الحبل ويجذبونه، وما لبثوا أن أخرجوا يونس ورفاقه المنهكين، يتقيَّأ أحدهم ويسعل آخر ويتحسس من كان مربوطًا خصره متألمًا، أما يونس فكان يضحك وقد ألقى بجسده على طرف الشاطئ ناظرًا إلى السماء، كان مُتعبًا وقد نَحل الحبل الغليظ راحة يده الدامية، ووسط صيحات الفرحة من العمال بإنقاذ صاحبهم التفت دون فرانسيسكو إلى رجاله غاضبًا:

- توقفوا عن المخاطرة بالعمال والأسرى؛ نحتاج لكل يدٍ لنصنع ذلك الجسر اللعين.

انحنى كبير العمال للدون المغادر، بينما كان راما يتأمل بغيظ حفاوة الأسرى بالنجاة، لم يلبث إلا أن صاح فيهم بالعودة للعمل، وعيناه لا تفارقان وجه الفتى الضاحك، كاد أن يهلك عدد كبير منهم بسببه، ولكن هذا لم يحدث، أنقذ بفعله رجلين وإن كان يُمسك بأحدهما إلا أنه شجَّع الآخرين بأن يفعلوا مثله. كان إقبال أشد الناس فرحًا بنجاة يونس وأصحابه، ولكنه لم ينجرف وراء السعادة المفرطة، فقط ربت على كتف يونس مبتسمًا، وعاد إلى عمله كما فعلوا جميعهم، حاول أن يحرق غابات القلق والخوف في صدره، والنظرة التي رآها في عين راما وهو يتابع تحرك يونس بين الناس.

حلَّ الليل واجتمع الرفاق الثلاثة بعد يوم عمل شاقٍ، تسامروا وتبادلوا الحوار حول الحدث الأكبر في يومهم، كلٌ من زاويته، تضاحكوا، عينا إقبال تغدق على الفتى محبة، تذكر ولديه راجا وكريش، ولديه اللذين فارقا الحياة بفعل الطاعون، ولم يمضِ على موتهما يومان حتى لحقت بهما زوجته، الجلوس أمام المحرقة لساعات لا يشاهد سوى اللهب المستعر، الرماد كل ما تبقى له، وبيت كئيب مليء بتماثيل آلهة لم تغنِ عنهما شيئًا على الرغم من تضرعه، يحدقون فيه بعيون واسعة جامدة، بهتت الألوان كلها وزهد عيش الحياة التي راح يبحث عن جوهرها، قدر يحمله، وقدر يلقي به، من مكة إلى الهند راجلًا وراكبًا ظهور الإبل، رحلة كسب فيها قوت يومه من حمل البضائع وخدمة القوافل، كيف قادته الأقدار إلى قصر الميرزا شيخ عمر أمير فرغانة، جالس الرجل وتعرف إلى أولاده الصغار، ستة أعوام وبضعة أشهر قضاها هناك، قبل أن يعود إلى مومباي، عمر مديد ورحلة حياة طويلة زاخرة بالمواقف والحكايات، حدثهما وعين يونس تغفو:

- نسيت أن أخبركما، الأمير حسين الكردي حيٌّ يرزق في مدينة كاليكوت.

انتفض يونس، وجمدت ملامح الألفي وإقبال يستطرد:

- البرتغاليون يجهزون لحملة كبيرة، والجسر الذي نبنيه سيكون بداية طريق يوصلهم إلى عُمق بلادنا.

وقع كلماته كان ثقيلًا، شَرد يونس وترك الأسئلة ترشق عقله، أحس المملوك بغَصَّة في حلقه، ومرار الهزيمة علقمًا في فِيهِ، أراد أن يقول شيئًا ولم يستطع، سكون لا يقطعه إلا نقيق ضفدع شارد جاء إلى الحظيرة، وسأله يونس:

- كيف عرفت كل هذا؟

- سمعت كبير العمال يتحدث مع الأمير الراجبوتي وذلك الفارس البرتغالي، الذي تحدث أيضًا عن أسطول كبير قادم إلى هنا.

تدخل الألفي قائلًا بحذر:

- إن كان الأمر صحيحًا، فعلينا أن نجد فرصة للهرب.

وقال يونس:

- نهرب إلى أين، وكيف؟!

- إلى غوا.

قالها إقبال، فالتفتوا إليه فإذا به يتابع بوجه باسِمٍ:

- أما كيف؟ فدعونا ندبِّر الأمر على مهل.

رد الألفي بحدة:

- ولكن رفاقنا في كاليكوت..

هزَّ إقبال رأسه:

- البرتغاليون سيذهبون إلى هناك وعلينا اتخاذ طريق عكسي، دربنا نحو الشمال إلى غوا سيكون سهلًا حينها.

بنبرة خافتة قال الألفي:

- حسنا، لا تخبروا أحدًا حتى نتأكد الأمر. يونس أنت أكثرنا ذهابًا ناحية الميناء، سيكون عليك مراقبة المرفأ وأفق البحر كلما تحيَّنت لك الفرصة، أما أنت يا إقبال فسيكون عليك إخبارنا بكل ما يقوله الهنود، وحاول أن تتودد إليهم.. ستنجح أعلم هذا.

أومأ إقبال برأسه، وكأنه يَرج الأفكار بداخلها. لم يمضِ كثيرٌ من الصمت قبل أن ينهض دون أن يحدثهما، أمسك إبريق الماء وراح يتوضَّأ ووقف للصلاة ولحيته الشيباء تقطر ماء، وبينما يشاهدانه كان كلٌّ في عالم أفكاره وأمنياته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيام ممطرة لم يشهدوها من قبل، غيوم ثقيلة وبحر هائج ومطر غزير، وهَمٌّ مُطبق على حظيرة العبيد، كلٌّ شارد في كمده وذكرياته، كانوا كالدواب يُعلفون بقليل الطعام، يشتاقون لدفء الشمس بدلًا

من الرطوبة تطال أبدانهم، العمل متوقف منذ أيام لسوء الجو، ولكن أسوء ما يواجه الرجال هو يومٌ بلا عمل، تُرهق عقولهم سريعًا، يقعون فريسة التأسِّي على الذكريات، ومحاولة تخيل ما هو آتٍ، تشتاق أنفسهم للعودة إلى أوطانهم وأهليهم، الحرب انتهت وسلطنة المماليك وحلفائها من الهند انهزموا، مات عدد غفير من رفاقهم، ولاشين الألفي يجزم أن السلطان الغوري سيبني أسطولًا آخر وستكون له كرَّة، ولكن عقل يونس لا يصدقه، وإن كان قلبه يريد ذلك، الجدال بينهما اشتد مرة، لفت أنظار الجميع، لم يُعجب المملوكي بطريقة حديث يونس معه، والأخير بدى له أن المملوكي يفرض سطوته وأوامره عليه. تدخل إقبال فصمتَا وإن لفتَا الانتباه لما يدور بين ثلاثتهم، الأحاديث الخافتة فيما بينهم عادت بعد وقت قصير، تعاتَبَا وتصالَحَا، والشيخ الطريف لا يكف عن حكاياته وثرثرته.. مازالوا ينتظرون أن تأتي السفن ليصدقوا أحلامهم وأمانيهم، وفي صباح بعد سبعٍ ممطرات سطعت الشمس، وزقزقت العصافير مبتهجة لشروقها، فتحت البوابة بأوامر عمل يليق بيومٍ توقف المطر.

حملوا المعاول وشمروا سراويلهم حتى أفخاذهم، وسيقوا عبر الطين والوحل لتنظيف طريق المعبد بين الحصن والقرية، تسببت السيول بتراكم الطين وبرك الماء، اُختير الألفي من بينهم، وفُصِل عن رفيقيه اللذين سينقلون الأخشاب من ناحية النهر إلى المرفأ، في الطريق إلى ضفة النهر. عاتبه إقبال:

- ما كان عليك أن تجابه الألفي بهذه الطريقة.

- لن أمُني نفسي بخطط قد لا نستطيع تنفيذها.. إنه مملوكي واهِم.

- أهكذا صرنا نرى أنفسنا؟؟ مملوكي وهندي وعربي؟؟ إنه رجل حرب ويعرف كيف يخطط، كما إن له مقامًا عليكَ احترامه.

- أين مقامه وكلنا في الأسر سواء! كل ما قلته له إننا لا نريد المخاطرة، وهو يريد الذهاب إلى كاليكوت، ونحن لا نعلم إن كان الأمير حسين هناك أم لا!

- سمعتهم يقولون هذا..

- لم أعد أصدق شيئًا إلا حواسي.

طأطأ إقبال رأسه وزم شفتيه، مما جعل يونس يلوم نفسه، ربت على كتف الشيخ:

- لم أقصد أني لا أصدقك..

لم يبح يونس بخوفه، ولكنه كان باديًا للرجل، الفتى مشوش ويخشى أن تفشل خطة هروبهم، ولا يريد أن ينمو أمل كاذب في قلوب الرجال، هذا حقه، فإقبال نفسه يخشى القادم، لم يكن هكذا والآن صار قلقًا على أن يبادره الموت قبل أن يتحرر من أسره، حَملوا الأخشاب على أكتافهم كلٌّ على مقدرته، غاصت سيقانهم في الطين، وتعجب يونس حين رأى النهر وقد بدَّل المكان بفيضانه، مُحيت مصاطب وتهشمت الأكواخ وخُلعت أوتاد الجسر الذي كانوا يبنونه، بناء ذلك المكان من جديد سيأخذ كثيرًا من الوقت، البرتغاليون لن يستطيعوا التوغل برًّا إلى كاليكوت، الطين الرخو قد يعطلهم أو يبلعهم، ترى ماذا سيكون عملهم في قادم الأيام وقد زال موقع وآلات سخرتهم، ما أن ظهر الميناء والبحر الشاسع أمام عيني يونس، استنشق بعمق رائحة بحر ما بعد العاصفة، تمنى لو تذوق ملوحة ماء البحر مرة

أخرى، سفن برتغالية ترسو في الميناء، البحارة على متنها يقومون بأعمال طالما خاضها، اشتاق لملمس الأرضيات الخشبية، زلقة كانت أم جافة، لعب بأصابعه في الطين بينما يسير وعلى كتفه مجموعة من الأخشاب المقطعة، وحين وصل إلى بوابة الميناء أخبرهم أحد الجند بضرورة وضع تلك الاخشاب عند الكنيسة، لم يكن لهم من الأمر شيء، ساقهم الجندي المكلف بهم إلى حيث أرشده صاحبه، وفي عين يونس كان هناك كثير من الحزن.

أنزلوا ما على أكتافهم من ثقل، وتُركوا يتجولون في باحة كنيسة القديس فرانسيس، تأمل يونس الواجهة الحجرية الضخمة، والجدران غير المكتملة المحاطة بالسقالات والأخشاب، فيما انكب الأسرى في أخذ ثمار التفاح والبرتقال من قصعة يحملها أحد الرهبان، أخذ إقبال واحدة له وأخرى ليونس وهو يشير للراهب برأسه مبتسمًا ناحية الفتى، وبينما كان لاشين الألفي وبقية الرجال يخوضون حتى صدورهم في الوحل، كان الرفيقان يجلسان في حديقة الكنيسة كبقية الأسرى الذين أخذ كل واحدٍ منهم يهتم بشأن، هذا يقف مع الرهبان، وهؤلاء يرقدون على العشب المبلل، وبعضهم وقف يتنسم هواء البحر ويلقي نظرة على الخليج من أعلى، نُزهة منحها لهم الجندي الهندي المكلف بحراستهم، وقف يتحدث مع رفيق له وإقبال يرهف السمع بينما يقضمهم تفاحته.

غاب يونس عن الأنظار، اختفى لوقت طويل مما أقلق إقبال الذي لم يطِق ترك موقعه، قرر المكوث في مكانه والسماع للحوار بين الجنديين متصنعًا النوم والتنعم بدفء الشمس، وبينما هم كذلك إذ برز يونس في الساحة، شيء ما أخبر إقبال أن الفتى ظهر، فتح عينيه فوجده قادمًا وقد تبدَّل وجهه عما رآه آخر مرة، وعلى مسافة منه وخلفه تمامًا ظهر على عتبة الكنيسة القس دييجو، صاح مناديًا الحارس، الذي انتفض وترك صاحبه ليهرول ناحية طالبه، والآخر صاح في الأسرى ليجتمعوا، حدثهم بالعربية فراحوا ينصاعون لأوامره، بينما اندس يونس في الصف ووقف خلفه إقبال الذي سأله:

- أين اختفيت؟

- لن تصدق ما رأيت!

- ماذا؟!

لكزه يونس هامسًا:

- ليس الآن..

كان حارس الكنيسة يعود أدراجه قائلًا لصاحبه:

- هناك سارق لديك.

قالها بلهجة أهل مومباي التي يحفظها إقبال عن ظهر قلب، امتقع وجهه واصفرَّ وهو يحدق في وجه يونس ويحدثه بالعربية بخفوت:

- ماذا فعلت؟؟

قبل أن ينطق يونس مد الجندي يده وأمسك بقفاه، تفاجأ الشاب من فعل الجندي الذي سلمه للآخر ذي الوجه الصارم المقتضب، صاح فيهم إقبال:

- ماذا فعل؟؟

لم يجبه الحارس وهو يجذب يونس أمام أعينهم نحو الكنيسة، وسادت حالة من الهرج بين الصف، وبينما هم في تلك الحالة ظهر على عتبة الحديقة الدوقة ومن خلفها راما ومجموعة من الوصيفات، الأمر الذي جعل الجنديين يتوتران، الأسرى كانوا أكثر عددًا وانتشارًا في ساحة الكنيسة، قبض راما على مقبض سيفه وعقد حاجبيه محدِّثًا ماتيلدا:

- سيدتي، تريَّثي حتى نرى ما الذي يحدث هنا.

لم تُعِره أي اهتمام وهي تتقدم نحو المشهد الغريب أمام عينيها، جنديٌّ يُمسك بأسير ذي وجه مألوف لها، والأب دييجو يقف على مقربة منهما متجهِّم الملامح، اقتربت سائلةً إياه:

- ما الذي يحدث هنا؟؟

رد القس بغلظة:

- قام ذلك الفتى بسرقة بعض الأشياء من داخل الكنيسة.

تأملت يونس من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه:

- أليس ذلك هو الأسير الذي داويته يومًا؟؟

قال والأسى يعتري كلماته:

- نعم، قدمت له كل خيرٍ وداويت جرحه ليسرقني بعد ذلك.. لا أمان لهؤلاء العرب الملاعين.

تدخل راما بصوته الرخيم مطمئنًا القسَّ:

- لا تقلق أيها المبجل، سنجازيه بما يستحق.

ونطق يونس متمتمًا بالعربية:

- لم أسرق شيئًا..

أسرعت لورا بالترجمة في أذن ماتيلدا ولكنها فوجئت به ينطقها مرة أخرى بالبرتغالية، امتقع وجه الأب دييجو الذي قال بغضب:

- اللعنة عليك يا كاذب!

ورفع يده ليهوي بها على وجه يونس ولكنها لم تصل، لا يعرف أحدٌ كيف جاء إقبال من تلك المسافة دون أن يلاحظوه، أمسك الرجل بيد القس قبل أن تلامس وجه الفتى الذي ابتسم فرحًا لفعل الرجل، ولكن راما لم يدع الأمر يمر هكذا، تحرَّك بسرعة وركل إقبالًا في صدره، دفعه بقوة ليسقط جسده

الهزيل أرضًا، وما لبث أن انقض عليه وراح يكيل له الركلات حتى انسل يونس بخفة من يد ممسكِه وانقضَّ بدوره لينقذ صاحبه.

في البدء دفعه يونس بكلتا يديه ليبعده عن إقبال المكوَّم أرضًا، الدفعة فاجأت راما وحاول ألا يسقط، التفت ليرى من ذلك الذي جرؤ على فعل هذا! وكان يونس يقف أمامه ليحول بينه وبين الشيخ، الجنديان حاولا السيطرة على بقية الأسرى، وارتفعت شهقات الوصيفات خلف ماتيلدا التي لم تجد ما تقوله حين هجم راما على مجابهه العربي، عراك تشابكت فيه الأيدي واللكمات، يتصدى هذا فيكيل يونس الضربات، حتى تمكن منه راما، ومنحه ضربات قاسية على صدره وعنقه وتعلق بالأمير الراجبوتي بذراعيهـ ودار به حول نفسه ليسقط به أرضًا، صاحت ماتيلدا ليتوقفَا ولم يفعلا، ركضت إحدى وصيفاتها مبتعدة لتنادي مزيدًا من الجند، ما لبثوا أن أتوا وسحبوا يونس من فوق راما، ضربوه وهو يصيح في وجوههم:

- لست بسارق.. ذلك القس كاذب.

ونهض راما بعينين حمراوين وأسنان تصطك من الغيظ، سحب سيف أحد الجنود من غمده بغته وهجم به على يونس، ولكن صيحة ماتيلدا أوقفته:

- راما، توقف!

قبضت أصابعه على قبيعة السيف ذي النصل اللامع، ظل معلقًا إيَّاه في الهواء وهو ينظر في عيني يونس المتحدي على الرغم مما يحيط به من أجساد، فتابعت ماتيلدا:

- قلت توقف يا راما!

تبادلت النَّظرات مع القس دييجو حدثها:

- دعيه يقتل ذلك الهمجي! حتى لا يثور أصحابه ويكرروا ما فعله ذلك الكافر!

خطت بضع خطوات متجاوزة راما إلى حيث يقبع يونس بين أيدي الجند، أطالت النظر في وجهه قبل أن تنادي لورا، هرولت الخادمة مسرعة إلى سيدتها التي همست في أذنها بشيء، فسألته ليونس بالعربية:

- إن لم تكن سارقًا كما تقول، فماذا فعلت ليغضب القس؟

- لقد رأيته..

- رأيت ماذا؟؟

تلعثَم يونس ونظر حوله فوجد الأسرى يأخذون بيد إقبال، كان يعلم أن عليه قول شيء ينجيه، عاد ببصره إلى حيث تقف الدوقة الفاتنة، وقال بصوت متهدِّج يفوح بالضيق:

- رأيته يضاجع شخصًا ما.

ترجمت لها لورا ما قاله يونس وقد اعترى وجهها الخجل، فالتفتت ماتيلدا إلى حيث يقف دييجو، رمته بنظرة حادة ثم قالت للجند:

- لا تؤذوه.. ولا يتعرضَنَّ له أحدٌ.

قال راما بحدة:

- سيدتي ولكن..

- من الأفضل أن تذهب وتزيل عنك الوحل الذي علق بك.

كَتم راما غضبه وإن بدى في عينيه وهم يأخذون يونس ورفاقه إلى حظيرة الأسر، أما ماتيلدا فكانت تبتسم في وجه الأب دييجو وشماسه الشاب ذي الوجنة الحمراء والذي كان يراقب ما يحدث من نافذة قريبة، مضت إلى سبيلها ومن خلفها وصيفاتها اللواتي أثار ما حدث فضولهن، راحوا يتحادثن فيما بينهن وأعينهم تلاحق الشاب العربي الذي أخذ يساعد صاحبه الشيخ على السير بين رفاقه تغدقه كلمات الثناء ونظرات الفخر.. وفي تلك الليلة عاد كل أهل الحصن إلى مأواهم وكل واحدٍ منهم مشغول بأمره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أشجار كثيفة أحاطت به، وبخار خفيف عبق أرجاء الغابة المشمسة، ومملكة نمل تعمل بكد فوق أحد الجذوع، يقطعون أوراق نضرة غنية، صفّان نظاميان، أحدهما يتجه إلى الجحر، وآخر يخرج منه، طيور مغردة زاهية الألوان تخفق بجناحيه محلقة بين الأغصان، وعلى الأرض طواويس تتباهى بجمال ريشها، غزلان ترعى في أمان، وعلى شفا البحيرة فيل كبير يتأمل انعكاس صورته في الماء.. جلده الغليظ المجعد مليء بالندوب وآثار حروبه في الحياة، ناب واحد وآخر مكسور، وسكن الكون.. لم تعد قدماه تقويان على النهوض، أُثقِل جسده العليل، استلقى متأمِّلًا السماء وسرب من بجع وردي يحوم في زرقة بحر السماء، وجاء المَلك الجديد للغابة، ببر عملاق ذو فراء برتقالي ناعم وخطوط سوداء لامعة، يسير على مهل وبهاء يليق بحاكم الغابة الجديد، صوت أنفاسه زئير خافت مكتوم، كل سكان الغابة وقفوا يتأملونه في صمت جنائزي، لم يأكل جيفه الفيل الفقيد، فقط ارتقى صخرة كَبيرة وجلس يلعق مخالبه وفراءه. وضياء ذهبي يتسلل من بين الأغصان ليمنحه مشهدًا مهيبًا، العجيب أني رأيتك تقف قريبًا منه يا فتى..

- هذا ما رأيته في نومي يا يونس.. أمرٌ جلل سيحدث على هذه الأرض، وأنت ستكون حاضرًا.

تحسس الفتى جبهة إقبال محدثًا إيَّاه:

- الحمى تُنهك جسدك أيها الشيخ، لا تتحدث، استرح.

أنهى جُملته وأخذ يضع قطعة قماش مبللة بالماء البارد على جبين صاحبه، جسده الهزيل يرتجف على الرغم من حرارة جسده المرتفعة. يومان من الإنهاك والتعب جراء ضرب راما له، سَهر يونس على رعايته، يطمئن عليه بين الحين والآخر في أثناء النهار، أمرت الدوقة برعاية الأسرى بعد ما

حدث في الكنيسة، جاءه بالغداء في ذلك النهار، أطعمه حساء الفاصولياء، وقص الشيخ رؤياه عليه، ضحك يونس وهو يقول لإقبال:

- كانت لي رؤيا لببر منذ زمنٍ بعيد.. لم أقصها إلا على أخي يحيى، ترى كيف حاله الآن وماذا يصنع؟ وأخي هذا فقيها في الدين وطالب علم بالأزهر، اخبرني أن الحيوان المفترس هذا قد يكون حاكم يهيمن على الأرض ويملك ربوعها..

ابتسم الهندي الشيخ:

- أنا أيضًا أعرف بابر.

نطقها بمد لألفٍ بعد الباء الأولى، في البداية حسبها يونس لَكْنَة مختلفة، ولكن إقبال أضاف بسرعة:

- في بلاد فارس يسمون النمر -بابر- فرق طفيف في النطق بينهم وبيننا سكان الهند، وعلى كل حال، ربما يكون من رأيته في الحُلم هو ذلك الصغير الذي يطلق عليه أعمامه وأقاربه وحتى أبوه اسم بابر.

- من هذا؟ لم تذكره يومًا..

- بل ذكرته باسمه الذي ولد به -ظهير الدين محمد- ابن الميرزا عمر سليل تيمورلنك، ولكنه بعيد عن تلك الرؤيا التي رأيتك فيها.. تربى بين يداي حتى صار شابًّا قويًّا، عهدته نبيهًا ذكيًّا محبوبًا بين أقرانه، يُحب الأدب والشعر إلى جانب الفروسية، ويحب من يناديه بابر، ويحظى برعاية أبيه الذي يوليه اهتمامًا بالغًا ليكون وريثًا لعرش جدهم تيمورلنك، وهو أهل لذلك. وإن كان هو المقصود بما رأيت في منامي فربما يكون لكما لقاء..

- أو هي مُجرد أضغاث أحلام أيها العجوز..

- ليست كذلك يا فتى، الرؤى حق وإن صدقت فسيكون لك ولظهير شأنً عظيم.

- ظل إقبال يحكي عن الترك من سلالة المغول، بينما مر بخاطر يونس ما حدث في الكنيسة وكيف اتهمه القس بالسرقة، شَرد وتذكر مال أبيه الذي أخذه يوم هَرب من المنزل، كان يحدث نفسه بأنه سيعيده يومًا، وحين يتملك اليأس منه يقول إنه حقه وسيسامحه أيوب، سَعل إقبال وأمسك بأصابع مرتجفة يد يونس:

- ستلقاهم، وحين تحين لك الفرصة للخروج من هنا فاذهب ولا تنظر وراءك.

- سنخرج معًا من هنا.

- يا بني لم يعد في العُمر بقية.

- اسمع أيها الهندي، لاشين الألفي في الميناء اليوم، إنهم ينقلون مؤنًا وعتادًا للسفن، وهناك عدد من الأسرى يُجزم أن الحرب وشيكة، سننتظر حتى ينشغلوا بأمورهم وسنرحل عن هنا، أنت أدرى الناس بهذه الأرض، سنذهب إلى غوا ومنها إلى مومباي ثم إلى فرغانة حيث الأمير صاحبك وبنوه، فالبحر أصبح ملكًا للإفرنج البرتغاليين.

وبينما كانا يتسامران، دخل عليهما لاشين بوجه باسمٍ يفيض أملًا:

- سفن البرتغاليين ترحل الآن للحرب؛ سيكون علينا المغادرة الليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

على حافة المرفأ الخشبي وقف الأب دييجو وعلى كتفيه عباءة بيضاء وضَّاءة مذهبة، معتمرًا غطاء رأس أحمر صغير فوق صلعته الشيباء، يتلو الصلوات وينثر بأنامله رذاذ الماء المقدس في أثر سفن الرب المُغادرة للميناء، على مقربة منه كان الدون فرانسيسكو دي ألميدا عاقدًا يديه خلف ظهره، وفي عينيه انعكست زرقة الأفق والأشرعة المُصفرة ذات الصلبان الحمراء، بوركت بالصلوات والتوصيات، سفن الأسطول المغادرة لحصار كاليكوت، أوصى الدون مساعده فرناندو كوتينهو بفرض حصار خانق على عاصمة سلطنة الزاموريين، على أن يَلحق به فور وصول المدد الذي ينتظره من البرتغال، وبناء الجسر سيستغرق كثيرًا من الوقت لتسيير قوات برية من الهندوس الذين يدعمونه، أراد أن يكون حصاره أمرًا واقعًا وعليهم جميعًا إدراكه، الملك في لشبونة سيعيد الثقة له مرة أخرى، وسينسى البحارة والساسة أمر ألبوكيريك، سيختفي أثره وينطفئ وهجه في زنزانته الرطبة، بينما يجلس هو على كرسيه باستحقاق بعد كل هذه الانتصارات، عهد إلى راما الراجبوتي بتجنيد مزيدٍ من المرتزقة، وجلب ما يستطيع من قبائل هضبة الدكن، لا شيء سيوقفه عن تحقيق مراده بأن يكون له جيشٌ كبيرٌ من أهل الهند يجابِه بهم بني جلدتهم، سيكونون رجاله المخلصين، وسيدخل إلى قصور كاليكوت لينهيَ سطوة التُّجار العرب على بلاطها، وليس هناك أجمل من فرصة جديدة يهديها له القدر لمجابهة غريمه المهزوم حسين الكردي، يؤكد جواسيسه بأنه يتحصَّن بها، لا يعلم لمَ تأخَّر المدد الذي طلبه من الملك مانويل؟ وهذا أمر يؤرقه! بخطوات واسعة اتخذ طريقه عائدًا إلى الحصن يحيط به رجاله، كل شيء هنا استتب في الشهور الأخيرة بعد نصره على المماليك، انبسط المحيط مِلك يديه، يقلِّب في المراكب كيف شاء، وها هو حصنه يزداد قوة، وتنمو في محيطه مدينة برتغالية صغيرة، لَمَح بطرفه عدوَّه اللدود يقف في شرفته عاليًا، كغراب بيْنٍ يتطيَّر به، كان حائرًا في أمره، ولم يجرؤ على قتلِه؛ فهناك كثيرٌ من أتباعه مازالوا ينتظرونه ويعلمون بأنه محتجزٌ لديه، لذا لا يجب أن يراه نائب الملك القادم بالمدد، سيلهيهم بأمر حصاره كاليكوت وضرورة التحرك للحرب، رتَّب كل شيء جيدًا وأصبح يرى أن حلمه يتحقق، الهند وأرضها له وحده دون غيره، عليه أيضًا التخلص من تلك اللئيمة ماتيلدا، كيف يضمن سكوتها الأبدي هي الأخرى، انتظر كثيرًا وتحمَّل هواجس متضاربة بداخله طوال أشهر، لا يعرف ما تكيده في الخَفاء، تعامله بشكل اعتيادي رسمي أمام الجميع، حاول نفي فكرة أنه يخشاها، وفي الحقيقة كان يرتعد كلما رآها ونظرت بعمق في عينيه.. تعرف ماهيته، ولكنه ليس كذلك، تلك كانت زلَّة ونزوة لم تكتمل، لا يستطيع كبت نفسه عن البوح بأنه يشتاق لطفل يرث الملك والمجد الذي يصنعه، صار يضاجع محظيات من السبايا والخادمات، أملًا في الحصول على ولد؛ فليس معقولًا أن يترك الدنيا هكذا خاليَ الوِفاض بعد هذا العمر، مات لورنسو وليس على الأرض أسوء من رجل قُطع نسله عن الدنيا.

عند بوابة الحصن افترق عن القس دمِثَ الخلق ودخل قاعة الحكم، بدأ مطالعة بعض الأوراق والخرائط بينما يصب له خادمه كأس شراب، التقط خريطة كبيرة ونقلها إلى منضدة منفصلة ووقف أمامها بضع لحظات قبل أن يتناول الكأس بلطف من الرجل سائلًا إيَّاه:

- فيليب، هل تذهب إلى المطبخ وتطلب منهم طبخ وليمة من لحم الخنزير الليلة؟ سنقيم مأدبة صغيرة للدوقة والدون ألفونسو دي ألبوكيريك، ولا تنسَ أن تدعو الأب دييجو للحضور.

مضى الخادم متعجِّبًا من قول الدون، كيف يستضيف رجلًا طالما صرَّح بكرهه له، بل كيف سيجلس مع سجينه على مائدته، ما إن خرج الرجل من القاعة حتى توجه دي ألميدا إلى مكتبه وفتح أحد أدراجه، اطمأن لوجود شيء ما بداخله، ابتسم وهو يرفع كأسه ويلقي ما فيه دفعة واحدة إلى جوفه، أيامٌ تفصله عن السيطرة على ثاني مدينة له على ساحل الهند، كاليكوت التي استقبلت فاسكو دي جاما بوُد وترحاب أول مرة، هي نفسها التي وقفت في تحالف مع المماليك لمحاربته وإجلاء سفن الإمبراطورية البرتغالية عن تلك البحار، ولكنه الآن هو المهيمن المنتصر الذي وجب عليه دحرَ الأعداء في عقر دارهم، وبينما هو جالس يفكر ويخطط لمستقبل حُكمه جاء راما، دخل عليه بعد أن استأذن ليبشره بأنه اتَّفق مع كثير من قبائل هضبة الدكن على الثورة والانضمام لمحاربة الزاموريين.

تبادلَا الحديث حول الحرب والمؤن، ولكن ما يطلبه الدون كان مستحيلًا، إن كاليكوت عصِيَّة وكبيرة، كما إن قلاعها أشبه بالمتاهة، غير إنها منيعة، بدى لراما أن الدون يستهين بعدوِّه وقدراته على الصمود، وحاول مرارًا أن يشرح أن الزاموريين ذوي بأس شديد، ولكن الدون المتعجرف كان يُصر على خطته بحصار طويل للمدينة حتى يأتي الأسطول الجديد، ولكن ماذا لو لم يأتِ المدد؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مساء رائق بهوائه العليل، وسماء تمازجت فيها حلكة الليل مع لون لازوردي حالم، تزاحمت فيه النجوم البرَّاقة، الموج يتتابع بسلاسة على حافة الشاطئ الرملي المتشح بنور قمر فضي أشرق لتوِّه، ارتدى دي ألميدا أفخم الثياب لديه، مشط لحيته قبل أن يَسكب على يده قليلًا من ماء الورد نفاذ الرائحة، فرك وجهه وأسفل ذقنه، استنشق نفسًا عميقًا ليملأ رئتيه بالنسيم البارد القادم من النافذة ذات الستائر المتطايرة، كل شيء مناسب ليتم خطته، كان على وشك اعتمار قبعته حين داهمته طرقات على باب غرفته، ظل ممسكًا بالقبعة ذات الريشة الطويلة وتوجَّه ليرى من الطارق، كان أحد حراسه يقف زائغ العينين متعرق الوجه وقد جفَّت الكلمات على لسانه، مظهره هذا جعل الدون يسأله:

- ماذا هناك؟

تلعثم الرجل محاولًا النطق قبل أن يستجمع قوته أمام الغضب الذي بدأ يتجلَّى في وجه سيده:

- سيدي الدون، لقد فر مجموعة من الأسرى!

بدى للجندي أن دي ألميدا لم يسمعه، كان واجمًا جامدَ العينين، مما جعل الرجل يسأله:

- سيدي، هل أنت بخير؟؟

كان الدون تائهًا في بحار تموج بالغضب، شَعر وكأنه يُقبل على عاصفة عاتية وعليه أن يخوضها دون أن يترك دفة سفينته، ربما استغل هؤلاء الملاعين قلة الجند وسُكون الحصن بعد رحيل الأسطول ليهربوا، خرج وأغلق باب غرفته خلفه متجاوزًا الجندي الذي لم يجد إلا أن يتبعه، راح دي ألميدا يصبُّ غضبه على الحراس والقادة، ذهب بنفسه إلى حظيرة العبيد والأسرى، تفقد المكان القذر بينما يخبره راما الراجبوتي أن الفارين هم عشرة رجال من الأسطول المملوكي، الأمر الذي زاد من غضب الرجل، ترك راما يستجوب بقية الأسرى على عجالة، أما هو فامتطى جواده وأخذ فرقة من الهنود وخرج تحت ضوء القمر إلى الغابة ليبحث عن الهاربين.. أقسم إنه سيقتلهم إن وجدهم، وطال

بحثه والليل يمضي حتى لحق به الراجبوتي وفرقة أخرى من الجند ومقتفي الأثر، بصعوبة بالغة أقنعه الشاب الهندي بالرجوع إلى الحصن، كان حديثه واقعيًّا بالنسبة للدون الغاضب والذي عاد أدراجه يجر أذيال الخيبة والغضب، فشل مخططه لليلة. الفجر على وشك القدوم ولم يُقم المأدبة التي كان يريد. في الأفق كانت ظلال الحصن بادية وقد زينت حوافها المشاعل، الخيل تطرق الأرض من تحته وعيناه تجولان في أرجاء الغابة المعتمة، كان يأمل العثور على أي دليل يقوده إليهم قبل العودة إلى الحصن، ومع اقترابه تناهى إلى مسامعه أجراس الميناء.. ارتبك ونقل توتره إلى حصانه الذي راح يقف فجأة وراح يدور حول نفسه، كان هذا ما ينقصه أن يخاف جواده وكذلك فعلت كل الخيول التي ترافقه، هدأ من روعه على الرغم من غضبه منه وتقدم مرة أخرى إلى قلعته التي لم تتوقف أجراس مينائها عن القرع.

المدد جاء من البرتغال، تناثرت عند مدخل الخليج عدة سفن برتغالية، أضاءت قناديلها صفحة الماء المترقرق، لا يدري أيَفرح لقدومهم أم يَشعر بالضيق؟ كان ينتظرهم منذ أشهر وجاءوا في غير موعدهم، سيكون عليه إخفاء أمر الأسرى الهاربين كما سيخفي أي أثر لغريمه ألبوكيريك من الحصن، نزل عن صهوة جواده عند بوابة المرفأ، ووسط ترحاب الجند به والمشاعل الكثيرة، بدأت أكبر سفن الأسطول الاقتراب من الرصيف.

بوجه شاحب مُصفرٍّ استقبل الدون طاقم السفينة العظيمة، وهوى قلبه حين رأى الرجل الذي وطئ نعله الجلدي الأرضية الخشبية للميناء، النبيل لوبيز دي سكويريا، كان هو نائب المَلك ومبعوثه بالمدد، رجل صارم حارب إلى جواره في غرناطة وألميرية حين كانوا ضمن الحلف القشتالي البرتغالي الذي أنهى وجود العرب في إيبيريا، حاول الدون أن يَبتسم فاتحًا ذراعيه مرحبًا بصاحبه القديم، وعلى ضوء المشاعل وأجواء ما قبل الفجر الباردة وقف الرجلان أمام بعضهما بعضًا، قليل من عبارات الترحيب، وكثير من الصمت ما لبث أن قطعه دي سكويريا:

- دون فرانسيسكو، مُبارك نصرك على المماليك في ديو، وتعازي لموت ابنك لورنسو، ولكن أليس من المفترض أن يستقبلنا الدون ألفونسو دي ألبوكيريك؟!

تلاعبت الكلمات بروح دي ألميدا كما تتلاعب الريح بالرايات فوق مباني الميناء، جف حلقه وحاول إيجاد ردٍّ مناسب على سؤال الدوق:

- ألمَّت به وعكة صحية، وقرر الانعزال في حصن كنانور..

أتى صوت من خلفه ليبتر جُملته، نبرة يعرفها جيدًا، لوهلة ظن أنه يهذي، ولكن ابتسامة دي سكويريا العريضة تزامنت مع رؤيته للواقف خلفه قائلًا:

- كيف كانت رحلتك يا لوبيز؟

تجاوز دي سكويريا الدون المخذول متجهًا إلى صاحب الصوت، ألفونسو دي ألبوكيريك الذي كان يقف خلفه تمامًا حين التفت لرؤيته، كان باسم الثغر يرتدي ثوبه الأسود الشهير والمُطرز بصليب أحمر على الصدر، أحس فرانسيسكو بالخذلان، ولم تعد ساقاه تقويان على حمله، استند إلى الجدار الخشبي للمشى، وعيناه ترمقان أسيره الحر الآن، بينما كانت ماتيلدا إلى جواره وعلى وجهها ابتسامة

ظفر، وإلى جانبها كان الأب دييجو ومن خلفه كثير من الرهبان والجند، عناق حار من دي سكويريا للبوكيريك، وقلب دي ألميدا يحترق، الأرض تميد به وأحلامه بددها أثر الخيانة، ليته تخلّص منهما قبل أن يأتي المدد، لم يدرِ ما عليه فعله، وجاءت كلمات النبيل نائب الملك لتوقظه من حسرته:

- دون فرانسيسكو دي ألميدا، بموجب الأمر الملكي الصادر من لشبونة، جُرِّدت من كل صلاحياتك بناء على ما قمت به من تمرد على الدون ألفونسو دي ألبوكيريك، وعُزِلت قبل عام من الآن، ولكنك لم تنصَع إلا لرغباتك، ولولا رسالة الأب دييجو وشرحه لما قمت به من أفعال لا ترنو لمستوى النبل، وولولا إنك كنت قد أهديت التاج البرتغالي نصرًا عظيمًا على المماليك، لكان لنا حديث آخر، لست مخوَّلًا بالحكم عليك، ولكن سيحتم عليَّ أن أعيدك إلى لشبونة للمثول أمام ملكنا مانويل الأول.

هول المفاجأة كان قاسيًا، اقتيد دي ألميدا إلى محبسه بينما العالم يتحرك ببطء شديد من حوله، ضحكة ألبوكيريك وفرحة طاقم سفينته زهرة البحار، ماتيلدا التي لم تنظر ناحيته وكأنه لم يكن، وذلك القس اللئيم يُقبِّل القادمون يده في تبجيل، أحلامه وأمنياته أطيح بهم جانبًا كدلو مثقوب ينساب الماء من كل جوانبه، ولو كان مساعداه الدون كوتينهو وراما الراجبوتي هنا لأقام حربًا أهلية يُكلل فيها بالنصر، ولكنه وحيد يائس وخاسر، تطلّع للسماء من بين قضبان سجنه بينما يجلس المنتصرون في قاعته، يتسامرون ويتناولون لحم مأدبة كانت لتكون الأخيرة لهم لو كان بينهم.

مع نسمات الفجر الأولى خفتت الأحاديث في القاعة الكبيرة، نيران المدفأة خبت وصعد دي سكويريا إلى مهجعه، خرج ألبوكيريك إلى الباحة المطلة على المحيط مودِّعًا مساعده ميندِيز الذي سيتوجب عليه اللحاق بأسطول كوتينهو ووقف الحصار على كاليكوت، طرف السماء البعيد يتبدل للون الأرجواني، ورائحة البحر وملوحته تعبق الأرجاء ببرودة، وشيء خفيف من ضباب، سكون لا يقطعه إلا تكسُّر الموج على شفاه الصخر. كان شاردًا حين جاءه صوتها الهادئ ذو النبرة الحالمة:

- فجر جديد، وميلاد جديد، فيما تفكر أيها الشيخ؟

- فيما سيكون..

قالها ثم التفت إليها ماسحًا شاربه الكث منظِّمًا إياه، ضحكت فحدثها:

- ستعودين إلى لشبونة إذن؟

أراحت مؤخرتها على الجدار القصير:

- لا أعرف، إلى ماذا أعود؟؟ الحياة الرتيبة المملة والمدينة المزدحمة، يؤسفني أن أخيب ظنك، فلست هذا النوع من الفتيات التي تظن.

حك رأسه وهو يتطلع إليها بينما يعبث الهواء بخصلات شعرها، وعيناها الجميلتان اللتان ضاقت حدقتاها أمام دفقة هواء بارد جراء تنفس الصُبح، تابعت وهي تعدل من وضع الشال الصوف على كتفيها:

- أريد أن أُبحر، وأرى ما تصنعون، أريد أن أكون بحارة مثلكم وأحظى بنشوة النصر كتلك التي تفيض بها روحك.

- يبدو أن الخمر لعب برأسك يا فتاة.

- هل هناك مرسوم يَمنع هذا؟

- لا، ولكن هذا خطر عليكِ، وأهم من قال إن في الحرب منتصر، حتى ذلك الذي يحظى بالمجد، عليه أن يخسر أشياء أخرى، تلك هي الحياة.

- أريد المخاطرة، فأنا لن أعود على متن سفينة تحمل ذلك الحقير دي ألميدا، أنت تقول إن الرب يضعنا حيث يريد أليس كذلك؟ وطالما جزمت أنك مكلف بالحرب المقدسة وتحمل على عاتقك حمل راية الصليب. سأفعل مثلما تفعل وما عجز عن فعله إخوتي الذكور، سأخوض الحرب من أجل الرب.

- هناك طرقٌ كثيرة وأفعال أخرى قد نفعلها من أجل الرب، الحرب لا تليق بقطة جميلة يافعة مثلكِ.

مالت بنصف جسدها للأمام قليلًا وهمست:

- بالتأكيد لن أسلك طريق الرب كما يَسلكه مُضَاجِع الولدان دييجو.

ضحك ألبوكيريك بقهقهة مرتفعة وما إن توقف سألها:

- هل صدقتِ قولي إذن الآن؟!

- كنت أحسبه يخشاك لسبب آخر، وأني أتلاعب بمخاوفه كما أخبرتني، ولم أتوقع أن تكون صادقًا في الحقيقة حتى قال أحد الأسرى العرب إنه رآه يضاجع شخصًا ما، بالحديث عن الأسرى العرب ماذا ستفعلون حيالهم؟!

- ننتظر عودة ذلك الراجبوتي لنعلم، ميندیز يقول إنهم مجرد عشرة رجال فقط.

- هل من بينهم ذلك الشاب؟!

- أي شاب؟

صمتت لبرهة وأخذت تتذكر ما فعله يونس براما، الشاب وإن كان أقل حجمًا من الهندي إلا إنه مقاتل بارع، بكتف مكتنز وجسد ممشوق، وسيم وقد منحته تلك الندبة لمسة محارب:

- ذلك الذي أخبرتك أنه رأى دييجو، هو ذاته الذي ضرب راما الراجبوتي، ولو أنه من بين الهاربين فبالتأكيد سيقتله الهندي إن وجده.

لوح بيده قبل أن يستدير ويتركها قائلًا:

- آهٍ منكن معشر النساء، وماذا في ذلك؟ فليفعل بهم ما يشاء حين يجدهم، سأصعد للنوم قليلا.. فالليلة كانت حافلة بما يكفي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاثة أيام مَرت منذ الإطاحة بفرانسيسكو دي ألميدا، الطقس مشمس وكأن النائب السابق للملك يأتي بالغيم الكئيب ليحجب كل تلك الخضرة والجمال، ولّت أيام حكمه الكئيبة، والآن صار كل شيء زاهيًا

في عيني الدوقة، لم تمنع نفسها من زيارة حظيرة العبيد للتأكد أن الشاب من بين الهاربين، ولكنها تفاجأت بوجوده، كان يرعى شيخًا يحتضر، لا تعلم لماذا لم يَفرَّ مع من رحلوا، تذكر المرة الأولى التي رأته فيها، وطالما صادفت وجوده في كثير من المواقف، حضوره طاغٍ في أي محل يحل به، لا تدري لمَ يُشغلها أمره لهذا الحد! أمرت برعاية الأسير الشيخ ومنح الأسرى الذين لم يلوذوا بالفرار ملابس جديدة ووجبات دسمة، اكتفت بتبادل النظرات مع الشاب الدَمِث، وفي مهجعها سألت وصيفاتها عن العرب وما يعرفون عنهم، واختلجت المشاعر بداخلها حين أفصحن عما يطمحن، جميعهن يتمنون العودة إلى لشبونة، لورا الحالمة بالحرية والزواج من قريبها الموريسكي طاهر الأشبوني الذي لا تكف عن ذكره، وسبيرنوزا التي تطوق لحياة المدينة والصخب، ولا تنفك عن القول لهن كم هي كئيبة حياة الحصون وغربة المكان والزمان! وما يحيط بهن من أناس غريبي الهيئة والعادات، وقصت خادمتها الثالثة ماري ذات الأصول القَشتالية على مسامعها ما رأته من تبرك الهنود ببول بقرة والسجود لها، قامت برسم إشارة الصليب في الهواء وهي تتمتم «فليغفر الرب»، كانت أكثر خادماتها زيارة لكنيسة الأب دييجو، هي عيناها اللتان تنقلان لها كل ما يدور هنالك، تضاحكن وارتفعت القهقهات حين تهامسن بأمر الأب دييجو وكيف يُحب شماسه الوسيم، اتخذت منهن صديقات ولا تدري ماذا ستفعل إن رحلن إلى لشبونة؟! يملأن يومها بالأحاديث والحكايات، اعتادت عليهن، وهي مازالت حائرة في أمر عودتها، إن وافقت على عودتهن جميعًا فمن سيخدمها؟! تردد في جوانب عقلها كلمة ألبوكيريك «كُنت أعلم أنك من هذا النوع من الفتيات»، كان صادقًا معها في حديثه قبل أيام، ماتيلدا ابنة إليخاندرو دي جايا ليست سوى فتاة مدللة تعتمد على خدمة وصيفاتها، كيف تريد أن تكون بحارة، هل تعرف حتى معنى أن تكون هي حواء الوحيدة على متن فُلك الرب؟!

مررت بصرها على أرجاء الميناء والسفن الراسية إليه، سفن أخرى تقف بمدخل الخليج بعيدًا عن الشاطئ، المراكب الصغيرة لا تكف عن الحركة من المرفأ وإلى داخل البحر، والروافع لا تكف عن الحركة، يزوِّدون الأسطول بالمؤن والعتاد، سيرحل ألبوكيرك على متن زهرة البحار، سيذهب إلى كاليكوت للانضمام لحصارها، انشغل عنها في الأيام الماضية بتدبير أمور حربه القادمة، فالرجل يهتم بعمله ويقضي وقته بين مساعديه والخرائط البحرية والإشراف على تجهيز السفن، لم يكن راضيًا عن الهجوم على كاليكوت الذي رتبه دي ألميدا، ورَّطه غريمه المعزول في تلك الحرب مع الزاموريين، وكان من حسن طالعه أن أتى دي سكويريا مع خمس عشرة سفينة، وتلك واحدة جديدة غريبة الأشرعة تُبحر برفق إلى داخل الميناء، أعلى صواريها يرفرف علم برتقالي اللون، ضخمة البنيان مختلفة التفاصيل عن سفن قومها، رأت من شرفتها الدون برفقة النبلاء يتَّجهون إلى المرفأ، شيء ما أثير بداخل نفسها، فتمنت لو كانت هناك لتعرف أمر أصحاب السفينة الغريبة.

- إنهم قراصنة.

هذا كان رده حين قابلته وسألته في مدخل القلعة، كان متجهمًا ولم ينطق بأيَّة كلمة أخرى، لحقت به بخطوات واسعة، أرادت أن تشبع فضولها النَّهم بمزيد من التفاصيل:

- ماذا بك؟! هل هناك ما يُغضبك؟

التفت إليها وظل صامتًا يحدق في وجهها، لا يعلم ما عليه قوله لها، ولكنه مل من كثرة الأسئلة والملاحقة، لم يعتَد هذا وفعلته هي باقتدار في الأيام الماضية، أراد لو أن يَشحنها إلى لشبونة، فالأرض التي يقفون عليها ليست صلبة، قد ينهار كل شيء لو توحَّد مسلمو كاليكوت وغوا، بفعل حماقة دي ألميدا سيضطر لتأجيل حلمة غزو البحر الأحمر والقضاء على ما تبقى للمماليك من سفن هناك، الذهاب وسلب مكة ومن ثم رحلته الأخيرة لاسترداد وتطهير القدس، لا يَعلم لمَ عليه أن يقف هكذا أمام فتاة حالمة لا تعرف ما يحيق بهم من أهوال؟ إنهم وسط بحر يعج بالأعداء، وعلى أرضٍ عطشة للدماء، وكان عليه فوق كل هذا أن يرد على أسئلتها وينصاع لرغبتها الجامحة للتعرف إلى كل شيء في عالم قاسٍ تريد أن تخوضه، اقترب منها بضع خطوات وقال بأبوة:

- بُنيتي، ماذا تريدين من هذه الحياة؟!

- مال هذا السؤال ومجرى حديثنا؟

- أجيبيني.

بدت أكثر وداعة وطيف ابتسامة يزهر على شفتيها، فكَّرت قليلًا وأجابت:

- فقط سأبحر معها وتُلقِني كيفما تشاء.

- أمواج الحياة صعبة عاتية، ليست بالسهولة التي تتخيلين، ولا يأمن غدرها إلا مُغفَّل واهم، كما إنها ثقيلة على من يحمل مثقال ذرة من تعاطف، وفي هذا العالم إن لم تأخذي مكانتك وما تطمحين إليه بيد قوية فسيسلبه غيرك، وإن كنتِ تريدين البقاء هنا على هذه الأرض، فأرسلي للملك طلبًا بالمكوث هنا وتكوين إرسالية لتعليم وتبشير الناس بالرب، سأمنحك إبحارًا هادئًا في هذه الحياة ما دمت حيًّا، ما رأيك أن تحكمي أنتِ بر الهند نيابة عني بينما أخوض أنا حروبي؟ وبدوري سأخبر الملك والملكة برسالة ثناء على جهودك وما تفعلين.

- ولكني أريد الذهاب للحرب..

أمسك بكتفيها وغرق في هوة عينيها الرمادية الجميلة:

- الحرب ليست نزهة ولم تُخلق للنساء لها، أتعرفين معنى أن تكوني بين بحارة لم يتحمموا لأشهر؟! تلك السفينة في الميناء هي لقرصان هندوسي يدعى تيموجي، أتى ليُخبرنا أن الأسرى الفارين ذهبوا إلى سلطان غوا عادل شاه الذي أعلن علينا الجهاد لأننا هجمنا على حلفائه في كاليكوت.. أتدرين؟ عشت حياتي مسئولًا عن رجالي على الرغم من كونهم فحولًا أشداء ذوي بأس، إلا إني أعلم الخوف حين يحل بالقلوب، رأيته ينعكس في أعينهم وسط أهوال البحر والحرب، لا أحب الجُبناء من لديهم نقاط ضعف ظاهرة، كنت أعفيهم بمجرد وصولنا إلى أي شاطئ، أتخلى عنهم على جزر نائية، فالجبن إن توطن قلوب الرجال أثقلوا، فما بالي أنا بفتاة مثلك؟!

- هل تخشى فقداني؟!

تركها ومضى إلى المنضدة وزجاجة العنب المعتق خاصته، جذب سدادتها بأسنانه وقرب فوهة القارورة من أنفه، استنشق شذى رائحتها الفواحة مغمضًا العين وهو يحدثها:

- أتعرفين؟ أنا ممتن للرب أنه أرسلكِ لي، وأنا الذي لا أطيق الوعود أو أن أكون مدينًا لأحد، صرت بطريقة ما مدينًا لكِ، هذا كل ما في الأمر.

أخذ رشفة من زجاجته متلذذًا بمذاق العنب المُخمر والتفت ليكمل حديثه:

- لولاك لما بعث دييجو الرسالة إلى الملك ليخبره بالحقيقة، هناك شيء لم أرد له أن ينموَ أبدًا بداخلي صار يرتفع عَنوة، أتفهمين ما أُقول؟!

هزت رأسها نفيًا فتابع:

- هناك شجرة أو ثمرة تَكبر بداخلي نحوك، هذا الإحساس بالأبوة والمسئولية تجاهك، أريدك بخير هذا كل ما في الأمر، وهذا ما يقلقني ووجودك في خطر دائم سيؤرقني، قسوة الحياة علمتني أن أكون دائمَ الثبات أمام نوائب الدهر، من يَسقط ولا يحاول النهوض يموت، لا أريدك نقطة ضعف لي، بل مصدر قوة وأمان لظهري على البر.

أومأت برأسها متفهمة، أو هكذا بدى له، وطال حديثهما حتى جلسَا لتناول الغداء برفقة النبلاء ومساعدي الدون والقرصان تيموجي، صاروا جميعًا يعرفونها الآن، ولا يَكف البحار الشيخ عن الحديث عنها وكيف يثق في إدارتها لأمر الحصن في غيابه، سيرحل مع المَد فجرًا على متن زهرة البحار إلى كاليكوت، سيأخذ معه العبيد والأسرى، كان بحاجة إلى كل رجلٍ يستطيع استخدامه في تلك الحرب، أما الدون دي سكويريا فسيذهب لقطع الطريق وحصار غوا برفقة القرصان، أما هي، فعليها البقاء لتحكم نائبةً عن الدون ألفونسو دي ألبوكيرك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صَعدت أفواج الجنود إلى القوارب الصغيرة، حملتهم تباعًا إلى متن السفن الحربية الكبيرة، تتأرجح القناديل المُعلقة بالصواري بنعومة مع الموج، بحارة يشدون حبال الأشرعة، وآخرون يأخذون أماكنهم على المتن، ودي سكويريا وسفنه الخمس عشرة كانوا أول المغادرين للميناء، أبحروا أمام نظر ألبوكيريك الذي لا يزال واقفًا يتابع صعود الأسرى والعبيد إلى سفينته، كانوا مُكبَّلين وقد أوصاهم ميندیز بعدم التهور أو مجرد التفكير في الهَرب، بينهم كان يُونس الحزين على مفارقة إقبال الذي مازال متوعِّكًا، قد أجبر على تركه وحيدًا في حظيرة الأسرى، كان يَلوم نفسه ويتمنى في قرارة نفسه التوفيق لرفاقه الذين فرُّوا من الأسر منذ أيام، لعل الألفي وصل الآن إلى وجهته، لم يستطع المغادرة دون إقبال، أخذ قرارًا صعبًا بعدم التخلي عن البحار الهندي، لا يلوم نفسه بقدر ما يُشفق عليها، لم يستطع ترك رفيقه الكهل والهرب فأجبروه على التخلي عنه، مازالت كلمات إقبال الأخيرة تتردد في جنبات عقله:

- «لكلٍّ منَّا أجل نستوفيه، فلا نستقدم ساعة ولا نستأخرها، اذهب يا يونس، هذا قدرك وقدري، قلتها لك من قبل، اذهب مع لاشين الألفي ولا تنظر خلفك، ولكنك بقيت، والآن سيأخذونك آملين منك أن تقتل إخوتك في الدين، لا تنسَ من أنت يا فتى!».

وداع ثقيل على قلب اعتاد على الفراق، الأعين لم تقوَ على ذرف الدمع، أُلقيَ به في قبو مُظلم وبقية الأسرى، سيكون عليهم تنظيف السفينة والتجديف حين يُخالفهم التيار والريح، الضيق يحيط بعنقه

كحبل غليظ يعصر روحه، تمنى لو مات قبل هذا كله، برودة الخوف تتملك من قلبه، ومن خلال كوة صغيرة تعلقت عيناه بالمرفأ المضاء بعشرات المشاعل، ولسان حاله يحدثه: آه يا ابن أيوب المصري! ليتك هَربت مع لاشين الألفي.. حين سنحت الفرصة.

ما أشبه الليلة بأخرى منذ سنوات، كان يختبئ بين براميل الزيت حين وجده بحارة المنصورة، ولكنه الآن على سفينة أخرى، زهرة البحار عدوهم قاسي القلب، ألفونسو دي ألبوكيريك الرجل الذي فتك بالأبرياء في عدن ومسقط ورأس الخيمة وهُرمز، عجيبة هي تصاريف الزمن، خرج يونس ليلةً طامحًا في مجابهة وصد الرجل الذي أراد مكة بسوء، وانتهى به الحال خادمًا أسيرًا على متن أضخم سفن الأسطول البرتغالي، لم يعد هو الشخص الذي يَعرف، وما وجوده هنا إلا كابوس يتمنى أن ينتهي، قريبًا سيتوجب عليه قتال مسلمي كاليكوت، ولكنه لن يَفعل هذا، سيهرب حين تحين الفرصة، أو لعله يجد سبيلًا لقتل الدون وإيقاف الحرب.

خُلق موج رقيق على جانبي السفينة ذات الأشرعة الكبيرة، بدت وكأنها تطير بنعومة فوق صفحة الماء، الرب أجرى لهم الريح لتحملهم إلى مبتغاه وقدره، ميندیز يثبت دفتها وإلى جواره قائده، الهواء يلفح وجهه ويدغدغ لحيته الكثة، عاد مرة للحياة، يُحب رائحة البحر ورذاذه، كانا بالنسبة له إكسيرًا أعاد إليه بهجته وشبابه، ها هو في البحر مرة أخرى يقود سفينته إلى الحرب، سطحها مزدحم بالبحارة والجند، بينما يكتظ بطنها بفرق من المشاة البرتغاليين والهنود، غناء وصخب وطعام وخمر وأمنيات أن تنتهي المعركة قبل عيد ميلاد الرب، الاحتفالات ستكون مختلفة بطعم النصر، وجميعهم يُمنُّون أنفسهم بالغنائم التي سيحصلون عليها حين يدخلون إلى كاليكوت، وفي زاوية معتمة كان يُونس ورفاقه اليائسون، لم يُحدثهم أحدٌ، فقط ألقي إليهم بفتات الطعام، تهامسوا فيما بينهم عن ضرورة الهرب حين تشتد المعركة، جُلهم يلومون أنفسهم بعدم الذهاب مع الألفي، ولكن الفرصة قد جاءت لهم مرة أخرى على طبق من ذهب، لو قدر لهم فعل شيء فسيكون إغراق تلك السفينة هي الواجب الأسمى، وضعهم الله هنا ليقوموا بهذا، هكذا قال أحدهم إن الانتقام والثأر ليوم ديو واجب في أعناقهم ما داموا أحياء، وإن صدقت الأخبار التي سمعوها من قبل فقد يلتقون بالأمير حسين الكردي مرة أخرى.

كان يُونس يجلس القرفصاء شاردًا في أحد الأركان حين رأى طيف رجل يَمر بالقرب منهم، شيء ما لفت نظره في هذا البحار، ربما مشيته الغريبة بعض الشيء، كان كمن يستتر بالظلال، وما لبث أن اختفى بين حشود الجند، أربعة أيام من أبحار لم يتوقف، ألقى ألبوكيريك كلمة على رجاله في الليلة الماضية، لم يسمعها يونس ومن معه، فقط وصلت إليهم صيحات الرجال، الوقت مر عليهم ببطء، لم يعتادوا الإبحار بهذه الطريقة، إنه مُخزن كبضاعة كاسدة هو ورفاقه، يجلسونهم بجوار دلاء البول، الرائحة نفاذة وعليهم هم تنظيف كل هذا، كانوا أدنى مرتبة على ظهر زهرة البحار، تذكر يونس أيامًا كان فيها يتعلق بالحبال ويتسلق الصواري، المنصورة ومماليكها وبحارتها، ومرفأ السويس وورشة أبيه، أخذه الحنين إلى طعام أمه والحلوى التي يأتي بها أخوه يحيى من رحلاته إلى القاهرة، وقبيل المغيب نادى بحارة الصواري:

- كاليكوت على مرمى البصر!

عمَّ الهَرج وارتفعت صيحات حماسية وقرعت طبول الحَرب، أسدلت السفينة كل أشرعتها وأبحرت فوق سطح المحيط المكتسي بحُمرة الغروب، فِرَق الجُند أخذت تستعد وتملؤهم الحماسة، وتجهزت المدافع بالبارود، وأخذ الأسرى للأعلى بعد منحهم هراوات خشبية، سيكونون طليعة الاشتباك، سيُضَحِّي بهم ألبوكيريك في أول فصول معركته، وبينما كانوا يُساقون إلى سطح السفينة لمح يونس البحار الغريب مرة أخرى، من بين الجموع كان يعرف تلك العينين جيدًا، على الرغم من اللثام والخوذة الحديدية اللامعة والملابس الرَّثة عرفها، إنها الدوقة متخَفِّية بزي أحد البحارة.

مع اقترابهم سَمِعوا هزيم المدافع، وأصداء معركة على الشاطئ يردد الخواء صخبها، سفن الحصار أنارت مشاعلها وقناديلها، والليل يجثُم مُطبِقًا على آخر ضوء للنهار، وأبراج كاليكوت المطلة على البحر مشتعلة، وتزفر قبابها العالية بأعمدة من دخان إلى السماء، أفسحت القوادس الصغيرة الطريق أمام زهرة البحار، كانت مهيبة بين أقرانها من سفن الأسطول البرتغالي، رأى يونس فرحة البحارة بمجيء ألبوكيريك، الذي كان يقود دفة سفينته بثبات ملوحًا لهم، اختار بقعةً توسَّط فيها بين بقية السفن وأمر بإلقاء المرساة، وما لبث أن جاء ربان كل سفينة ليحيي الرجل، عجَّت المياه بالقوارب الصغيرة بين السفن، وأشرف مينيديز على إنزال فرق المشاة التي أتى بها لدعم الطرادات السريعة، أبقوا على الأسرى بسطح زهرة البحار، أجلسوهم في مقدمتها بينما يصعد أمراء البحر ومعهم قائدهم فرناندو كوتينهو على المتن. استقبلهم مينديز وسار بهم إلى حيث قُمرة الدون، بالداخل كان الرجل يقف أمام طاولة يرص عليها قطعًا خشبية لمجسمات سفن وقلعة، ألقوا عليه التحيات والمباركات لعودته مرة أخرى، جميعهم عبَّروا عن غبطتهم حالما رأوا راياته فوق ساريات زهرة البحار، أومأ لهم برأسه مبتسمًا، كان هذا رده الوحيد عليهم قبل أن يسألهم:

- أطلعوني على تفاصيل الحصار وما فعلتم في الأيام الماضية.

تبادلوا النظرات حتى استقرت أعينهم على كوتينهو ذي الوجه المتجهِّم، تحشرجت الكلمات في حنجرته وهو يقول:

- سيدي، لقد سيطرنا على الميناء قبل قدومكم بقليل، قواديسنا تستعد لإنزال الفرسان والجند لاقتحام باب البحر والولوج إلى المدينة.

رفع ألبوكيريك عينيه نحو الرجل، تفحصه بنظره خاوية ودفع برفق سفينة على المنضدة تجاه الحصن الخشبي قائلًا:

- إن كان الأمر كذلك، فلماذا تقطر كلماتك خوفًا، ببساطة لأنك تعلم أن هذه لم تكن أوامري التي أرسلت إليكم..

- سيدي نحن نسيطر على مجريات المعركة..

قاطعه الدون بغلظة:

- أرسلت في طلب عودتكم وفك الحصار منذ أيام، وحين لم يأتِ خبر اضطررت للمجيء لكم بنفسي.. هل تحسبون أنكم بثلاث وعشرين سفينة تستطيعون دخول كاليكوت؟! إنها أضخم وأكبر سلطنة

للمسلمين على ساحل المليبار! هل تضحُّون بالرجال هكذا هباءً، يا سادة إن من تحملونهم معكم هم أفضل بحارة في الإمبراطورية البرتغالية، ماذا إن هلكنا جميعًا هنا؟! ألا تفكرون قليلًا!

قاطعه أحد القادة:

- سيدي، ولكننا هزمناهم وسفننا ترسو الآن داخل مينائهم الحصين.. لقد فعلناها وحطَّمنا أسطورة الزاموريين، ولم يبقَ إلا قليلُ وقتٍ ونسلب المدينة وذخائرها الذهبية.

اعتدل ألبوكيريك ونظر في عيني الرجل بحزم:

- ما اسمك أيها الدون؟!

- ماركوس دي باتا.

كانت الطاولة والصمت المُطبق يفصلان بينهما، هذا قبل أن يقول ألبوكيريك بنبرة حادة:

- دي باتا، حسنًا اسمع! وأنتم أيضًا! ما أبحرت من لشبونة عبر البحار والمحيطات الشاسعة إلا من أجل الرب وكلمته، ما جئت لذخائر من ذهب وفضة وعروش وسائدها من ريش طيور سيئة الحظ انتهى بها المطاف تحت مؤخرات سلاطين وثنيين، وما عُزل دي ألميدا إلا لأنه فكر ملثما تفكرون الآن، المجد والنصر والقداسة من نصيب من فكَّر ودبَّر، كان حري بكم أن تمتثلوا إلى رسالتي وتبتعدون عن ساحل كاليكوت، الآن أسطولنا مشتت بين الشمال في غوا وهنا في معركة خاسرة.

- دون ألبوكيريك، لماذا تُصر على أنها خاسرة ونحن نخبرك بأن لنا موضع قدم على أرضهم.

قالها كوتينهو بتحدٍّ، فما كان من ألبوكيريك إلا أن ابتسم وسأله:

- كم سفينة أغرقتم للزاموريين؟؟

- ثلاث سفن تجارية.

- الميناء الكبير الحصين لم تكن فيه سوى ثلاث سفن تجارية؟؟ أين أسطولهم إذن؟

- يبدو أنك نسيت أن الدوق فرانسيسكو دي ألميدا سحقهم في ديو مع حلفائهم المماليك.

- في الحقيقة يبدو أني ابتليت بمجموعة من الأغبياء والحمقى الذين لا يعرفون كيف تدور رحى الحرب، أخبروني بحق العذراء أم المسيح، هل يعلم أحدكم اسم أميرهم ومن يقود دفاعات الزاموريين؟!

غمغم النبيل دي باتا:

- يقولون إنه أمير البحر المصري، حسين الكردي.

خيَّم الصمت طويلًا حتى تململ الرجال في وقفتهم، والدون غارق في القطع الحربية الصغيرة على طاولته، لم يجرؤ أحد على مقاطعة خلوته التأملية تلك حتى اعتدل متطلعًا في وجوههم محدثًا إياهم:

- سيكون عليَّ محاكمتكم جميعًا بعد أن نخرج من هنا، هذا إن خرجنا أحياء.

مع آخر كلمات حروفه.. دوى صوت مدافع راحت تصم الآذان، جحظت العيون وحل الهَلع بين الحضور، وما لبثت أن هوت قلوبهم حين علموا أنها قذائف الزاموريين، وابلٌ من حديد راح يُمطر سفن البرتغاليين الرابضة إلى مدخل الميناء، ساد الهَرج وركض ألبوكيريك إلى سطح السفينة ومن خلفه رجاله، وأمام أعينهم كانت السماء تُضيء بشهب قادمة نحوهم، رُجموا بأسهم نارية اخترقت الأشرعة والصدور، تساقطت على الرءوس وكأنها مُوسومة، واشتعلت النيران ومَلك الهَرج المكان، وعدوى الخوف انتشرت وانتقلت بين القلوب، جميعهم يَركضون ليحتموا، والزاموريون يهللون من فوق الأسوار، رماتهم يشدُّون الأقواس ويستعدون لرَجْمَةٍ جديدة، وعلى متن زهرة البحار كان ألبوكيريك يصرخ في رجاله بالثبات، ولكن صيحاته راحت سدى، قوادس وطرادات أسطوله راحت تتراجع إلى داخل البحر مبتعدة عن مرمى عدوهم، عمت الفوضى والنيران تنتشر وتلتهم ما تجده في طريقها، أُنزِلت المجاديف وراحت السفن الكبيرة تحاول التراجع، فما فائدة مركب دون ربَّان، كانوا جميعًا على متن زهرة البحار، ولم يجد مساعدوهم حلًّا إلا الانسحاب من مدخل الميناء، وأمام أعينهم شاهدوا بوابة البحر تُفتح ويَهجم فرسان الزاموريين ومُشاتِهم على المرفأ في محاولة للسيطرة عليه.

وما خاف منه الدون قد حلَّ بهم وحدث، كان استدراج كوتينهو إلى الميناء مجرد فخ، والآن هناك عشر سُفن ببحارتهم يتعرضون لهجوم ساحق، كل العيون تعلقت بأمير البحار الذي لم يُهزم يومًا، عليه أن يصدر أمرًا. نادى فيهم بصوت جَهْوَرِي بعكس ما تمنّوا:

- إلى الأمام، جدفوا إلى الأمام.

رددها ميندیز بقوة نفضت منها عروق رقبته، وراح البحارة ينفذون الأمر وكوتينهو يغمغم:

- سنهلك جميعًا.

سَحب ألبوكيريك سيفه واستدار ليضع طرفه على رقبة فرناندو محدثًا إيّاه:

- اصمت أيها الجبان! أنت من أوقعتنا في هذا الموقف، ميندیز ابعد هذا الوغد عن هنا وأخبر الرجال أننا سندخل الميناء؛ لإخراج رجالنا.

اندفعت السفينة الضخمة إلى قلب المعركة في الوقت الذي ظهرت فيه سفن الزاموريين، خمس سفن غليون السريعة ذات ثلاث صوارٍ وأشرعة حريرية خفيفة صبغت بلون أخضر داكن، كانت بالكاد تُرى على وهج النيران المشتعلة على الشاطئ، ولكنها لا تخفى عن عين خبير مثله، يعلم أن هذا النوع من السفن صُنع لمهاجمة الشواني والقوادس الأكبر حجمًا، كان يَخشى أن تكون تلك القوارب ذات حرَّاقات، إن اقتربت أكثر لصار هو ورجاله في قلب جحيم مستعر، وأقيم على جثثهم حفل شواء ضخم، أصدر أوامره بأن تطلق المدفعية قذائفها ناحية الشرق، ولكن الزاموريين كانوا أقرب من مدى مدافع زهرة البحار، وأمام سرعتهم كان الاصطدام حتميًّا، طقطقة الأخشاب وانكسرت صواريّ بعض السفن ومقدماتها، أما سفينة ألبوكيريك فكانت عتية قوية البدن، رُفعت مجاديفها وراح الدون يَلف بكل قوته دفتها ليجعلها تقف حاجزًا جانبيًّا بين سفن الزاموريين وبين مينائهم، كان يُريد لرجاله داخل المرفأ أن يخرجوا، نادى في البحارة بالدفاع عن سفينته والاشتباك مع المهاجمين حتى يمنحوا رفاقهم فرصة للخروج من الكمين المُحكم، فاندفعوا إلى جانبي السفينة، يرمون الرماح ويطلقون

السهام، جِرار زيت مشتعلة ألقيت أيضًا نحو سفن الزاموريين، والذين كانوا شديدي البأس عديمي الشفقة، شجعان مجانين أثاروا الرعب في نفوس البحارة، قساة أشداء يتعلقون بالحبال وينقضون دون هوادة.

ضجيج وصيحات ونيران، دماء وصليل سيوف ودخان، ووسط كل هذا كان على يونس ورفاقه أن يدافعوا عن مقدمة السفينة، وبدلًا من هذا، وقفوا جامدين ممسكين بهراواتهم ورماحهم دون فعل شيء، حثَّهم المسئول عنهم على القتال وهو يسبهم ويصرخ في وجوههم ولكنهم لم يَفعلوا، سيطر عليهم الخوف وعدم الرغبة في القتال، كيف يقتلون أناس يشاركونهم الدين، جميعهم كانوا على يقين بأن الزاموريين أهل كاليكوت هم أصحاب الحق، ومن حسن طالعهم أن موقعهم لم يأتِ إليه أحدٌ، فكَّر يونس في الهرب والقفز إلى الماء وتهامس رفاقه بأنهم في موقف صعب، وبينما كان حب الحياة يراودهم وعزائمهم تخور، رآها مرة أخرى، في خِضَم الفوضى والصيحات صَمت الكون، كانت تركض مهرولة بين الجند نحو الحافة، ولكن في الجانب الخاطئ، قادتها قدماها إلى الجانب الأيمن للسفينة حيث يحاول الزاموريون الصعود، كان عليها القتال والرمح في يدها ثقيل، قلبها يرتجف، وعيناها الزائغتان اصطدمت بنظراته، كان على مسافة بعيدة منها، وبينهم كثيرٌ من الأجساد والأسلحة، حاولت أن تشيح بوجهها، ولكنها عادت إليه مرة أخرى.

اشتد القتال على ظهور السفن ورصيف الميناء، النيران تضيء ساحة الحرب، الغلبة كانت للبرتغاليين حتى انعكس اتجاه الريح، فأتت بما لم يشتهِ ألبوكيريك، شوانٍ ضخمة برزت من رحم ظلمة الليل والبحر، سفن الزاموريين العملاقة جاءت لتقلب كِفة المعركة، منعوا انسحاب بقية أسطول البرتغاليين إلى عَرض البحر، لم يبقَ في المؤخرة سوى سفينتين وزهرة البحار، كانوا عالقين بين أسوار الميناء والمدد الجديد الذي أطبق عليهم، وبدى كل شيء وكأن الزمن يتباطأ. على وهج النيران ومشاعل السفن رأى ألبوكيريك وجه قائد أسطول الزاموريين على متن السفينة المارة بجواره، وبدأ الهجوم.. أُمطرت زهرة البحار بالقذائف التي راحت تطيح بالبحارة والجند، تهشَّمت أجزاء من الحاجز الخشبي للسطح وتناثرت الدماء والأشلاء، ويونس ورفاقه دُفِعوا إلى الحافة، إما أن يقاتلوا وإما أن يهلكوا، وبين الصدمة وصراخ الجرحى اندفع بعض الجند البرتغالي نحوهم ليجبروهم على التقدم والقتال، قُتِل اثنان من الأسرى، وأُمسك بأحدهم وألقي به على سفينة الزاموريين المجاورة، وبدى الأمر أن نهايتهم وشيكة، كانوا بين رماح إخوتهم في الدين وبين سيوف البرتغاليين وجنونهم..

في الحرب، إما أن تكون قاتلًا أو مقتولًا، منتصرًا أو مهزومًا، ولكن ماذا إذا دُفِعت دفعًا للقتال في صف ليس بصفك؟! هل عليك حقًا فعل هذا؟ لتقاتل من أجل حياتك على الآخرين أن يموتوا، فكيف إن كان هؤلاء الآخرون هم أناس يدينون بدينك، إنهم لا يَعرفونك يا يونس، سيقتلونك إن وقعت في أيديهم، والقفز في بحر لُجِّيٍّ يعج بالموتى قد يكون الحل الأسهل لتفادي ذلك القتال، انشغل عقله بإيجاد مهرب وسط الزحام والقتال العنيف، ولكنه رآها مرة أخرى تحاول دفع أحد المهاجمين لتسقطه عن حاجز السفينة، وألبوكيريك ورجاله مشغولون بالقتال، شعر بانقباض قلبه ورفاقه بدءوا الثورة وقتال البرتغاليين، دفع أحدهم جنديًّا برتغاليًّا ليسقط في البحر، وهاج الأسرى مندفعين للقتال، وتلك كانت القشة التي كسرت ظهر الدون، رأى العبيد والأسرى ينقلبون ليصبحوا خنجرًا غادرًا يستقر على

سطح سفينته، وبينما كان رفاق يونس يقاتلون، كان الفتى جامدًا فاغرًا فيه محملقًا في السفينة العملاقة المارَّة إلى جوارهم، وعلى متنها كان أمير البحار.. حسين الكردي.

لعله طيف جسدته مناة النفس، اختلجت أنفاسه وتسارعت، لا يدري أيفرح أم يحزن، أراد أن يُنادي عليه وهَمَّ بفعل هذا، ولكن أحد الأسرى لكزه في صدره صائحًا:

- يونس! عليك القتال معنا!

منحه الرجل سيفًا دافعًا إياه إلى المعركة، وما كان من الفتى إلا أن قاتل ببسالة، وعيناه ترجوان الوصول إلى حاجز سفينة أسرهم، أراد القفز إلى مركب الزاموريين، أراد أن يلتحق بالجانب الصحيح، وليفعل هذا وَجَب عليه القتال برفقة الأسرى والعبيد الآخرين، أما الدون فقد انقض مع رجاله يدافعون عن شَرف سفينتهم التي لوَّثها الغدر، معركة حامية على وهج النيران وفوق الأرضية الزلقة من كثرة الدماء والجثث، كوتينهو أخذ زمرة من رجاله وراحوا يهاجمون بكل ضراوة، وألبوكيريك صار على مقربة من هؤلاء المتمردين، لم يَكن يُقهر، على الرغم من الشيب وتقدم عُمره، كان مُبارزًا لا مثيل له، رشيق الحركة متين الضربة، شجَّ الرءوس وفتك بالرقاب والصدور حتى وقعت عينيه عليها حين طاحت خوذتها.. ضربها أحد المهاجمين بقوة وانفكت عقدة شعرها الثقيل، تلاعبت به الرياح وخُيِّل إليه أنها ليست حقيقة، بدت خائفة وسط الدخان، والرجال منهمكون بالقتال والدفاع عن سفينتهم، لم يكن ليصدق عينيه لولا أنها أزاحت بيدها اللثام عن وجهها، إنها ماتيلدا.. تلك الغبية العنيدة، ما الذي جاء بها إلى هنا، ولأول مرة في حياته وجد أن عليه الاختيار، وكان الأمر صعبًا، الزاموريون يجتاحون سفينته العالقة، الأسرى يفرون وقد وجدوا سبيلهم إلى البحر، راحوا يقفزون تباعًا أمام عينيه إلى حريتهم، كل شيء يتحطم وحُلمه على وشك الغرق، كانت تتفادى الضربات هاربة من الموت حتى قرر الدون إنقاذها، تذكر حديثهما العابر حين سألته عن النُبل يومًا، وكيف يكون الإنسان نبيلًا حتى لو كان متدنيَ النسب، وكان رده حينها: النبيل حقًّا هو من لا يترك جميلة مثلك تتعرض للأذى.

تحرك راكضًا نحوها يسبقه قلبه، اندفع متصديًّا لمطاردها مما منحها فرصة لتحمل سيفًا وتقف خلف ظهره، تخلص بسهولة من ذلك الوغد الذي أراد قتلها، والتَفَتَ إليها صائحًا:

- عودي إلى قُمرتي واختبئي هناك.

لم يكد يتم كلمته حتى هجم عليهما ثلاثة رجال، كانت معركة غير متكافئة، ماتيلدا لا تعرف كيف تقاتل، والشيخ كان ندًّا قويًّا، ولكن الغلبة للكثرة، طعن أحدهم فخذه، وما أن مال بجسده حتى سحب الثاني السيف على صدره، هوى الدون أرضًا.. ولولا ماتيلدا لكان نصلُ الثالث غُرِسَ في صدره، صدت عنه الضربة بسيف مرتَجِفٍ، سقط من يدها فور اصطكاكه بسلاح المُهاجم، نجحت في إنقاذ ألبوكيريك المصاب، ولكن منْ سينقذها من هؤلاء المعتدين؟! أغمضت عينيها في انتظار طعنة لم تأتِ، ووسط صخب المعركة وعلى مقربة منها، سَمِعت صليل سيفين ألتقيَا بشرر، وما لبثت أن أفرجت عن بصرها محملِقة فيما تراه، كان الأسير يونس يقاتل دفاعًا عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

8

الأيام تمضي بنا دون توقُّف، ولا نَملك إلا أن نُسَايرها، فأيَّة محاولة للمقاومة قد تنتهي رحلتنا في الحياة مبكرًا، ننجرف معها ونعلم أن التوقف الوحيد هو لحظة النهاية، والتي تختلف بالضرورة من شخصٍ لآخر، في تلك الليلة منذ ثلاث سنوات، وفي مُحيط ميناء كاليكوت، لم يَمت ألبوكيريك على الرغم من الجروح البالغة، ولم يُغشَ على الدوقة التي غطَّت الدماء ملابسها ووجها، قاتلت على قدر استطاعتها إلى جانب منقذها، القديس يونان -ملاك الرب- كما تُسمِّيه، في ذلك اليوم لم يُرسل الرب حوتًا يبتلعهم، بل أسيرًا لينقذهم ويحررهم من حصار الزاموريين المميت، ربما كان سببًا فيما هُم فيه الآن، فكل شيء تبدَّل منذ تلك اللحظة التي أخذ فيها الشاب سيفًا وراح يدافع عنها، وفعله هذا منح البحارة البرتغاليين قدرًا من الشجاعة ليتمسكوا بحياتهم، استطاع ميندیز أن يتراجع بالسفينة إلى داخل المحيط، وحَمل الفتى الدون المُصاب إلى قُمرته لتُعالج جروحه.. وحين عادوا إلى كوتشي منحته الدوقة حريَّة التنقل في الحصن ومكانًا جديدًا للمبيت، أما ألفونسو دي ألبوكيرك فهدده وتوعده بألا يحاول الهرب، وفرض عليه عدم مغادرة الحصن، كان يَلعن اللحظة التي أنقذه فيها ذلك الفتى، لم يكن يستسيغ فكرة أن الأسطول البرتغالي نجى من السحق والغرق بفضل ذلك الشاب الأسير، ويبدو أن ماتيلدا أصبحت هائمة بحبه وهذا أمرٌ آخر يزعجه، حاول تجنب وجوده فعلى الرغم من كل ما حدث، مازال لا يثق في العرب، وعلى وجه التحديد، الوسيم ذو الندبة وذو العينين البنيَّتين الخاويتين من أي تعبير، يخشاه، وهذا أمر لا يُنكره، لذا تركه وراءهم في حصن كوتشي. يوم رحلوا جميعًا إلى معقلهم الجديد في غوا.

ثلاث سنوات مرَّت على فتح غوا، حصل ألبوكيريك على المدينة بعد معركة شرسة كُلِّلَت بالنصر، كَسر شوكة سلطان بجابور -إسماعيل عادل شاه- فور عودتهم من معركة كاليكوت، وكان هذا هو أفضل رد اعتبار لجميع سلاطين الهند، الذين عرفوا قدره وما يستطيع الدون وجيش الإمبراطورية البرتغالية فعله، قُتل في سبيل دخولها ستة آلاف من جندها وأهلها المدافعين عنها، وأطلق الدون العنان لجيشه من الهندوس بقيادة راما الراجبوتي، ليقوموا بالسلب والنهب، أحرق مساجدها ودخل بجواده المخضبة حوافره بالدماء إلى ديوان حُكمها، غنيمته هذه المرة كانت ثمينة، أغنى مدن ساحل المليبار، ياقوتة عرش سلطنة بجابور أصبحت مستقرة ومركز حكمه، وما لبث أن عَيَّن عليها تابعه الهندوسي المعروف بالقرصان تيموجي، وراح هو يشن الهجمات هنا وهناك ويعود إليها. حتى ذلك اليوم الذي قرر فيه زيارة كوتشي وحصنها، وكأنه اشتاق للبقاء وحيدًا كسابق عهده، كان بحاجة للراحة والبُعد عن ضجيج غوا وزحامها، وفي كوتشي كان اللقاء محتَّمًا.

بدل الميناء زواره وصار الحصن مكافأة تقاعد للدون ميندیز مساعده السابق، الذي استقبله بترحاب بالغ هو والأب دييجو ذو الابتسامة الباردة، لا يتوافق لهما رأي أبدًا، ولكنه بحاجة إليه، فهو ممثل الكنيسة ورجل لا يتورع من فعل أي شيء لمصلحته، المكان تغيَّر وقد انزاحت أشجار الغابة إلى الوراء لتحل مكانها أبنية جديدة، واجهة الكنيسة طُليت بالبياض، الرهُبان كُثر والهنود أيضًا، صار الحصن مجرد قلعة تشرف على مدينة صغيرة وتجمع للهندوس التابعين للتاج البرتغالي، ملاذٌ لكلِّ من ضاقت عليه سبل الحياة تحت راية سلاطين هضبة الدكن المسلمين، وعلى رأسهم سلطان بجابور -إسماعيل عادل شاه- يجتمعون لشنِّ هجوم عليه بدعم من مماليك مصر، عدوٌّ يَحلم بالقضاء عليه،

لم تكسرهم ضربة فرانسيسكو دي ألميدا يوم ديو، مازالوا يتواصلون مع سلاطين الهند على الرغم من قطعه طريق التجارة عليهم، كل هذا جال في خاطره في الأيام الأولى له في الحصن، كان يطمح في خلوة واستراحة لم يحظَ بها في ظل ثرثرة مينديز وسماجة دييجو، ونظرات السجين العربي وصاحبه الشيخ.. التقاهما في أكثر من موضع بالحصن، نمت لحية الشاب الذي أصبح نجَّارًا.. كنا في حديقة القلعة حين سأل مينديز عنه وكيف كان خلال الأعوام الماضية؟! أجابه نائبه بينما يلوك ثمرة تفاح كان قد أخذها من طبق أمامه:

- يونس! إنه مُدجن مسالم يتعامل مع جميع الناس بلطف، ويأبه بأمر صاحبه الهندي الخَرف، أستطيع الاعتماد عليه في كثير من الأمور، ينجزها دون تأفف أو كلل..

- يبدو أنك نسيت بأنه أسيرٌ لدينا.

- سيدي، لماذا لم يهرب يوم كاليكوت مع رفاقه؟ ولماذا؟

ابتلع مينيديز كلماته مع ما تبقى من تفاحته بفعل نظرة الدون، كان يَشعر بالضيق لمجرد تذكر ما حدث، صمت لبرهة قبل أن يسأله مرة أخرى:

- هل تثق به؟

- دون ألفونسو، أبحرت معك على متن زهرة البحار منذ ما يُقارب العشرة أعوام، أعلم أنك لا تثق إلا بنفسك، جميعٍ من عمل معك يعلم ذلك.. حتى نحن المُقربون منك نهابك ونخشى غضبك، نبجِّلك ونوقِّرك خوفًا وطمعًا، ورأينا فِعلك بالدون فرانسيسكو دي ألميدا الذي مات قهرًا نتيجة اختياره، كذلك الفتى.. ما فعل فعلته إلا لأنه يَعلم قدْرك.. وقد اختار الجانب الذي يريد، أولست أنت من قلت يومًا بينما كدنا نغرق قبالة مدينة عَدن أننا من نختار مصيرنا.. وكل منا يعيش حياته وفق رؤيته!! منذ جئت إلى هنا ولم أرَ سوءًا من ذلك الفتى، صار مُدَجَّنًا كهؤلاء البحارة الموريسكيين الذين يملئون سفننا وتعج بهم لشبونة.

- هل صار مسيحيًّا؟!

- لا أعرف.

- كيف لا تعرف؟؟

- لم أره في الكنيسة ولم أرَه يصلي صلاة المسلمين الممنوعة هنا بأمر الأب دييجو.

- وماذا عن ذلك القس؟

- يقوم بواجبه كما يأمره الرب والملك.. يبشر الهندوس بالمسيح وهناك فئة لا بأس بها قبلت بنور الرب واهتدت.. قمنا بتعميدهم في حفل كبير.

تأفف الدون من غباء مساعده، رماه بنظرة خاوية ومضى تجاه كنيسة القديس فرانسيس، كان هنا يومَ وَضع دي ألميدا حجر أساسها، أتى بهما الرب إلى هنا لخدمته، هكذا كانا يتَّفِقان حتى اختلفا، حَزن حين علم بموته على ساحل رأس الرجاء الصالح في رحلة عودته إلى بلادهم، طالما كان يقول الرجل

إنه سيموت مُبحرًا، الملك كان سيعدمه على كل حال، ربما كان الموت أرحم مما كان سيلاقيه لغبائه.. المعروف الوحيد الذي أسداه للإمبراطورية هو نصره على أسطول المماليك في ديو، مات وتلاشت ذُرِّيَته من الوجود، لعل للقدر حكمة في هذا حتى لا يُبتلى العالم بنسل من الأغبياء، محظوظة هي ماتيلدا التي صارت دوقة غوا والتي تحظى برعاية الملكة، أرسل لها كثير من الراهبات والوصيفات، الفتاة صارت تعلم كيف تدير الأمور، كان يَعلم بأن والداها سيزورانها في القريب، كانوا قد أرسلوا رسالة في وقت سابق وقد قرأتها أمامه، سألته بأن يبقى ليستقبلهم معها ولكنه أصرَّ على الرحيل لينتهي به المطاف في حصن كوتشي واقفًا أمام باب كنيستها. شيء ما جعله يَعدل عن الدخول، دار على عَقِبيه وسار مبتعدًا ومن خلفه مينيديز، وأوقفهما صوت الأب دييجو ذي النبرة الهادئة:

- دون ألفونسو! هل طرأ شيء ما جعلك ترحل دون إلقاء التحية!

التفت إليه الرجلان، والقس يستطرد:

- لا أظن أنك جئت لرؤية ما أنجزناه هنا، وبالتأكيد لم تأتِ للاعتراف.

أشار ألبوكيريك إلى مينديز بأن يمضي إلى الحصن، انصاع الرجل ورحل بينما اقترب هو بضع خطوات ناحية الأب دييجو:

- الاعتراف لمن؟؟

- الرب.

- لا أظن أن الرب يأبه إن كانت صلواتي واعترافاتي يجب أن تكون هنا داخل ذلك البناء غير المكتمل، ولكن أخبرني يا دييجو، هل يبارك الرب مكانًا دنِسًا؟!

- ما الذي تقصده يا ألفونسو؟!

- لا أقصد شيئًا، ولكن عليك اختيار كلماتك جيدًا.. أعرفك جيدًا يا دييجو فلا داعي لإثارة غضبي.

- لا أفعل، ولكني في الحقيقة أسأل عن سبب قدومك وعدولك عن الدخول بعد وقوفك طويلًا أمام باب كنيستي.

- أرأيت؟ إنها كنيستك أنت وليست بيت الرب!! أخبرني هل وجدت الخلاص الذي تسعى إليه هنا؟؟ هل استطعت أن تُبشِّر بالرب كما تريد وتهدي هؤلاء الوثنيين إلى ضياء وملكوت المسيح؟! يبدو أنك فشلت في هذا أيضًا. خرجنا من لشبونة معًا ولم أقتنع يومًا بكل أفعالك. أنت هارب من لشبونة وسلطة الكنيسة إلى رغباتك ونزواتك، لم أرد يومًا الحديث معك بهذه الطريقة، ولكن ما يدور الآن هو حوار مؤجَّل بيننا. ممْتَنٌّ لفعلتك ومساندتك إياي قبل سنوات ضد فرانسيسكو دي ألميدا.

- فعلت الصواب وما يُمليه عليَّ ضميري وما هو في صالح الرب والملك، أرسلت إلى دي سكويريا وكنت أعلم أنه مندوب المَلك القادم إلى هنا لنجدتك، أنا من منحتك الحياة مرة أخرى يا ألفونسو.

- أي صواب الذي فعلت؟؟ ما تحركت إلا حين شَعرت أنك في خطر، أما كنت تعي أن دي ألميدا يريد سلطة الكنيسة وقد يقضي هذا بعزلك وعودتك إلى لشبونة! أكان على الفتاة تذكيرك لتَفيق وتعود إلى

رشدك وتنضم إلى الجانب الصحيح، أم إنك خشيت أنها تعرف عنك أكثر مما تخفي أنت؟!

- لا يهمني أمر غانيتك الصغيرة وما تعرف.

ضحك ألبوكيريك وهو ينظر في عيني دييجو قبل أن يجيبه:

- كيف لرجل دين أن يصف نبيلة النسب بهذا الوصف! قلتها لك مرارًا، نحن في جانب واحد، أريدك هنا بقدر ما أريد تحقيق مرادي، ولكنك لا تفعل ما أنت موكَّل به.

- لهذا تركتني في هذا الحصن الكئيب وذهبت أنت لتنقل مقر حكمك إلى غوا.

- نعم، لا أريدك في الجوار، لا أحبذ وجودك في مدينتي، وأعتقد أنك ألفت المكان هنا برفقة ذلك المليح الذي تضاجعه.. هناك في غوا زحام لا يليق بمتحابَيْن مثلكما، كما إن الهنود كُثر والمسلمين كذلك، ولا أريد أن تكون أنت راعي الرب الذي يرونه.

- هل أصبحت كوتشي منفاي إذن؟

- بالتأكيد لا، ولكنك بحاجة للراحة والهدوء.. حين أحتاج منك توصية إلى الكنيسة ستفعلها، وإن أردت مني العون فسأكون حاضرًا، أليس هذا ما اتفقنا عليه أيها المبجل دييجو؟!

بدا المقت في عيني القس، تحسس بضيق رقبته وهو يدير وجهه بعيدًا عن ألبوكيريك الذي تابع:

- لستُ عدوك، وأكنُّ لك مكانة كبيرة يا دييجو، نحن رفقاء في رحلة طويلة، ولا ألومك على عشقك للأمرد الوسيم ولكن فعلك هذا يغضب الرب بالتأكيد، وهو الذي نهى عن الآثام والفواحش ومضاجعة الذكور أليس كذلك؟؟ على كل حال، لا يشغلني ما تفعل، فأنت تعرف أكثر مني في تلك الأمور، ولكن إن وصل الأمر إلى الملك والكاردينال وديوان التحقيق في لشبونة فستكون العواقب وخيمة أليس كذلك؟ أنت هنا في كوتشي تحت نظري ورعايتي، تركت لك مهمة يبدو أنها عسيرة عليك.

قاطعه دييجو:

- ماذا قلت للفتاة؟

- هل يشغلك حقا ما قلتُه لها أو ما تعرفه هي عنك؟ مرَّت سنوات يا رجل ولم تتجاوز هذا فكيف لك أن تتعايش في وجود ذلك الأسير؟ ألم يرك هو الآخر مرةً!

طأطأ دييجو رأسه وقال بصوت خفيض:

- اللعنة عليك يا ألفونسو! لماذا تفعل هذا بي؟ ألم أكن شريكًا لك في كل ما فعلت؟ حربُنا من أجل الرب ضد الكفار، ألم أكن كلمة الرب في حربك وسيفك البتار في قتالك؟ أنسيت ما فعلناه في مسقط وعدن وهرمز؟

- نعم، أذكر كل شيء فعلته وأقدِّر لك هذا، ولكنك خذلتني يوم احتجتك، تركت دي ألميدا يقوم بحبسي ولم تبالي.

- ماذا كنت أفعل حينها أمام رجل فقد وريثه؟ لا شيء يوقف رجلًا يسعى للثأر، لا تلمني، كنت أعزل أمام من يَملك السلاح والجند!

صمتًا لبرهة قبل أن يتابع دييجو:

- إلى أين وصلت فتوحاتك؟

- إلى سواحل الصين وجزر التوابل في جاوة، طردنا التجار العرب من الأنحاء، لقد أبحرنا بعيدًا عن الديار هذه المرة، وهو ما جاء بي إلى هنا، للبحث عن الهدف الحقيقي الذي جئنا من أجله هنا.

- أنسيت حقًّا لماذا جئنا إلى هنا، أم إنك تنوي العودة مرة أخرى نحو بحر العرب وسلطنة المماليك.

أومأ ألبوكيريك:

- مازلت تعرف غايتنا.

- لم أنسَ يومًا حلمنا بالذهاب إلى بيت لحم وأورشليم، ومنذ فترة وأنا أفكر في الأمر.

- اشتقت للإبحار إذن؟

- من عاش ردحًا من الزمن في البحر لا يطيق الثرى تحت قدميه.

- في ماذا تفكر إذن أيها القس البحَّار؟

- الذهاب إلى الحبشة.

عقد الدون حاجبيه الكثَّين مغمغمًا:

- الحبشة؟!

- نعم، إنهم إخوتنا في الدين، وإن نجحنا في التحالف معهم فسنمنع عن سلاطين المماليك مياه النهر كما منعنا سفنهم من الوجود في البحر..

- هذا هو الحديث المناسب، لا أنكر أني أعجب بطريقة تفكيرك، فأنا أنوي العودة بكل الأسطول إلى سواحل العرب والقضاء على كل موانئهم هناك.. وإن أفلح مخططك فسنأتيهم من حيث لا يتوقعون، ولكن ماذا عن الكنيسة هنا؟

- لقد سئمت هذا المكان يا ألفونسو، أريد الرحيل، لقد كنتَ مخطئًا حين أخبرت تلك الفتاة بأمر ما أفعل، العيون تلاحقني وباتوا كلهم يَعلمون.. ذلك الأسير اللعين لا أطيق وجوده هنا.

- لماذا لم تتخلص منه إذن؟؟

- هل أقتله لأصنع منه شهيدًا وبطلًا، لا، لن أفعل، كما أن فتاتك تنعم عليه بحمايتها وتغدق عليها بالعطايا مع السفن القادمة من غوا، صار يعرف لغتنا جيدًا ويتحدث بها مع الجند بطلاقة، بل صارت علاقته وطيدة مع جميع من بالحصن، هل صحيح ما يقوله بعضهم أنه أنقذك من الموت؟!

كلمات دييجو الأخيرة أثارت حُرقة بداخل الدون، حاول ألا يُظهر ذلك، ولكنه كان جليًّا على قسمات وجهه طوال الحديث مع دييجو، كان بحاجة لهذا الحوار منذ زمن، فكلاهما يعرف الآخر جيدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم مشمس على الرغم من الغيوم التي تكدَّست في الأفق البعيد، اكتفت بوجودها فوق المحيط كأنها تخشى القدوم إلى تلك الأنحاء من اليابسة، نهار اعتياديٌّ قضاه يونس برفقة إقبال بمحل عملهم قرب الميناء، الشيخ يجلس مستظلًّا بسور الحصن ليغزل حبالَ ليفِ النخيل كعادته اليومية، أما يونس فقد كان يصقل الأخشاب بمبرد حديدي، على الرغم من الضيق الذي انتابه لرؤية الدون في محيط عملهم، انهمك فيما يَصنع إلى أن غُرست شظية في سبابته، رفع إصبعه أمام عينيه متأملًا نقطة الدماء التي انبثقت، بينما يضغط على إصبعه بقوة، اللون الأحمر القاني، وألم خفيف بعث في نفسه من ذكرى.. سِنَة شرود أفاق فيها على صوت أبيه أيوب:

- ما بكَ يا يونس؟!!

التفت، فلم يجد إلا إقبال بوجهه الأسمر وملامحه الهادئة، لم يكن أيوب هنا، روحه تطوق لرؤياه، كم هو بحاجة لعناقه ودفن وجهه الباكي في صدره الدافئ، لو عَلِم الرجل ما فعله ابنه يوم كاليكوت لتبرَّأ منه، ولكن لو سَمع منه لالتمس له عذرًا، لم يَقصد مساندة أعدائهم والقتال ضد بني أمَّته، طالما قال له أبوه إن المُسلمين أخوة مهما كانت درجاتهم وألوانهم وأعراقهم.. السنوات الثلاث الماضية قضاها في حصن كوتشي وميناؤها الحربي، صار المكان كمدينة برتغالية عسكرية، وهو أحد سكان المكان القدامى الآن، حين عاد من كاليكوت كافأته النبيلة الجميلة، لم يُبالِ بالعطايا التي مُنحت إليه والتي سلبها الجند منه مرة أخرى بعد رحيلها، بأمر من ألبوكيريك.

لا أحد يَعلم ما كان يضمره يونس وما فكَّر فيه على متن زهرة البحار، إلا صاحبه إقبال، حين عاد إلى حظيرة العبيد رأى أن المُحتضر نُفخت فيه روح الحياة مرة أخرى، آثر الفتى الصَمت لليالٍ طويلة، لم يعرف رفيقه أي شيء حدث، ولكن روح الشيخ الفضولية أبت إلا أن يَعرف، وعَلم كلَّ شيء من تصنته على بعض الجنود والسكان، كان يحني ظهره ويسير ممسكًا عصًا يتوكَّأ عليها، يطوف بعد وقت عمله الأرجاء يلملم الحكايات، وفي المساء يعود إلى مكان نومهما ولا يتوقف عن الثرثرة، يتحدث عن كل شيء.. فتوحات ألبوكيرك وانتصاراته على سلاطين هضبة الدكن، سيطرته على غوا وعدة قلاع على ساحل المحيط، تلك الحكايات كانت تُغضب الفتى فيوليه ظهره ويتصنَّع النوم، ولكن إقبال لا يصمت، ينتقل لحكاية أخرى ويَقص عليه:

- قبل أن أعتنق الإسلام، كنت أحب تلك القصص والملاحم الشعرية التي خلَّدت صراع الآلهة وحكاياتهم، قدَّستُهم وفعلت كل ما يَلزم لأكون مؤمنًا أردت الوصول إلى الكارمة والنقاء.. حتى إني فكرت فيما بعد ذلك كنت أريد الوصول لطريقة إحلال روحي بعد الموت في كائن أسمى، كما فعل الآلهة، ولكنهم كانوا بشرًا في أفعالهم وصراعاتهم وما يشتهونه، كانوا يمتلكون قدرات خارقة يسخرونها لما يبتغون، قاتلوا بعضهم بعضًا كما يفعل البشر، اشتهوا نساء البشر وشرعوا أن تحرق الزوجة مع رجلها المتوفى، تنافسوا بأسلحتهم الفريدة وحيواناتهم العجيبة فيما بينهم.

ذات نهار خرجوا إلى الغابة برفقة الجند لتفقد علامات خشبية وضعوها على الطريق، وكان هذا اليوم بعد أشهر من انتصار البرتغاليين ودخولهم إلى غوا، الأمر الذي جعل يُونس حزينًا، لم يقل شيئًا ولكن الشاب صار شاحب الوجه، وبدى أن هناك شيئًا يثقل قلبه أراد إخراجه، فحدثه:

- أتدري يا يونس، هناك من يَقول إن أرض الهند هي مهبط آدم بعد عصيانه الله، أُلقِيَ به من الجنة في السماء إلى الأرض ليتحارب بنُوهُ فيما بينهم، إن كان لآدم أن يختار، فهذا قدر الله، لم تكن معصيته إلا بفعل قدرة منحه الله إيَّاها، وهي الخيرة.. كما اخترتني أنتَ ولم تمضِ إلى حال سبيلك مع لاشين الألفي، نصحتك بالذهاب وأبيْت وكان هذا اختيارك، وفعلت ما فعلت يوم كاليكوت وكان هذا اختيارك.

تعجَّب يونس من قوله وكاد أن يقول شيئًا، ولكن إقبال تابع:

- كلٌّ هنا يَعلم ما صنعت، وهو أمر صعب على فتى نَبَت وشبَّ على حرب البرتغاليين..

- كنت أنوي قتل ألبوكيريك كما قتلت لورنسو دي ألميدا في معركة شاول، لأنهي القتال وينتصر الزاموريون والأمير حسين الكردي، نعم، كان هناك ورأيته هو الآخر مع بعض رفاقنا، كان عليَّ الهرب إليهم، ولكن كل قافز إليهم من سفينتنا كان يُقتل.. كنا في مشهد صعب بين رماح رفاقنا وسيوف البرتغاليين، تحركت تجاهه قاتلًا كل من وقف في طريقي.. لم أبالِ بمن هم الصرعى، ولكن عينيَّ كانت لا تفارقانه، تابعته وتحينت الفرصة للانقضاض عليه من بين الأجساد والدخان، وحين وصلت إليه كان جريحًا يزحف على بطنه مصابًا، ورأيتها وكانت هي من يدافع عنه حين سقط.. شيء بداخلي نأى عن الفتك بألبوكيريك وتحولت بكل جهدي لإنقاذ الفتاة الخائفة.. علَّمني أبي مرة أن الذود عن الضعفاء من المروءة، وتحتم عليَّ فعل هذا، لم أستطع دفع نفسي بعيدًا عنها، خاصة أنها أنقذتني من يد ذلك القسِّ اللعين، وشيء ما بداخلي أخبرني أني سبب ما هي فيه من معاناة، فأنا قاتل خطيبها السابق ومُحطِّم حياتها التي كانت تتمنى، أفقت لأجد أننا في طريقنا إلى كوتشي حاملين الجرحى، ربما كانت هزيمة الدون أمرًا مفرحًا لي حتى لو اعتبرها جميع البحارة انسحابًا، كانوا يكابرون ويفخرون بأنهم استطاعوا النجاة، وتذكرتك وهوَّن هذا عليَّ أمر العودة إلى الأسر.. سألت الله أن تكون بخير، ومضت الأيام وأنا أنكر فعلي هذا كلما رأيت هذا الرجل، أنقذته من الموت ليحتلَّ غوا من بعد ذلك، صار يحكم ساحل الملبار ويفرض سطوته وقرصنته على الملوك والسلاطين، نعم، أنا نادم على هذا وأحاول أن أبرِّئ نفسي ولكني أفشل.. أحاول إقناع عقلي بأني أنقذتها هي وليس هو، ولكني كلما سمعت خبر نصر له لُمت نفسي.

- هون عليك يا يونس، أنت اخترت وقدر الله نافذ، أرفق بحالك ودع عنك هذه الأفكار. وضَعَك الله هنا لسبب وفي خضم هول الحياة عليك ألا تنسى من أنت!

- أنا يونس، ابن نجار القوارب أيوب المصري، سارق وهارب من بيت أهله، حسِب نفسه مجاهدًا، وانتهى به المطاف أسيرًا يعاون أعداء أمَّته.

مال إقبال عليه ونظر في وجهه بعد أن توقَّفَا، هز رأسه نفيًا وهو يحدثه بنبرة لائمة:

- لا، ما رأيت فيك إلا النّبل والخلق الكريم، لقد أحسن أبوك تربيتك يا فتى، فمن يراجع نفسه ويؤنبها ليس إلا شخصًا نقيًّا طيب القلب، إنه ليفخر بك ولعله يباهي الناس بأن له ابنًا يجاهد في سبيل الله في بلاد بعيدة، كذلك إخوتك جميعًا.

- أربع سنوات مضت منذ غرق أسطولنا في ديو، لعلهم نسوا أمري، وظنُّوا أني ميت، هناك آلاف الأميال بيننا؛ ولا أمل في الخروج من هنا، حتى إن نجحت في الهروب فكيف سأصل إليهم؟؟

- إن أردت الرحيل لفعلت. ولكن تذكر أنك من اخترت، وما أثق به أن الله سخَّرك لتأتي إلى هنا لأمر جلَلٍ سيحدث، وستكون شاهدًا عليه.

- الآن أنت تضحكني..

- ما الذي يُضحك في كلامي هذا؟! نعم، فالرؤى لا تكذب.

- إنها أضغاث أحلام أيها الشيخ، كنت قد حكيت لك تلك الرؤيا من زمن بعيد عن الببر، وكنت قد رأيت واحدًا ميتًا يومًا..

- ورأيت أنا ما رأيت، ومازلت أعتقد وأؤمن أنها ليست من باب المصادفة..

- حسنا، سينتهي بنا المطاف طعامًا لأحد هذه السباع إذن.

- الببر حيوان عزيز النفس جميل الهيئة، هو ملك سهول الهند وغاباتها وهِضابها.

قاطعه يونس بفظاظة:

- عفوًا أيها العارف بكل شيء سأقاطعك، ما معنى الببر في المنام؟!

- لا أعلم..

أطبق الفتى فمه محملقًا في وجه الشيخ، وما لبث الاثنان إلا أن انفجرا ضحكًا، صاحبان يستعينان ببعضهما بعضًا على قهر الأيام ومرارتها، جَمَع بينهما الله لسبب ما، هذا ما يؤمن به إقبال الذي نال الدهر من بدنه، صارت حركته بطيئة؛ يلزم التسبيح والصلاة في جوف الليل بعد أن يَفرغ من حكاياته مع يونس الذي كان لثلاثة أعوام يتظاهر بالنوم مبكرًا، ولكنه في الحقيقة حين يأوي إلى نفسه ينكمش بالفراش الخشن محتضنًا حزنه وآلامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السكينة والهدوء هما سَمتُ المكان منذ كان ربوة مرتفعة تطل على خليج لا يُعمر شاطئه إلا النخيل والرمل، وفي كنف حصنه وجدتِ الظلال لها مُستقرًّا في الزوايا الرطبة، والعصافير حطت على الأغصان مترنِّمة بلحن يليق بالمساء، من شرفته العالية وقف الدون يتأمَّل سماء بديعة بثوب من غسق، رحلت الشمس عن المكان تجاه بلاده البعيدة كل البعد عن موطئ قدمه، زهرة البحار تقف على حافة المرفأ ومن فوقها يُحلق نوارس تستعد للمبيت، وفوق برج الحصن الجنوبي راية الإمبراطورية ترقص بنعومة مع الهواء، لولاه لما رُفع هذا العلم على تلك الأرض يومًا، جال في

ذكرياته كثيرًا قبل أن يترك الشرفة ويعود إلى داخل غرفته، كان يَشعر بالضجر كسمكة لا سبيل لخروجها من شِبَاك علقت بها، كذلك كان هو وسط أفكاره المتشابكة، عالقٌ في زحام خططه التي جاء إلى هنا ليدرسها ويحدد خطوته التالية، سيعود إلى غوا بعد أيام وعليه أن يحدد هدفه التالي، ماذا عليه أن يَفعل بعد حملته على ملقا -ماليزيا حاليًا- وجزر المالاويين، استطاع احتلال المدينة بعد هزيمة جيش سلطانها صاحب الأفيال، وأقام فيها جدارًا تشريفيًّا كبيرًا يحمل أسماء كل من شاركوا معه في الحملة، كان يُحب رجاله ويغدق عليهم بكثير من العطايا والهدايا، في غضون سنوات قليلة صار مَلك المحيط الهندي بجزره وسواحله، صك العملات الذهبية والفضية والبرونزية الخاصة بالهند البرتغالية واضعًا اسمه إلى جوار شعار الملك مانويل على أحد وجهيها وعلى الظهر نَقش صليبًا، طرد التجار العرب من ساحل الهند واستتب له الأمر مسيطرًا على تجارة التوابل، أرسل سفنه شرقًا إلى الصين وجاوة وجزر التوابل كما أسماها، وما لبثت أن عادت محملة بالقَرَنْفُل وجَوْز الطِّيب، وكان أكبر انتصار له هو الصلح الذي أبرمه مع سلطان كاليكوت، أما الآخر الذي كان يَملك غوا يومًا، فمازال يناوشه محاولًا استعادة المدينة الكبيرة، أمسك بمصباح زيت واقترب من منضدته وراح يُقلب بصره في الخريطة الكبيرة أمامه، جال بعينيه في فراغ المحيط الشاسع مُمَرِّرًا إصبعه على نقاط تمركز قواته في بحر العرب.. غوا، كوتشي، ملقا، هرمز، مسقط، سوقطرة، ساحل الزَّنج. كل هذا الجزء من الخريطة كان له، تمخُر سفنه عباب البحار مهيْمِنَة على كل شبر فيها، توقفت عيناه عند مدينة طالما حَلم بالسيطرة عليها، عدن، تلك الجنة التي تحكم مدخل المضيق إلى البحر الأحمر، سيكون عليه إرسال وفد إلى ملك الحبشة المسيحي واستمالته كما قال الأب دييجو، فالوقت صار مناسبًا للدخول إلى بحر المماليك، ومن ثم النزول إلى جدة، سيحرق مكة ويحيلها إلى رماد، وستمضي فيالقه عبر الصحراء إلى ضريح نبيِّهم المُزَيَّف، سيأخذ جسده رهينة ليسلموه مدينة الرب، هذا ما وجب عليه فعله، وهذه ستكون خطوته التالية.

جاء الفجر من خلف غابات تغط في الظلال والسكون، وهبَّت الرياح كزفرة عميقة أخيرة لليل راحل، فُتحت نافذة غرفة الدون على مصراعيها ليَعْمُر هواء بارد أركانها مقلقًا نعاسه، وبعين نصف مغمضة لمح الستائر المتطايرة وكان هناك ظل يقف بينها، نهض فزعًا وأخذ يُحملق في الضوء الأرجواني الشحيح للسماء، الهواء يتلاعب بالستائر المخملية ونور الصُبح بالكاد ينير حواف النافذة المفتوحة، تثاءب وهو ينزل قدميه ليلامس الأرضية الحجرية الباردة، تناول قارورة الماء وارتشف بضع رشفات، ارتوى مغرقًا لحيته وصدره، ذهب ليُغلق النافذة، وقبل أن يَفعل مال برأسه خارجها وأخذ يتطلع إلى الأفق ثم تحوَّل بنظره إلى الساحة، كان الفتى هناك يجلس في بقعة جرداء قرب السور القصير المُطِلِّ على الميناء والمحيط الشاسع، النوارس بدأت تحليقها بحثًا عن وجبة إفطار مبكرة، الهواء حمل برودة سرت بأوصاله وهو يتذكر حَمل الفتى له وسط هدير المعركة ووجه ماتيلدا المرتاع، النيران ودويُّ المدافع وصحيات القتال.. أسوار كاليكوت ووجه الفتى الذي أنزله أرضًا وأغلق باب القُمرة خلفهم، والدماء تنزف من جروحه وتخضب لحيته الشيباء، لولا وجود هذا الفتى لكان في عداد الأموات؛ هو من أنقذه وهذا لا يُنكره، ولكنه مازال عدوًّا، رُبما قُلِّمت أظافره واستحب الطوق حول رقبته، كما يقول ميناندز وهذا ما يجعله حائرًا في أمره، ثلاث سنوات مرَّت والفتى أسير هنا في الحصن، مدة كافية لأن يُبدِّل المرء أفكاره ويخضع لأسيره، أبقاه هنا بعيدًا عن ماتيلدا المُعجبة به والتي لم تتوقف عن إرسال الهِبات إليه، أيستطيع الوثوق به أم يبقيه هنا منفيًّا مع

كل من يؤرقه تذكرَهم، كان يلوم نفسه على مجيئه بحثا عن راحة مفقودة، وانتبه موقفَا كل حواسه تجاه الفتى الذي كانت عيناه إلى الشرفة، والتقى بصرهما..

في ظهيرة يوم رحيله المفاجئ عن كوتشي، وقف ألبوكيريك بالمرفأ للتأكد من تخزين المؤن بزهرة البحار، سيبحر في المساء عائدًا إلى غوا، لم يعد يطيق البقاء في المكان أكثر من هذا، جُهز شونة – مركب- أخرى ستحمل المحاصيل وما يحتاجه جنوده في غوا، بينما أعطى أوامره بتجهيز سفينة ثالثة ستبحر خلال أيام إلى الحبشة، سيمنح دييجو ما يريد ليمهد الطريق أمام ولوجه بحر القلزم، كثيرٌ من الأوامر والتوصيات حظى بها ميندیز، وخلال حديث الدون مع مساعده مَر الحَمالون ومن بينهم كان الفتى، توقف ألبوكيريك عن حديثه وأخذ يتطلع إلى الشاب المفتول الجسد وتلك الحمولة على كتفه، كان يَحمل جوالين من الثمار، بينما كان للآخرين جوال، انتشله صوت ميندیز من شروده:

- سيدي، إن ما تفكر فيه سيكون صعبًا، الطريق من ساحل المليبار إلى بحر العرب ومنه إلى سواحل المماليك سيكون بمثابة انتحار.

- ربما نُبحر بعد أسبوعين من الآن، وعليك أن تلحق بي مع رجالك في غوا خلال الأيام القادمة.

- ومن سيبقى هنا ليدير الحصن في رحيلي وعدم وجود الأب دييجو؟

رد ألبوكيريك باقتضاب:

- سأكلف دون جوتا بالأمر.

- كنت حسِبت أني تقاعدت هنا.

- الملك والرب بحاجة إليك يا ميندیز، تلك حملتنا الأسمى وسبيل خُلودنا في هذه الدنيا، سيتذكرنا القاصي والداني إن نجحنا.

- أو نصبح طعامًا للأسماك!

- هل جبنت؟ أنسيت ما خُضناه سابقًا، هل حياة البر تورث الجُبن والخوف!! اللعنة. خيَّبت ظني يا ميندیز وبالتأكيد سيحزن الملك لسماع هذا الأمر!

- الملك!!

- مانويل الأول إمبراطور البرتغال وحامل صليب الرب، هل نسيته أيضًا؟

غمغم ميندیز بكلمات غير مفهومة مما جعل الدون يبتسم ويربت على كتفه مستطردًا:

- أنا بحاجة إليك لتقود هجومي على عدن. كم من الثروات سنجد هناك؟!

- لقد وجدنا هنا موطئ قدم، والهندوس من أهل البلاد قاموا بمساعدتنا، أما في بلاد العرب فليس هناك..

قاطعه ألبوكيريك بإشارة من يده وقال له:

- أحضر هذا الشاب!

من فوره ذهب مينيديز، وعينا ألبوكيريك تتابعه حتى بلغ مقصده، وما لبث أن عاد ومعه الأسير العربي ذو الوجه البارد، ظل معلقًا عينيه على تفاصيله الجامدة، ثم حدثه بعربية بلكنة غريبة، ولكن الكلمات جلية:

- السلام عليكم.

لم يكن غريبًا على مينيديز أن يرى سيده يتحدث العربية، ولكن الأمر جعل يونس ينتبه، لم يَرُد التحية، فتابع ألبوكيريك:

- أليس من الواجب أن ترد التحية؟!

لم يدرِ يونس ما عليه قوله، كان استدعاء الدون له أمرًا في غاية الغرابة، شَرد في كهف ذاكرته المظلم، ودَّ لو انقض على عدوه الشيخ هذا وخنقه بكلتا يديه، وأيقظته لكزة من مينيديز وهو يقول بالبرتغالية:

- اخفض رأسك وأجب الدون ألفونسو.

- لا، مينيديز توقف، ما جئنا به إلى هنا لنعنفه.

ما أن ختم ألبوكيريك كلمته رد يونس ببرتغالية ذات وقع عربي:

- إن لم أكن هنا للتعنيف والإذلال فلماذا أنا هنا؟

أومأ ألبوكيريك برأسه ليونس، أخبره دييجو في لقائهما أن الفتى صار يتقن لغتهم، ولكن لم يتوقع أن يكون جيدًا هكذا في غضون سنوات قليلة، أزاح مينيديز برفق من أمام الفتى محدثًا إيَّاه:

- وهل يفعل أحد هذا منذ عهدت الدوقة بحمايتك؟! ها أنت تعيش هنا منعمًا تأكل من قوت عَملك الذي بلغني أنك تجيده، ويبدو أن الحياة هنا استهوتك، ذكِّرني من أي البلاد أنت وعلى أي أسطول كنت تخدم؟!

باقتضاب أجاب يونس:

- مصر، بحار تحت إمرة الرئيس حسين الكردي أمير بحر مولانا سلطان المسلمين الأشرف أبي النصر قنصوة الغوري.

- هل رأيته يومًا؟!

- من؟!

- سلطانك؟ هل رأيته رأي العين؟

- نعم.

- كيف هو وماذا يقول عنه قومك؟!

- عظيم الهيئة مهيب الطلة، سَمح الخَلق شديد البأس، مملوك شجاع وفارس لا يأبى الضيم، ولا يُكِنّ لأحدٍ غدرًا.

- بالتأكيد تعلم أن أمير البحر الذي كنت تعمل تحت إمرته هو من حال بيننا وبين كاليكوت!! إن كانت صفات سلطانك هكذا، فلا أتعجب من فعل ربان خسر سفينته وكل أسطوله، ربما تتعجب من كلماتي، ولكن ليت كل الأعداء الذين قابلتهم كانوا في مثل إصرار صاحبك حسين الكردي، لعله في طريقه الآن إلى بلادكم وسيصل حتمًا إلى بلاط سلطانك الذي يبني بدوره أسطولًا جديدًا لمهاجمتنا، وفي المقابل أتعجب من كونك لم تَفكر في الهرب خلال الأعوام الماضية على الرغم من يقيني أنك تستطيع الفرار؛ فما الذي يبقيك هنا؟؟ فرَّ ومات كثير من أصحابك.

سؤال طالما أرهق عقل يونس، ولكن إجابته كانت حاضرة دومًا، وكأنه يريد الاقتناع والإيمان بها، ولكنها ليست الحقيقة الكامنة في قلبه، لن يعود إلى مصر مهزومًا، لن يعود ليتوارى عن أعين الناس وأهله، كان غارقًا في بحر تساؤلاته حين انتشله ألبوكيرك بصوته الثخين:

- أيام وستبحر سفينة إلى القرن الإفريقي، إلى الحبشة وتلك أقرب مكان إلى بلادكم، اذهب، لا أريد رؤيتك مرة أخرى.

فغر مينيديز فاه بينما كان يونس يُحملق في وجه الدون، هل يَعي الرجل ما يقول، هل كلماته البرتغالية تعني ما فهمه وما لفظ به حقًّا؟ لم يكن يدري أعليه الفرح أم سيصحو بعد قليل من ذلك الحلم ليزداد قلبه بؤسًا وتحجرًا؟ لم يَعلم ما عليه فعله أو قوله، ولكن الدون أصدر أمره بجملة مقتضبة قبل أن يمضي إلى سبيله:

- مينيديز، تأكد صعوده على متن السفينة مع دييجو وامنحه قوت رحلته.

- ماذا عن صاحبي؟!

سأله يونس بصوت مرتفع وأجاب ألبوكيريك دون أن يلتفت:

- خذه معك إن شئت..

ليلة طويلة قضاها يونس جالسًا أمام المحيط فوق ربوة مُشجرة عالية، رحلت أمام عينيه زهرة البحار وعلى متنها الدون، سأل نفسه بينما تبتلع ظلمة الأفق آخر ما تبقى من زهرة البحار، إطلاق سراحه نُبل أم امتنان، كيف للعدو أن يكون نبيلًا وهو في الأصل سفاحٌ، فتك بالنساء والأطفال والعجائز في غزواته الدموية، ندم يونس على عدم قتله الرجل حين سنحت الفرصة مرة أخرى، على كل حال قُضي الأمر، سيعود إلى بر مصر، ولكن ماذا عن العجوز الهندي مُعلمه إقبال أكبر، يَشعر بالمسئولية تجاهه، تعلم منه كثيرًا وكان زاد صبره في أيام اليأس والحَزن، ولكن ماذا عن رؤية أيوب ودفء حضنه، كم هو بحاجة إلى أن يبكي بين ذراعيه طالبًا العفو، اشتاق لشقيقته ورد ذات الضفائر لعلها صارت كبيرة ناضجة الآن، ويحيى ربما أصبح فقيهًا في الدين كما أراد، وسليمان هل يفتقده توءمه، يَشعر به كطيف حاضر كل مشاهد حياته، كم يفتقد غروره ورجاحة عقله، أما صالح، فآخر ما يعلمه عنه أنه نزل إلى جدة بعد رحيله هو عنها، لعله بقي في أرض الحجاز، سيفتقد الدوقة، ولكن مازال وجهها عالقًا في روحه، أجمل ما رأت عينه من النساء، وهو البتول الذي لم يَقرب أنثى، لا يدري لمَ

تشتاق نفسه للقرب منها؟ ستكون حكاية يحتفظ بها لنفسه في ليالي حياته القادمة في السويس، ربما يُبحر يومًا عائدًا إلى ساحل الهند لتحريره من قبضة البرتغاليين، سيعيد الكرة ثانية بالتأكيد، تذكر حديث الدون حسين الكردي والسلطان الغوري، وصفهما بأنهما رجلَا سعي وعزم، وهكذا يجب أن يكون هو الآخر. في الصباح أخبر إقبالًا بأمر ما حدث، طلب منه الذهاب معه إلى مِصر، ترجاه وألح وكان رد إقبال:

- لن أترك أرضًا خُلِقت من طينها، آدم هبط هنا وتلك الغابات والجبال والمروج إلا جزءًا من أرض الجنة التي جاء منها أبو البشر.

إن كانت له الحرية في أمره وعفو الدون يشمله هو الآخر فسيرحل هو الآخر، ربما إلى مومباي أو مملكة الكجرات مرة أخرى، تمنَّى أن يرى حاكمًا عادلًا يسود الهند ويوحِّد كلمة أهلها أمام الغزاة قبل موته. ظلَّ يتحدث مع يونس طوال النهار. يتسامران وفي عيني الفتى يترقرق دمع فِراق وشيك، وبعد الضحكات والأحاديث الطويلة، أطلق زفرة وصمتَ لبرهة متأمِّلًا الغيوم التي كَست سقف السماء، لم يَعد للزرقة وجود، فقط لون رمادي ثقيل، وأمطرت. مد إقبال يده يتلقف القطرات مبتسمًا:

- مطر الخير يا يونس، ادع؛ أبواب السماء مفتوحة.

وبعد أن تمتمَا بدعاء كلٌّ في سره، وقفَا يلعبان كصبيين لم يبلغا الحُلم تحت المطر، يفرد كل منهما ذراعيه ويدور في مكانه ويضحك، تتهافت على مشهدهما الأعين وانفرجت الثغور بعفوية، ركضَا بعد أن نال من ملابسهما البلل، وفي ليلة لم يتوقف فيها المطر عن الهطول، تحدث إقبال الملتحِف بغطاء أمام النيران التي بعثت الدفء في ركنهما، متذكِّرًا لاشين الألفي وشهور أسرهم معه، تساءل الاثنان حول مصيره، رمى يونس مزيدًا من قطع الخشب إلى النيران وهو يسأل الشيخ:

- ماذا عن السَبُع ورؤاك وما تتنبأ بحدوثه؟

- لم أتنبأ، معاذ الله أن أكون منجمًا.

- ولكنك قلت إن حدثًا جللًا سيحدث وسيتبدل حال هذه الأمة، وأن البربر رمز قوة وأنه سيسود الغابة..

لم يستطع يونس منع نفسه من الضحك، انفجر ضاحكًا، أما الشيخ فق زمَّ شفتيه وقال عاقدًا حاجبيه:

- ماذا تقصد يا يونس؟؟

- لا شيء، فقط تذكرت قولك بأني سأكون إلى جوار ذلك الضاري حين يَحكم، وها أنا سأعود إلى مصر.

- هل تشتاق للعودة؟؟

- بل أرتعد خوفًا، لا أعرف هل أنا في حُلم؟ أو كيف ستكون الحال بعد كل هذه السنين؟

- أينما كان محلك فسيكون المَجد قرينك يا فتى! لديك القدرة على هذا، فأنت تجذب الأنظار أينما حللت، أنت نقيٌّ يا يونس، ولم تلوثك الحياة وشهواتها، فابق كما أنت، ولا تنسَ من أنت وماذا تريد من هذه الحياة!

كلماته كان لها وقع حزين على قلب يونس، لم تكن له الخيرة من أمره هذه المرة، بل فرض عليه الرحيل والعودة من حيث أتى، خلد لنوم هانئٍ على غير عادته طوال سنوات أسره، قضى اليوم التالي داخل مسكنهم بحظيرة العبيد، وبينما يجوب المحيط وسواحل كوتشي إعصار شديد، كانت بداخل يونس عاصفة هوجاء من الذكريات والأفكار، ألمَّ برأسه وكأن يدًا غليظةً تضغط على عقله الذي اختنق، ومر الوقت سريعًا دون أن يَشعر وحانت لحظة الرحيل، وعده مينيديز أنه سَيمنح الهنديَّ حصانًا وزادًا وسيتركه يمضي حيث شاء، ومينيديز بحار يعرف معنى الكلمة حتى إن كان عدوًّا، كذلك كان يونس في نظر البحار البرتغالي المخضرم، فتى شجاع أنقذ أسطول الإمبراطورية بفعله يوم كاليكوت، تصافحَا على الرغم من رتبة الدون مينيديز دي بورخيو، وصعد الأب دييجو إلى متن السفينة وسط تبجيل الحضور، وخلفه شماسه رقيق الخطى، يتبارك البحارة بوجوده معهم، وسؤال أخير يدور في عقل يونس لماذا قد يذهب هذا القس إلى الحبشة؟! وأخيرًا، وجه إقبال مُقبل بلهفة وخطوات واسعة شابَّة على غير عادته في المشي، ما أن اقترب حتى بدت ملامحه الحزينة وصاح بصوت مبحوح:

- ما هكذا تفترق الببور..

- تعلم أني لا أحب لحظات الوداع..

وقفَا أمام بعضهما بعضًا، الهواء يعبث بلحية الهندي الذي قال وهو يهز رأسه الصغير يمينًا ويسارًا:

- أعلم، البشر يقتاتون على الذكريات يا يونس، والأمر لا يتعلق بك هذه المرة، أنا من أردت تلك اللحظة، وددت شكرك على جَميل فعلك معي طوال تلك السنوات، أدعو الله أن يحفظ قلبك ويرشدك إلى سبيلك ويمنحك كل ما تريد، وإن عُدت إلى ساحل الهند وأعلم أنك ستعود يومًا، فقصَّتك على هذه الأرض لم تنتهِ بعد.

أومأ يونس برأسه:

- الوداع القاسي ليس بزادٍ جيد في حياة قصيرة.

- الحياة طويلة كفاية لنتذكَّر قبيحها وجميلها الذي يدوم على الرغم من كل شيء، وكلٌّ مستوفٍ حقَّه من الدنيا، ها أنا أمامك، أضحيتُ حرًّا، سأبدأ من جديد ربما أرحل إلى الصحراء والجبال القاسية شمالًا.

- أين؟

- كابُل، فرغانة.. سأعود لصاحبي هناك أقضي ما تبقى من حياتي تحت الشمس هناك بعد أن نخرت رطوبة البحر عظامي.. وربما أتزوج.

ضحك يونس وربت على كتف إقبال الذي تابع حديثه:

- أذكرني عند والديك وإخوتك يا فتى، وتصدق على روحي في قاهرة المماليك..

وانفجر الدمع سيلًا من مقلتي الشيخ، احتضنه يونس وقبَّل رأسه:

- هكذا لن أصمد وسأبكي أنا الآخر..

أزاحه إقبال:

- الببور لا تبكي، فهي عزيزة النفس، أما أنا فهندي شيخ يأمل أن يصيبك من الحياة خيرها.. هيا اذهب!

تصافحَا وأولاه يونس ظهره ومضى ليصعد إلى السفينة، غادرت الميناء ببطء، ترافقها دعوات في نفْسِ إقبال راح يحملها لبضعة نوارس تتبعها وهي تُحلِّق في زرقة المحيط نحو الغيم البعيد في الأفق، رائحة البحر وهواء الإبحار العليل بدَّدَا كُل ضِيق في صدر يونس، سيلقى الحياة كما هي، ولن يُفكر في القادم كما نصحه صديقه الكهل، سيريح عقله وبدنه حتى يَصل إلى بر مصر. قضى يوم الإبحار الأول نومًا، وفي الليلة الثانية من الإبحار استيقظ على صوت جلبةٍ وضجيج، وقع الأقدام فوق ظهر السفينة جعل قلبه يهوي، الإبحار هادئ في بحر ما بعد العاصفة، صعد إلى السطح مع الراكضين دون أن يسألهم، وبالأعلى كان معظم البحارة يحملون المشاعل وعلى الحافة تجمهر عدد كبير منهم، الأب دييجو يقف قلقًا وشماسه الشاب كذلك، سأل يونس أحد البحارة بالبرتغالية:

- ماذا يجري؟؟

التفت البرتغالي ناحيته وبصق تحت قدمي يونس وأكمل طريقه ليساعد رفاقه، كانوا يسحبون شباك الحبال المتدلية من الحاجز، وسرعان ما بدأ صيدهم النزول على سطح السفينة، غرقى أُنقِذوا.. كانوا برتغاليين، وجوه شاحبة مرهقة، ذهب بدوره إلى الحافة لينظر بينما يُساعد البحارة أحد الصاعدين، وعلى ضوء مشاعل تراقص لهبها بفعل الريح ألقى بصره على القارب المتهالك بالأسفل، مازال يحوي عددًا من الرجال وصوت أحدهم ينادي بالبرتغالية:

- نحن بحارة زهرة البحار..

وكأن يدًا باردة اعتصرت قلبه، حتى من حوله فاجأتهم الجملة التي تزامنت مع رؤيتهم للدون ألفونسو دي ألبوكيريك، اختلطت المشاعر في أوصالهم، أخذتهم رجفة وهم يحدِّقون في وجه نائب الملك قائدهم العظيم منهكًا شاحبَ الوجه مبللَ اللحية حزين الهيئة، لم يُحاول أن يتظاهر بعكس ما يَشعر.. للصمت وقعٌ مهيبٌ في حضور ربان فَقَد سفينته، شاركوه حزنه وصمته وأفسحوا الطريق، سار متحاشيًا النظر في وجوههم نحو درج القُمرة، ومن خلفه الأب دييجو المرتاع يسأله:

- دون ألفونسو، ماذا حدث؟!

ألتفت قبل أن يدخل غرفة الربان وقال:

- غرقت زهرة البحار.

وقع الكلمات كان ثقيلًا على قلبه وعلى مسامع الحضور، تطلع في وجه يونس الواقف بين البحارة، والتقى بصرهما ثم استطرد بصوت جَهْوَرِي:

- هزمنا البحر والريح.. ولكننا أحياء، لم يستسِغ البحر مذاق لحمنا البرتغالي، وما زهرة البحار إلا وردة في بستان إمبراطورياتنا، الرب مُجريها ومُهلكها. أرسلكم الرب لنجدتنا لنُكمل الطريق الذي قدره، نصلِّي ليُنعم على من فقدناهم بالملكوت.

قال الأب دييجو بصوت مرتفع:

- آمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

غوا، بعد عامين.

ألقت شمس ما قبل المغيب الذهبية أثيرها الوضَّاء على الأفق، وبحر تتابع موجه متكسِّرًا بنعومة على امتداد شاطئه، وجوادين يقرقع وقع حوافرهما على الرمل المبلل، يركضان وأشجار نخيل الجوز المائلة شاهدة على سباقهما، الخيل تزفر وتحمحم، والزَّبد يتطاير من شفاهها من فرط سرعتها، وعلى صهوة كل منها فارس بارع ثانٍ عنانَه للفوز في هذا السباق، وقوائم الخيل تدهس الرمل وتخوض في الموج الرقيق بخفة، الجواد الأحمر كان الأسرع والأكثر مرونة هو وفارسته الملثَّمة، أما الجواد الأبيض متين البينة، لكنه فَقَد جُل طاقته مبكرًا، هدأت الخطوات رويدًا ولم تتوقف الأنفاس اللاهثة، مالت الفارسة بجِزعها للأمام لتربت وتحتضن عنق جوادها المتعرق، ومن خلفها جاء الخاسر يشدُّ لجام جواده ذي الصدر العريض محدثًا إيَّاها من خلف لثامه:

- يبدو أن جوادي أثقل في الغداء اليوم.

أزالت ماتيلدا اللثام ليغمر وهجها الجميل دقيق التفاصيل أثير الشمس الغاربة، وحُمرة طفيفة بدت على وجنتها، بينما تقول بأنفاس ما لبثت أن هدأت:

- قلت لك، لن تهزمني أيها العربي.

أنزل يونس لثامه إلى أسفل ذقنه، تبدَّلت هيئته قليلا، ثقلت لحيته وزادته وسامة، وملامحه صارت أكثر جدية وهدوءًا، والندبة على وجهه منحته مهابة، وثغره الباسم كشف عن روحه التي وجدت خلاصها، فتلك هيئة رجل وجدَ عيشًا هنيئًا وراحة بال، قفز عن ظهر جواده تاركًا لجامه وتحرك نحو جوادها متحسسًا جبهته:

- إنه نبيل، وليس كذلك الهجين الذي حظيت به في هذا السباق العادل.

كانا يتحدثان بالبرتغالية التي بدت حروفها معسولة حين ينطق بها، مد يده إليه بنُبل ليساعدها على النزول عن ظهر مطيَّتها، وضعت يدها الرقيقة في راحة يده الخشنة وترجلت على رمل الشاطئ، أفلت يدها ليشرع في خلع السروج عن ظهر الحصانين، ضرب ردف الأول بكفه فركض ولحق به الآخر إلى المياه يقفزان وينثران المياه من حولهما، راقبهما يخوضان بالماء حتى صدريهما بينما خلعت الدوقة حذاءها الجلدي الطويل، الرمل الرطب ناعم الملمس وبرودته تحضن أصابعها وقدمها بينما تسير إلى حافة الشاطئ قائلة بتهكم:

- لماذا لا تكف عن خلق الأعذار والاعتراف بهزيمتك؟!

- لن أجادلكِ أيتها الدوقة، فالسيدة دومًا على حق.

قلدت حركات وجهه بطفولية وكأنها تردد كلماته، فابتسم وعيناه تنهلان من جمالها، كانت السبب الوحيد الذي أبقاه على تلك الأرض، عامان وبضعة أشهر مروا على وجوده في غوا، تذكر كلمات الأب دييجو يوم وجدوا بحارة زهرة البحار الغرقى، الرب له خطط أخرى غير ما ندبره نحن البشر،

والرب وحده من أجرى سفينتهم إلى حيث أنقذوا الدون، والذي بدّل مسار الرحلة من الحبشة إلى غوا، ومنذ ذلك الحين وهو برفقتها، حارسها الخاص وخادمها الحُر فيما يَفعل، مساعدها في تدبير أمور حصن أجودا شديد التحصين ومَعقل الحاكم دون ألفونسو دي ألبوكيريك، لم يَسمح له الرجل بالإبحار مرة أخرى، وبينما كان يخوض هو حروبه في بحر العرب وهرمز كان يونس يُجالس سيدة الحصن دوقة الهند ماتيلدا دي جايا، حَكمت نائبةً لنائب الملك على أرض الهند البرتغالية، حواء البرتغالية كما يسمونها بعد أن رحل عنها وصيفاتها الموريسكيات إلى البرتغال، صار يخدمها الآن عدد غفير من الخادمات الهنود التي زوجتهن للجند البرتغالي، كانت قد عرضت على المَلك مرسومًا يسمح بتزاوج الرجال المسيحيين من هنديات بغرض توطيد حكمهم على تلك الأرض، وكم كانت بحاجة لشخص مثل يونس ليكون عونًا لها، أقنعته بسحر كلماتها المعسولة أن يبقى ويعمل لديها وقَبل ما عرضته، هو الذي أنقذ حياتها بعد فعلتها الغبية بالتسلل إلى سفينة ذاهبة للحرب، رأت فيه نُبلًا وتوسَّمت في عونه لها خيرًا، أغدقت عليه بالمال والعطايا، وصار ابن أيوب المصري ذا شأنٍ ومكانة في بلاطها العامر برجال برتغاليين كانوا أو هنودًا، ومازال راما الراجبوتي يترصده وقد صار قائد خيل القاضي تيموجي، لم يبالِ بهم يونس قط على الرغم من العداء الذي يبدو تجاهه، مرة نعته الراجبوتي «هرَّ السيدة المدلل»، كان يسخر منه سابقًا والآن أصبح في موضعه، لم يتوقف يونس عند سخرية الهندي منه، على كل حال لم يعد يبالي بكل هذا، لقد باع روحه للحياة ورغدها وقربه منها. لم يعد هو ذلك الفتى يونس البحار الأسير، بل يونان كما تُسميه أو العربي كما تُحب أن تناديه.. ولكن ماذا لو علمت أنه قاتل حبيبها السابق وأميرها الموعود لورنسو، كان شاردًا متذكرًا مشهد الدون الشاب والدماء تُغرق صدره بعدما قام بنحره وسط معركة هادرة.

- عربي، هناك شيء في الماء!

ومع آخر حروفها صهلت الخيل فزعة وراحت تركض في المياه نحو الشاطئ، تراجعت ماتيلدا خطوتين للوراء بعفوية، واختُطفت أنظار يونس ناحية ما يحدث، خرج الجوادان من المياه فزعَيْن نحو الأشجار والآجام الكثيفة، ركض يونس أمامها محاولا تهدئتها، بينما كانت ماتيلدا ترى أفضل مشهدٍ في حياتها، انشقت المياه تباعًا لتخرج منها عائلة من الدلافين قافزين إلى الهواء، لَمعةٌ ذهبية سرت على أجسادهم الرمادية، كرروا قفزاتهم البهلوانية مرارًا بالقرب من الشاطئ، وتوقف يونس عما يَفعل وراح يراقب المشهد البديع وماتيلدا تملأ رحابة الدنيا بضحكاتها المهجة، بقيَا على الشاطئ حتى غابت الشمس وأشرقت نجوم ليلة صافية، لم يتحدَّثا كثيرًا في هذا اليوم، على الرغم من الحدث الذي رأوه لأول مرة كانت هذه النزهة على ساحل غوا مختلفة تمامًا عمَّا سبقها.

عادت إلى قصرها في الحصن وأخذ هو الخيل إلى الحظيرة. أكوام القش والعلِّيق ورائحة العطن يذكرانه بمحبسه في كوتشي، لم يُطل البقاء في المكان، قادته قدماه إلى خارج القلعة، المدينة تغط في سكون وظلام كالذي يجتاح نفسه، لم يفلح طوال عامين في دفن ذكرياته وما مرَّ به، وهو الذي اختار البقاء والبدء من جديد، قَلَّب وجهه في السماء على استحياء، إن كان الله قد قدَّر له تلك الحياة وكتب في اللوح كل كان وما سيكون، لم يُصلِّ منذ سنوات، كان يكتفي بالدعوات والأمنيات، كان يزور بين الحين والآخر حيَّ المسلمين في المدينة الكبيرة، غادر كثير من سكانها الحي وتركوا خلفهم منازلهم إما مُغلقة أو استولى على بعضها الهنود، وضعت تماثيل آلهتهم في الطرقات، المساجد هُدمت أو

صارت وكالات لبيع التوابل التي ازدهرت تجارتها بفعل مرسوم أصدره القاضي تيموجي، القرصان صار حاكمًا وقاضيًا، طالما تعجب يونس من تصاريف القدر، على الرغم من الحيرة كان راضيًا بما يفعل، لا يعرف ماذا يُخبِّئ الغد له، فكر كثيرًا في إقبال ورفاقه وإخوته وماتيلدا الجميلة التي أسرت قلبه ولا يستطيع البوح بما في قلبه، كيف لخادم أن يُحب سيدته ويتمناها، لذا كان يزور ماخورًا للهنود كلما سنحت له الفرصة، اعتاد شرب نبيذ الجوز ومضاجعة العاهرات، في البداية أجبر نفسه على التجربة، ولكن بعد ذلك صار الأمر شيئًا اعتياديًّا، يتخيلها بين ذراعيه بينما يطأ أخريات.. يعود إلى الحصن منهك البدن والعقل يتكور على نفسه في فراشه ويغمض عينيه متمنيًا أن يتوقف قلبه عن الخفقان، أو يستيقظ ليجد نفسه مازال أسيرًا في حصن كوتشي أو بيت أبيه في السويس.

«يونس.. كفاك نومًا، استيقظ!»

فتح عينيه ليجد أخاه يحيى واقفًا جوار الفراش، ضياء الشمس يغمر غرفتهم، ظل مستلقيًا ويحيى يحدثه وهو يحمل أوراقه وكتبه:

- لم تستيقظ لصلاة الفجر، قد يغضب أبوك لهذا! والآن عليك أن تصلي الصُبح قبل أن تجلس لتناول الإفطار معنا.

نهض يونس متثاقلًا يجر قدميه، ومازال النوم يمتلك عقله:

- مررنا بيوم عمل شاق بالأمس، سيلتمس العذر لي..

- العمل الشاق لم يمنع صالح من إيقاظ كامل البيت للصلاة، أما أنت فكنت تغُطُّ في نوم عميق.

لم يُجبه يونس، بل خرج إلى الخلاء، قضى حاجته وتوضَّأ وخرج ليجد أباه وإخوته في انتظاره حول أطباق الطعام، ربتت أمه على كتفه:

- يونس، هل أنت بخير؟!

أومأ برأسه مبتسمًا، والصغيرة ورد تصيح:

- تعالَ لنأكل يا يونس..

ربت أبوهم على رأسها وقال بنبرته الهادئة:

- تعالَ يا يونس..

- سأصلي.

صلَّى وعاد ليجدهم في انتظاره، لم يَمسَّ أحدهم رغيف خبز، ولم ينقص طبق قدر غمْسة، أفسح له سُليمان المكان بجواره ليجلس بينه وبين أبيهم الذي سمَى الله وقطع الخُبز ووزعه عليهم ليبدءوا جميعًا تناول الفطور، بيض مسلوق وعسل وجبن وزبدة من صُنع أمهم فاطمة، وجَلست ورد على حجر أمها التي كانت تلوك لُقمتها وعيناها على يونس الواهن، أنهى أبوهم طعامه سريعًا كعادته، نهض وهو يحدث صالح ويونس:

- لا تتأخرا في اللحاق بي، لدينا كثير من العمل اليوم.

قامت فيروزة لتتبع زوجها بعد أن وضعت ورد على الأرض، لحقت به إلى باب المنزل وجاءت بنعاله بعد أن نفضتها، لم ينتظر أن تضعها أرضًا بل أمسك بيديها ليأخذ النعل منها، ربت على ظهر يدها مانحًا إياها ابتسامة بينما حدثته بصوت خفيض:

- دع يونس اليوم في البيت؛ إنه مُتعب.

ألقى نظرة على الفتى الصامت بين إخوته، كانوا يأكلون على راحتهم ويتحدثون مع بعضهم بعضًا وفاطمة تُلح على ورد بأن تأكل، أما هو فكان صامتًا يلوك ما بفمه ببطء، وضع قدميه داخل البُلغة الجلدية، وحدثها وهو يَلف عمامته:

- سأرسله للمنزل بعد العصر ليستريح.

خرج وأغلق الباب خلفه، وما لبثت أن نهضت فاطمة لتحثهم على إنهاء الطعام والذهاب كلٌّ لحال سبيله، سُليمان كان أول من تخطَّى عتبة الدار للذهاب إلى السوق ووكالة الشاهبندر، تبعه يحيى إلى مجلس العلم بالجامع الكبير، وأخذ صالح يحث يونس على اللحاق بأبيهم، الطريق إلى الميناء طويل ممهد بالحصى، تعمره عربتان تجرهما البغال وحمير محملة بأجولة الخضروات والشعير، حدَّثه صالح وذكره بأن العمل شاق هذه الأيام لأن السلطان الغوري قادم إلى القلزم لمتابعته لبناء الأسطول، كانَا قد دخلا إلى الميناء حين تنهد صالح قائلًا:

- سيذهب هو ومماليكه للحرب يومًا، وسننعم نحن بعطلة نحظى فيها بالراحة.

لم يكن يونس يوافقه الرأي، تغلَّب على تعبه وذهب كل يوم إلى العمل طامحًا في اللحظة التي يركب فيها البحر، أراد أن يكون مجاهدًا وكان لأبيه رأي آخر، مازال صغيرًا في عين أيوب، يذكر حين فاتحه في الأمر يوم أمس وهم عائدون من عَملهم:

- أبي، أريد أن التحق بالجند الذاهب إلى جدة.

- من قال إنهم بحاجة إليك؟!

- إنهم يريدون متطوعين للانضمام إلى الأسطول.

- مازلتَ صغيرًا على تلك الأمور..

- يا أبتِ، دومًا تقول لنا أننا كبار كفاية لنعلم الخطأ من الصواب.

- يونس، هذا لا يعني أنك جاهز للذهاب إلى الحرب، لا تدع الحماسة تتملك قلبك الفتِي، لن ألقي بك ولا بأحدٍ من إخوتك إلى مصير مجهول.

- يا أبتِ إنك منحت سُليمان حرية اختيار عَمله وما يحب، وكذلك يحيى وصالح.. أنا لست نجَّارًا، ولا أريد أن أكون كذلك.

- وماذا تريد أنت؟؟

- أن أصير بحارًا..

- القلوب تتقلَّب يا يونس على البرِّ فما بالك حين تصير في البحر، تقلبات موجِه ورهبته قد يبدلان ما في الفؤاد من شجاعة إلى خوف، ومن إقبال إلى إدبار.. إن كان هناك منكم من سيكون محاربًا شجاعًا ومجاهدًا فلن يكون أنت يا يونس! فأنت أقل إخوتك عزمًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم خرج من دار أيوب مستترًا بالليل، علم أنه لن يعود إلى أرض مصر إلا منصورًا، فلا سبيل غير ذلك، وأمسى اليوم يُساند ويخدم أعداء أمَّته، تلك حقيقته الراسخة بداخله، حمل على عاتقه كل تلك الذكريات الثقيلة، لم يستطع التخلص مما علق بروحه، يقضي كل وقته في أعمال الدوقة ورعاية مصالحها في غوا، لم يَعد يتأسَّى على ضعف سلاطين الهند وصراعاتهم فيما بينهم، فمنذ عام تصالح ألبوكيريك مع سلطاني بجابور وكاليكوت، وازدهرت المدينة من جديد تحت راية حُكَّامها الجدد، أساطيل البرتغاليون صارت تُهَيْمن على تجارة التوابل، ثبتَ الدون أركان مُلكه قبل أن يذهب إلى بحر العرب، في الوقت الذي انقطعت أخبار مصر ومماليكها عن مدن الهند، كان يذهب للميناء بين الحين والآخر ليتنسم أخبارهم، ولكن الحال تبدل والناس مع من غلب. يسأل نفسه أَرَكن المماليك للهزيمة مثله وخارت عزائمهم، أم إنهم يبنون أسطولًا للعودة إلى هنا؟! آخر ما سمعه أن ألبوكيريك فشل في دخول البحر الأحمر ولاقى مقاومة شرسة في عدن.

اعتاد الخروج مع ماتيلدا إلى المدينة المزدحمة بصحبة الحرس، وفي المساء يجلسان ويحكى لها عن أرض مصر والحجاز، عن تاريخ أمته وسلاطين المماليك وخلفاء بني العباس، يقص عليها أمجاد الأيوبيين وقاهرة الفاطميين التي زارها مرة واحدة، كانت تُنصت لكل كلمة، يتجادلان بالبرتغالية التي صار يتحدثها بطلاقة، أما كلماتها العربية التي حفظتها من خادماتها الموريسكيات كان لها وقع ساخر في نفسه، سألته عن ذلك اليوم الذي رأى فيه الأب دييجو يضاجع شماسه، تحشَّم يونس وأخبرها أن الأمر مقزز، كيف لرجل أن ينبطح تحت آخر؟! لقد أهلك الله أقوامًا بهذا الفعل المُجرم فوافقته الرأي، وأقرَّت بقولها:

- دييجو آثم ولا يليق برجل دين مثله أن يفعل ما يفعل، ولكنه الحب يا يونس.

- حب؟ أي حبٍّ هذا! إنه حب النفس وملذات مُحرمة، إنه الهوى والميل عن الفطرة، لماذا خلق الله حواء إذن؟؟ ولماذا نخوض في هذا الحديث من الأساس؟!

- أتعرف يا عربي؟ حين جاءنا خبر موته بالحبشة تعجبت، قالوا إن بعوضة لدغته..

تمتم يونس وهو يلتقط حجرًا صغيرًا من الأرض:

- هَلك ونال ما يستحق.

أخذت من يده الحجر بسهولة ويسر، كانت قريبة منه أكثر من أي وقت مضى، لا يعرف كيف تجاوزت المسافة بينهما دون أن يشعر بها، وأثير عطرها الأخَّاذ سلب روحه دفعة واحدة، وانساب

صوتها بنعومة في مجرى سمعه وصولًا إلى قلبه النابض، لم يعِ كل ما قالته، ولكنه أفاق وهي تقول بينما تلقي بالحجر نحو البحر:

- دعنا من دييجو وفتاه اليائس الحزين عليه الذي أرسل إلى لشبونة.. يقولون إنك تخرج إلى شوارع غوا ليلًا.

تعرَّق وجهه، لم يكن يعرف ما عليه قوله، وصوت بعيد بداخله يذكره بأنه مذنب غارق في الخطايا، أبى أن يجهر بمعاصيه.. ماذا عليه أن يقول: أهرب من واقعي المرير إلى لذة تنهك جسدي وعقلي لأخلد للنوم؟! أم إنه يتمناها ويشتهيها، يذكر كيف فسر أخوه يحيى يومًا آيةَ النفس اللوامة، وكيف أن الإنسان يغوص في بحر شهواته وأن من الخير أن يلوم المرء نفسه على ذنوب يقترفها، وأن من المروءة ألا يجهر الناس بمعاصيهم، فوجد نفسه يقول لها:

- أتجول في المدينة والأزقة، صارت مألوفة وقد علمت كثيرًا من خبايا أهلها وقصصهم، أتعرفين؟ رأيت جنازة لرجل هندوسي فتبعتها، وعلى ضوء المشاعل كفنوه بالورد والديباج البرتقالي، طافوا به المدينة وزوجته في أول الصفوف تبكيه بحرقة، وما لبثوا أن ذهبوا إلى معبد لديهم.. ووضعوا نعشه فوق كومة من الأخشاب، ثم جاءوا بزوجته ونامت إلى جوار جثته، وأحرقوهما. صرخات المرأة صمَّت الآذان، خُلع قلبي من فعلهم، كنت أعلم من قبل ورأيتهم يحرقون جثث موتاهم، ولكن ما شاهدته كان صعبَ التصديق، كيف يفعلون هذا؟؟ أهم القيِّمون على الروح وخلاصها، من وكَّلهم بقتل أرواح تتوق للحياة؟!

كانت تعلم أن المسلمين لا يشربون الخمر، وبينما تنصت له صبت كأس له فمد يده وشاركها النبيذ المعتق، كان مختلفًا عن كل الرجال من حولها، وكلما قارنت بينه وبين ألفارو دون قصد يفوز يونس، طالما عاملته بألفة ووُد ومحبة جعلت قلبها الجامد يخفق من جديد، رأت فيه كل خصال النبل والرجولة، أحبَّت وجوده حولها فكان حارسها الأمين وراوي قصص المساء الحزينة، يجلسان معًا أمام البحر ويتسامران، وجدت فيه خير رفيق لامرأة برتغالية وحيدة بأرض الهند، تذكر كيف لامت عليها أمها فرحتها يوم شاهدته ينزل من على السفينة خلف ألبوكيريك، لم تكف يومًا عن ذكره وكيف أنقذها من الموت بكل شجاعة، عَدَلت عن الرحيل مع والديها إلى لشبونة بعد زيارتهم لها والبقاء معها لعام كامل، رحلوا مودعين إيَّاها حاملين خيبةَ أملٍ في ابنتهم، كانوا قد اختاروا لها زوجًا جديدًا، دوق بورتو، ولكنها رفضت بكل جَرْأة، وبقيت لتبني المجد بجوار الدون، أشرفت على بناء الكنائس والمدارس لتعليم البرتغالية، كانت مُبجَّلة كقديسة اختارت أن تترهبن وتنشر تعاليم الرب في تلك الأراضي الجديدة. ذات ليلة قصت على مسامع يونس حكاية حدثت لها في صغرها، أخبرته كيف كانت تغير وتتشاجر مع الفتيات المسلمات، كانت تبغضهن وتصم أذنيها بأصابعها حتى لا تسمع غناءهم وأناشيد لعبهم، ولكن بعد فترة من الزمن صرن صديقاتها.. تذكر بكاءهن يوم فُرض مرسوم يوجب تحول المُدَجَّنين من أهل قشتالة والبرتغال إلى المسيحية، أرغموا على ذلك، منهن لورا التي كانت تخفي دينها وعادت إلى لشبونة لتتزوج قريبها، التي لم تكن تكف الحديث عنه، وهناك من قبلن بالمسيح وتزوجن من مسيحيين وأنجبن أطفالًا عُمِّدوا. في تلك الليلة سألته:

- عربي، هل تقبل أن تكون مسيحيًّا؟!

تطلع إليها دون أن ينطق فأردفت:

- معذرة، ولكني لم أركَ تصلي صلاة المسلمين من قبل، كما إنك لا تبالي بتلك الآلهة التي يسجد لها راما وبنو جلدته.

- لا أفكر في تبديل ديني، ولم يخطر في بالي يومًا أن أفعل هذا، حاشا لله أن أشرك معه تماثيلَ يصنعونها بأيديهم.

- إنها مُجرد تجسيم لشيء أسمَى يبجلونه، أنت لا تفهم الأمر!

- ما أفهمه هو أن الله لا مثيل له؛ فكيف بأناس يتخيَّلون شكله كآدمي ذي جسدٍ أزرق أو أصفر برأس فيل! في الحقيقة إن الله أجمل وأعظم من وثنٍ يحمل في يده قوسًا أو رمحًا أو مصلوبًا على رأسه تاجٌ من شوك.

ضايقتها كلماته وكانت تعلم إلى ماذا يَرمي، شردت وساد الصمت، كانا مختلفين، وكل منهما لديه مبرراته وهُوِيَّة نشأ عليها، على الرغم من ذلك، فقد انصهرت ومُحيت كل الحواجز والألقاب بينهما على مدار عامين، أفاقت على صوته وهو يحدِّثها:

- أتعجب من فعلكم معنا نحن المسلمون، وأفكر كثيرًا أسأُجبر على ترك ديني كأهل الأندلس؟ أم سأطرد كما حل بأهل غوا من المسلمين؟!

- لمَ تقول هذا؟؟

- كلما نظرت لحال الهندوس رأيت معاملتكم معهم مختلفة عمَّا نلاقيه، صار منهم الحكام والقضاة وقادة في جيش إمبراطوريتكم، ونحن ليس لنا سوى الحرب والموت! صديق قديم أخبرني أن الهندوس والمسلمون عاشوا هنا في سلام، لم يبغِ أحدهما على الآخر حتى جاء أسطولكم؛ وسادت الفرقة.

عقدت حاجبيها الجميلين وتمتمت:

- أرى أنك تلومنا على مجيئنا، ولكننا لم نأتِ للحرب بل للاستكشاف والتجارة.

- معذرة سيدتي! ولكن ليس هذا ما حدث! التُّجار لا يطلقون نيران مدافعهم ليغرقوا سفن الحجَّاج المُسالمين.

- لكلِّ حربٍ ضحايا.

- أرأيتِ؟ أنتِ من ذكرتِ الحرب! الدون ألفونسو ومن قبله دي ألميدا سفكوا كثيرًا من الدماء على طول ساحل بلاد العرب والعجم، وفتكوا بمدن آمنة، وأغرقوا أساطيلَ التجارة والحج، ولعل ثرى تلك المدينة التي نقف على أرضها قد شَبع من دماء الأبرياء يوم دخلتْها قواتكم غازيةً.. تسعة آلاف نفْسٍ زهقت من أجل ماذا؟؟ السيطرة على غوا وأخذها عَنْوة من سلطان بيجابور؟!

- تتحدث وكأننا عدوَّان يا عربي!

- نحن كذلك.

صُدِمت من رده، ووَجَمت محملِقةً في وجهه وهي تسأله:

- إن كان هذا رأيك، فلماذا تساعدني إذن؟ ولمَ دافعت عني وحملت الدون يوم أصيب في المعركة؟!

- فعلت ما تحتَّم على أي رجل فعله، مدَّ يد العون إلى امرأة في خطر، هذا ما يمليه عليَّ ديني وما رُبِّيت عليه، يوم خرجنا لحربكم أوصانا السلطان الغوري بألا نقتل شيخًا ولا امرأة ولا طِفْلًا، ألا نقتلع شجرة ولا نهدم صومعة كما أمرنا نبينا.. أنا هنا بمحض إرادتي، أعمل لديكِ فقط. لستِ عدوتي أفرق بينك وبينهم جميعًا، ولا أحمل لكِ في قلبي شيئًا من خذلان أو خيانة.. وهذا بالضرورة لا يعني أن أنسى من أنا ومن هم قومك!

كان جريئًا في حديثه معها، وعلى الرغم من ضيقها منه إلا أنها أحست بصدق كلماته، نبرته حَملت كثيرًا من الألم، وعيناه نبعٌ صافٍ من المعاناة، ما أن توقف عن الحديث حتى باغتته بسؤال لم تفلح في كتمانه:

- هل ستغدر بي، أو بقومي يا يونس؟!

كانت المرة الأولى التي تناديه فيها باسمه هكذا، نظر في عينيها وتمنى لو احتضن وجهها الصغير بين كفيه، ولكنه اكتفى بهز رأسه نفيًا وهو يقول:

- الغدر ليس من شيمي، وإن كان لقتلت الدون ألبوكيريك يوم كان جريحًا مصابًا؛ وقد سنحت لي الفرصة مرارًا لذبحه ولكني لم أفعل.

- أنا وحيدة هنا يا عربي، ليس لي أحدٌ على تلك الأرض سوى الدون.. وأنت.

- لمَ لا تعودي إلى بلادك وتنعمي برخاء العيش وهنائه؟! والدك دوق مُقربٌ من الملك.

- ولمَ لا تعود أنت إلى سلطانك وعائلتك؟؟

لم يُجبها، فضَّل الصمت الذي كسرته هي بدورها:

- نحن هاربان يا عربي، نعم، نهرب من واقع يُفرض علينا، إلى حياة اخترنا خوضها وفق ما نريد وليس كما يريدون، أبي وأمي في لشبونة كل ما يعنيهم هو أن أتزوج نبيل أو دوق لتزداد مكانة عائلتنا مجدًا، أرسلوني هنا حين أرادوا وإن كنت معجبة بالفكرة للهرب منهم ولكنهم في الحقيقة من قاموا بشحني على سفينة إلى زوج مات قبل زفافنا.. لماذا عليَّ العودة إلى البرتغال؟! لأنفِّذ ما يرغبون! ربما كانت لديهم رؤية ووجهة في الأمر ولكني كبيرة كفاية لأقرر ما أريد.. أنت كذلك تخشى العودة مهزومًا مدحورًا، أليس كذلك؟؟

- إننا بعيدان تمام البعد عن بلادنا وأهلنا وما نريد.

اكتفت بإيماءة، وغلفهما الصمت حتى غادرَا المكان. أعدَّت لها خادمتها ميستا حوض الاستحمام بماء دافئ، ووسط البخار المتصاعد غمست ماتيلدا جسدها العاري المرمري في الحوض، استرخت

واضعة رأسها على الحافة، وأغمضت عينيها، استرجعت حديثهما، إنه حاد الطباع كما عهدته منذ أول يوم رأته فيه، كان الأب دييجو يعالج جُرحه وكان صامتًا يحدق فيها، لم تنسَ مظهره حينها ولم تغادرها نظراته الجائعة التي يختلسها.. شيء ما فيه يجعل كل خلجات جسمها تنبض كلما اقتربت منه، لم تكن لتعترف بهذا الأمر حتى لنفسها، جال بخاطرها كل شيء سريعًا، ومرت كل لحظاتها معه بخلدها بينما المياه تفتر وتفتر حتى فتحت عينيها ونهضت، خطت خارج الحوض تقطر ماءً، التقطت منشفة كبيرة وراحت تفرك بها ثنايا عودها الرطب، وقبل أن ترتدي ملابسها تحسست نهديها برِفق، تنهَّدت وهي تتذكر قربها منه وأنفاسه الدافئة التي كانت تضرب رقبتها كريح عاتية حين اقتَربت لتأخذ الحجر منه.. تتمنى أن تلقي بجسدها بين ذراعيه القويين فيحتويها ويضمها إلى صدره، كم تطوق إلى أن تدفن رأسها في كنفه وتمرر وجهها على مسام جسده، كلماته الأخيرة ترددت في جنبات نفسها، فأخذت ترتدي ملابسها وهي تنفض عن رأسها تلك الأفكار، لا يليق أن تُعجب نبيلة برتغالية بأسير عربي، وقد صدق يونس؛ فهي بعيدة كل البُعد عما تريد، حتى إن كان بقربها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقولون إن من يعيش في البحر لا يطيق هجرانه، هواء إبحاره يتغلغل في النَّفْس، وطعم ملوحته يسري مسرَى الدم في الجسد، تألف الروح زرقته المقتبسة من سماء يزورها غيم عابر، يأتي ويرحل دون أن يُلامس سطحه، وتغرق شمس كل نهار في غياهب زرقته الداكنة لتطفو في الصباح التالي ماحية أثر سواد الليل البهيم، الأيام على ظهر السفينة متشابهة إلا من سربٍ طير عابر في الأفق أو حوت ضخم قرر أن يشاركهم المسير، يغطس ويقفز ناثرًا الرذاذ حتى يَملَّ من طول الطريق، غِناء البحارة يهوِّن يمحو خواء الدنيا بعيدة الأركان، وكل بحر لابد أن يكون له شاطئ وإن كان بعيدًا.. ولكن منذ متى وهو يتوق للعودة إلى اليابسة؟! فَقد زهرته منذ عامين، فاز البحر بسفينته العظيمة، ولكن هكذا هي الحياة لا تتوقف لموت أحدٍ أو لفراق من أحببنا، غرقت الفُلك التي بثت الرعب في نفوس العرب والهنود، ونجى مع ثلة من رجاله، أما البقية فصاروا وجبة للأسماك ووحوش البحر، والآن ترقد زهرة البحار في قاع المحيط، وكان يظن أن نهايتهما ستكون معًا حتمًا، ولكن الرب منحه فرصة للحياة والإبحار من جديد، خاض المحيط على ظهر سفينة جديدة، ولم يتوقف يومًا عند ما حدث، فتوحاته بلغت مسامع العامة في لشبونة، ولكن كلما تذكر زهرة البحار نال من قلبه الحَزن، لا ينسى رحلته الأولى على متنها وهي هدية الملك مانويل، وللمرة الثانية في حياته يَشعر بأن ذلك الشاب العربي قُدِّر له أن يكون موجودًا لنجاته، على كل حال، لم يعد يشغله أمر يونس، فهو في خدمة ماتيلدا، أخضعته بجمالها الأخَّاذ وحكمتها التي ورثتها منه، عَلمها طرق التعامل مع البشر ودرجاتهم، وحذَّرها من العربي وألا تأمن له، كان يُفكر في الرسائل التي وصلت له من أعينه في غوا حين وضع خادمه الأطباق ومن بعدها قدر الحساء على المائدة الكبيرة ذات الخشب الرطب، الرائحة شهية والبخار ينبعث من القدر الكبير، تناول ملعقة، وأخذ يرتشف حساء السمك والبصل، تمنى قطعة من خبز ساخن يفوح منها البخار، ولكن ليت كل الأمنيات تتحقق، مازالت أمنيته الوحيدة عصية على التحقيق، أوقفه أسطول المماليك وبحارة اليمن عن التوغل في البحر الأحمر، والوصول إلى مكة محفوف بالهلاك، قضى أكثر من اثني عشر شهرًا مبحرًا يجول ويصول في بحر العرب وخليجهم، استقرَّ في هرمز لبضعة أشهر قبل أن يتجه لفرض السيطرة من جديد على سقطرة، أما حصاره ميناءَ عدن فقد باء بالفشل مرة أخرى، والآن يعود إلى غوا حيث يجب أن يكون نائبًا للملك، ترك المدينة في

عهدة قاضِيه الهندي تيموجي وفي رعاية الدوقة الصغيرة، تلك التي بثت فيه الحياة مرة أخرى بوجودها، من الرائع أن تجد من يدبر الأمور في غيابك، ولكنها امرأة على كل حال، قد تميل وتلهو وتنسى، ولذا يجب عليه العودة إلى مقر حُكمه..

بعد أسابيع من الإبحار بدى الساحل كشريط داكن يفصل الأفق، رؤية خُضرة الأشجار الكثيفة والشاطئ الرملي كان سببًا كافيًا لبعث البهجة في نفوس البحارة، أخذوا يهللون ويربتون على أكتاف بعضهم بعضًا قبل أن يَشرعوا في تجهيز السفينة للرسو، البحر أهدى من الأيام السابقة، وقد ارتدى حلة فيروزية تليق بعودة الدون، قباب غوا الذهبية ومبانيها البيضاء تعكس ضياء الشمس، وألبوكيريك يَملأ عينيه بجمال جنة الرب، شهور قضاها في بحر العرب ذي الشطآن الصخرية والصحاري الجافة، والآن عاد إلى جنته التي وعده الرب بها، رست السفينة وأخذ البحارة ينهون أعمالهم ويقفزون إلى رصيف المرفأ، وبينما انهمك العُمَّال على إفراغ الحمولة خَرج الدون من قمرته وسط عبارات التبجيل، ألقى نظرة خاطفة على الخيول التي تقف في الميناء وقد أعدت له ولقادته، لم تكن ماتيلدا تنتظره كعادتها، فقط بعض الرجال مع تيموجي السمين وراما الراجبوتي، لم يقف كثيرًا عند الأمر ومشى بزهو المنتصر لينزل الدرج، انحنت الرءوس، ووقع خطواته على الأرضية الخشبية يَخلع القلوب، يرفل في عباءة سوداء مطرزة بخيوط حمراء راسمة صليبًا موضع القلب، عبث الريح بريشة قبعته الكبيرة، شيء وحيد اختلف في هيئته، صولجان خشبي مرصع بالياقوت والذهب يتوكأ عليه، لم يستطع إخفاء الأمر الذي ألم به في هرمز، العُمر يتقدم به ولا شيء يوقف آلام مفاصِله، حاول ألا يبدو متألِّمًا وإن كانت مشيته معتدلة.

جاء تيموجي مهرولًا بجسده الممتلئ المرتج داخل عباءة مزركشة ذات إزار عريض يلف بطنه، وعمامته البرتقالية الكبيرة كثمرة يقطين تهتز فوق رأسه، انحنى وقبَّل يد الدون الذي سحبها مشمئزًّا من الشارب الكث، أما راما فكان أكثر رقيًّا ولامس بجبهته ظهر يد الدون الذي سألهما:

- كيف تسير الأمور في غوا؟؟

تبعاه إلى حيث الخيول وراما يجيب:

- كل شيء على ما يرام سيدي الدون، نرجو أن تكون قد وُفِّقت في رحلتك.

أومأ برأسه ولم ينطق بكلمة حتى وصلوا إلى الجياد، كان امتطاء حصان في الماضي أمرًا سهلًا، أحس ألبوكيرك بصعوبة وهو يمتطي جواده، دون أن يتخلى عن صولجانه الذي دفع به أحد الخدم بعيدًا حين حاول مساعدته، وأمام ما رأوه لكز راما جانب تيموجي هامسًا:

- عاد بوجه غير الذي ذهب به.

هز القاضي رأسه نفيًا وجحظت عيناه ليُسكت مساعده الراجبوتي، امتطوا خيولهم من بعد الدون وكذلك فعل قادته ومرافقيه، موكب من الخيول القوية شق طريقه داخل المرفأ المُشبع هواؤه برائحة الأسماك، خرج من البوابة الخشبية إلى المدينة متجهًا إلى حصن أجودا، وأفسح المارة الدرب وهم يشاهدون الدون ذا الملابس السوداء وفرقة الجند المدرع الذي يتبعه، يخشاه جميع الناس وقد بدى مخيفًا كيوم دخل المدينة أول مرة، يذكر كثير منهم كيف خاض الدون نهرًا من دماء تأجج في حمرتها

انعكاس النيران المشتعلة في بوابات المدينة وأبراجها، تبدّل المكان قليلًا عما تركه، السوق المكتظ بالتجار البرتغاليين، ضجَّ بالصيحات والتحيَّات حين مر بهم، وزُكم أنفه برائحة التوابل التي تعبق المكان، وراية الإمبراطورية البرتغالية تخفق عاليًا فوق أحد أبراج حصنه الذي بناه ليكون نواة حكمهم على هذه الأرض، وقبل أن يمر من البوابة العملاقة لمح بطرفه كنيسة سيدة النعمة التي وضع أساسها برفقة ماتيلدا والدون دي سكويريا، البناء الضخم كحصن يُوشك على الانتهاء، ومن حولها تراصَّت البيوت البيضاء، تشبه منازل وأحياء لشبونة، شُرح قلبه وعَبر البوابة ليجدها تقف على باب القصر في انتظاره، توقفت الخيول تباعًا وراح البحارة والقادة يترجلون، والدون يحثُّ جواده ليرتقي درجات السُلم الحجري إلى باب القصر، وَثَبَاتٌ رشيقة وصار الحصان يحمحم ويدور حول نفسه أمام الدوقة المبتهجة والحاشية المنبهرة بفعله ويونس ذي الملامح الباردة والذي يقف في آخر الصف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة لم تكن كأيَّة ليلة مرَّت عليهم في تلك الأرض البعيدة عن موطنهم، مأدبة وحفل صاخب أقامته ماتيلدا لعودة الدون، داخل قصر سلطان بيجابور عادل شاه، تزاحمت الشموع في الثريات المتدلية من الأسقف ذات الزخارف، وأحاط بالمجلس المزدحم أعمدة رخامية ذات تيجان تحمل عقودًا نصف دائرية تتدلَّى منها ستائر حريرية ملوَّنة، وفي منتصف البهو تراصَّت موائد عامرة بصنوف الطعام، دجاج مُحمر ولحم خنزير مشوي وأرز مُتبل، وفواكه مختلف ألوانها ومذاقها، ميندیز يجلس جوار دي سكويريا يتحدثان عن الأوضاع في شرق المحيط وجزر التوابل، وعلى طرف المائدة راما الراجبوتي يتسامر مع القائد البرتغالي روي دي أروخو متفاخرًا بأنه كان في كاليكوت حين وطئت قدم فاسكو دي جاما أرض الهند لأول مرة، واهتم القاضي تيموجي بالطعام، أعجبه لحم الخنزير كثير الدهن، وفي الناحية المقابلة من المائدة كانت ماتيلدا تتحدث بلطف يليق بمكانتها مع الدون ميجيل الذي جاء من هرمز برفقة الدون، قص الرجل على مسامعها بطولة ألبوكيريك ودهاءه، شَرح لها كيف استطاع أن يَهزم أسطولًا فيه أكثر من مائتَيْ سفينة وهو بالكاد يملك سبعة سفن، أخبرها أن الدون طعن مبعوث أمير جزيرة هرمز وهو يقف بين يديه، وأرسل برأسه إلى شاه بلاد فارس إسماعيل الصفوي ليُبرما اتفاقَ تعاونٍ بين الإمبراطوريتين، غرقت هرمز في الدماء في سبيل تحالفهما، ثم جاءه الوقت لفرض هيمنةٍ حقيقية على رأس الخيمة ومسقط وجميع موانئ خليج عمان وبحر العرب في غضون شهور قليلة، عيناها فاضت بالفخر وهي تستمع لحديث الرجل الذي أضاف:

- إن كان لدينا مزيد من الرجال مثل الدون ألفونسو دي ألبوكيريك لحكمنا العالم.. إنه بحار محارب حقيقي استطاع أن يُثَبِّت أقدامنا على سواحل العرب، وأينما أبحرتِ فستجدين قلاعنا وحصوننا مشيدة منيعة ورايتنا فوقها تخفق بالنصر.

أنهى الرجل كلماته معها ونهض رافعًا كأسه محدثًا النبلاء والقادة:

- إن النخب الوحيد الذي يجب أن يشرب الليلة، هو نخب الدون ألفونسو دي ألبوكيريك دوق غوا وأمير البحار وقائد أسطول إمبراطوريتنا المجيدة رعاها الرب.

رفع ألبوكيريك كأسه وكذلك فعل كل الحاضرين وهم يرددون:

- من أجل الدون..

وما أن أنزل الدون كأسه حتى التقت عيناه بعيني ماتيلدا، وكأن فيها بريقًا، يعرف تلك النظرات جيدًا، فما كان منه إلا أن نَهَض مستندًا على عصاه ورفع الكأس، فصمتوا جميعًا وتحدث ألبوكيريك:

- لن يكون نخبي هو الوحيد في تلك الليلة، فكل هذه الانتصارات بفعل إرادتكم أنتم أيضًا، وإن كان هناك من يجب علينا شُكره، فهي الدوقة ماتيلدا دي غايا، نعم، أنتِ يا وردة إمبراطوريتنا. يا سادة، لولا هذه السيدة النبيلة لما كنا هنا في تلك اللحظة نشرب ونمرح في قصر من قصور الخيال، وما كنا رأينا ذلك الحي الجميل الذي يشبه أحياء لشبونة خارج تلك الأسوار، لقد قامت الدوقة بعمل نبيل هنا وبكرم بالغ من ملكنا مانويل الأول الذي لو كان هنا لكرمها بنفسه، دعونا نشرب من أجل الفاتنة المُبجلة ماتيلدا دي جايا.

كانت لحظة آسرة، بكلمات لمست قلبها الرقيق، لم يَكن يونس بالجوار ليسمع تلك الخطبة في حقها، وبينما الصخب والحكايات والغناء يرتفع داخل القصر المنيف، ظلَّ هو جالسًا وحيدًا في شرفة بمحيط البهو تطل على الحديقة، قلب وجهه في النجوم يَعرف مواضعها، عَلَّمه إياها البحار المملوكي أبو العباس وكذلك إبراهيم الصباغ، الأول مات يوم هزيمتهم في ديو والثاني كان حيًّا ويقاتل في كاليكوت، كم يفتقدهم جميعًا وكان قد ظن أنه اعتاد على الفراق، مازالت كلمات إقبال تسري في وجدانه:

- يونس، لا تنسَ من أنت!

وربما كان جلوسه هنا بينما يحتفلون هم بالداخل سببًا في تذكر من هو، ليس منهم ولم يكن يومًا كذلك، هو مجرد خائن لأمته وسلطانه، شريد ارتضى المذَلَّة على العيش بكرامة، كيف لو مات وانتهت حياته وهو في ذلك الوضع، هل سيقبله الله؟!

قبل أيام سَمع عن انتصارات إبراهيم بن إسكندر آلودهي في جبال البنغال، نجح ابن سلطان دلهي في ضم ممالك هندوسية إلى مُلكه، يقولون إنه يجهز حملة لغزو راجبوتانا واستعادتها مرة أخرى، تمنى لو تمكن هذا الرجل من أن يأتي جنوبًا ليوحِّد كامل البلاد ويسترد ما سلبه البرتغاليون من أهلها، كان حاضرًا حين رأى راما الراجبوتي غاضبًا من أخبار النصر تلك، وكظم يونس فرحه ولم يُبدِ ما في نفسه من شماته، تعجب من فعل الحُكام المسلمين الذين تعاهدوا على السلم مع ألبوكيريك، كيف يفعلون هذا وقد سلب الرجل مدنهم وموانئهم وتجارتهم؟! كان يُبرر فعلته لنفسه وما يقوم به من أجل الدوقة، رآها اليوم تركض لتحتضن الشيخ، احتواها بين ذراعيه وقبَّل رأسها، سأل نفسه حينها «هل تغار عليها يا يونس؟»، والآن هي بالداخل مع بني جلدتها وحلفائهم من الهندوس، يمرحون ويتسامرون بينما هو وحيد تحت النجوم مستلقيًا على العُشْب المُبَلَّل.

عَلمه إقبال كثيرًا من الأشياء في سنوات سجنهما، أن الحياة تقسو بقدر ما نلنا من المباهج، إنها لا تستوي يومًا لأحدٍ، وأن الحزن ليس بدائم، وزادُ الحياة يَكمن في القرب من الله، ولكن يونس كان بعيدًا كل البعد ذلك الدرب الذي وصفه الشيخ، سَلبت النجوم اللامعة لُبَّه، صار هائمًا محلِّقًا بين ضيائها وظلمة سمائها بينما نفسه تناجي الله، يَعلم أنه يراه ويسمعه ويعلم ما في قلبه من خوف وحزن، كم هو

ضئيل وضعيف وقليل الحيلة! اغرورقت عيناه بالدمع، وما لبثت أن فاضت دافئة، لم يستطع كبحَ ذلك السَّيْل هذه المرة، وصوت أبيه الهادئ يتردد في عقله:

- لا يُكلِّف الله نفسًا إلا وُسْعها..

كان غارقًا في حزنه ومحاولة ترتيب وتبرير أفكاره. ومضات من ذكريات قريبة كانت عواقب لاختياراته القديمة، يلوم نفسه ويعتب عليها، ولكن ليس بقدر ما يُفكر في سبيل. وأقصر طريق للحياة هو الصدق، أن يكون صادقًا مع نفسه دون أن يتحامل عليها، يدرك أن الله جعل لكل شيء قَدَرًا، ولكن عليه السعي، وإن سعيه سوف يُرَى، وحينها سيبدل الله الحال إلى حال أفضل مما كان يتوقع، تدفَّقت بمجرى دمه قشعريرة وأصيب قلبه برجفة وهو يتذكر صلواته هو وإخوته خلف أبيهم في البيت. رؤى مشوشة لأصوات وأناس وأزقة، وأفاق على صوتها يأتي من خلف ظهره سهمًا نافذًا أعاده إلى واقعه:

- عربي، لماذا لم تَحضر المأدبة؟؟

التفت إليها بعد أن مسح وجهه وأخذ شهيقًا عميقًا:

- في الحقيقة لا أحب الاحتفالات.

تأمَّلت ملامحه على الضوء الشحيح:

- هل هناك شيء يزعجك؟

- لا، فقط كنت مستلقيًا على العشب الرطب بعد يوم عمل شاقٍّ، القصر كان خاليًا وخاويًا منذ رحيل السلطان عادل شاه عن المدينة، وأخذت كثيرًا من الوقت مع العمال لإعداد المأدبة و..

بتر كلماته فجأة وأحسَّت هي بحركة خلفها واستدارت لتتفاجأ بالدون قادمًا، كان يتوكَّأ على عصاه وعيناه مثبتتان على يونس الواقف خلفها، توقف أمامها وحدثها مفلتًا الشاب من بصره:

- يبدو أني آخر المُنضمِّين لكارهي الحفلات.

- كنت بحاجة لبعض الهواء النقي.

- نعم، رأيتك غريبة عن كل من بالداخل، لهذا لا أحب أهل اليابسة، الخمر الرديئة تلعب بعقولهم، ومن ثم يبدأ كل منهم في الاختلاء بخادمة.

أحسَّت بالحرج من كلماته، ولاحظ الشيخ ذلك؛ فبدَّل نبرة صوته وحديثه، ولكن هذه المرة كان يُكلم يونس:

- ماذا عنك أيها العربي؟ لا تحب الحفلات أيضًا؟

- لا أحب الصخب.

أشار ألبوكيريك نحوه وقال بمرح لماتيلدا:

- رأيتِ؟ من اعتاد حياة البحر لا يحب ضجيج البشر، ما كان عليكِ أن تفعلي كل هذا!

أجابته بلطف ولباقة:

- من المُهم أن نقيم الحفلات على شرف انتصاراتك سيدي الدون، ربما تراها أنت ضجيجًا بلا داعٍ، ولكنها مهمة لأن يراك حاشيتك وقوادك، ستصل هذه الأنباء إلى العامة أيضًا، وقد رتَّبت أمرهم فيَ منح الفقراء منهم قليلًا من العطايا باسم الكنيسة.

- أقدر ما تفعلينه هنا يا صغيرتي، عذرًا، رأسي مشوش بعض الشيء.

اقتربت منه وأمسكت بكلتا يديه برفق:

- ما بك؟

- لا شيء.. أفكر كثيرًا هذه الأيام.

- خذ قسطًا من الراحة؛ أنت قادم للتو من رحلة طويلة.

- عليَّ تجهيز حملة والتوغل إلى داخل أرض الهند، سيتوجب علينا تأمين حدودنا شمالًا بطول هضبة الدكن، تحسُّبًا لهجوم هذا المدعو إبراهيم آل لودهي.

- وهل ستنجح سفننا في هذا؟

- ومن قال إننا نتحدث عن حرب بحرية؟! آل لودهي يملكون فيلة وجيشًا كبيرًا من الخيَّالة.

- ألم تقل من قبل إن جيشنا يعتمد في حربه على البحرية، وإن أسطولنا هو الأقوى في كل بحار الأرض.

- نعم، نحن كذلك، ولكني قلت لكِ من قبل وها أنا أذكركِ بأننا أقل عددًا من كل أعدائنا، وما نجحنا فيه خلال العقدين الماضيين هو لأننا نملك العقل إلى جانب قوة سفننا، لقد نجحنا في استمالة الهندوس وتجهيز جيش كبير منهم، ولكن أخبريني ما فائدة راما هذا وتيموجي إلا أن يأكُلَا ويكنِزَا الذهب! حان وقت إرسالهم لمحاربة آل لودهي في الشمال بدلًا عنا، لن أجعل على أرض الهند موطئ قدم لمسلم، سأنكِّل بهم كما فعلنا في حرب غرناطة التي شاركت فيها مع حلفائنا من قِشتالة، إن استطاعوا توحيد البلاد تحت رايتهم فسيكون من العسير علينا البقاء هنا، ولا تحسبي ذلك السلام مع سلطان بيجابور وكاليكوت سيدوم للأبد! إنهم فقط يتحيَّنون الفرصة للانقضاض علينا.

- ولكنك بحاجة للراحة، وللحرب أن تنتظر.

- ولكن أعداءنا لن ينتظروا، عدتُ للتوِّ من بحر عُمان منتصرًا وقد ظفرت بحليف قوي هناك، الشاه إسماعيل الصفوي، سيكون ظهرنا ويدفع عنا خطر العثمانيين، وعدته أن نكون إلى جانبه وسيكون لنا كذلك، إنه مضطر لذلك.

ألقى جُملته الأخيرة وعيناه مثبَّتتان على يونس الصامت، فسألته ماتيلدا:

- وما الذي يجعله مضطرًّا إلى ذلك، فحاله كحال سلطانَيْ بيجابور وكاليكوت.

عاد إليها ببصره وغمغم:

- الشاه مُحاط هو بالأعداء من كل جانب مثلنا تمامًا، يخوض حربًا شرسة غرب مملكته مع العثمانيين، وغربًا مع أمير مغولي شاب يُسمى ظهير الدين..

نطق الاسم بالعربية، ولمعت عينا يونس الذي أشاح بوجهه وكأنه لم يَسمع حديثهما، وتابع ألبوكيريك:

- يقولون إن الرجل استطاع تثبيت مُلكه بعد حروب شتى انتصر فيها على أبناء عمومته الذين انشقوا عن سلطان أبيه، الحرب في كل مكان، يابسة أو ماء.

سألته ببراءة:

- ماذا عن المماليك؟؟

صمت لبرهة وهو ينقل بصره إلى حيث يقف يونس، طال سكوت ألبوكيريك ثم ناداه:

- أنت، أيها العربي، عُد إلى مسكنك، لسنا بحاجة لخدمتك الآن.

لم تجد ماتيلدا ما تقوله وهي تتبادل النظرات مع يونس، رحل الشاب عن المكان وكان على يقين أن الدون أراد أن يُسمعه ما يريد أن يعرفه، وسار ألبوكيريك في الحديقة طالبًا منها أن تسير معه، وبينما كانا يتمشيان تحت ضياء النجوم حدَّثها:

- لا أطمئن لهذا الفتى، ولا أحب وجوده..

- ولكنك أبقيت عليه هنا ولم تدعه يركب البحر مع من ذهبوا إلى الحبشة.

- نعم، فكرت حينها قليلًا، ماذا إن عاد إلى بلاده وحدَّث سلطانه بما سمع ورأى؟؟ خططي حينها كانت توجب بقاءه خاصة أن دييجو والبحارة قد يثرثرون معه والطريق طويلة، كنت أريد قطع النهر من منبعه في الحبشة عن أرض المماليك، على كل حال باء الأمر بالفشل مع موت دييجو.. كما إنك كنت ترغبين في وجوده.

- إنه شخص طيب وقد اعتاد على الأمر.

- الذئاب تتوق للحرية مهما طال أسرها؛ احذري منه، ولا تفرطي في مكانتك كدوقة نبيلة، وهو عربي أسير وخادم لديك، في هرمز قتلت شيخًا يُدْعى العطار، جاء للتفاوض معنا على إخلائنا الجزيرة، وكانت قد وردتني رسالة عنكما، صببت جمَّ غضبي على الرجل وطعنته مرارًا، ما وجب علينا التهاون مع ذلك الشاب، إنه مثل كل العرب، خونة وقتلة كفار يبغضون وجودنا، والرجال هنا قلقين مما قد يحدث بينكما.

- بالتأكيد المُرسل راما.

- أيًّا كان المُرسل، رجاءً كوني بخير! نحن هنا نَبْتة غريبة، وما فعلتِه من تدشين ديوان تفتيش وسن قوانين تمنع بعض طقوس الهندوس كحرق الزوجات بعد ممات أزواجهن، جعل تيموجي وراما والرهبان غاضبين.. ومنحك الإذن لبحارتنا المسيحيين بالزواج من نسائهن جعلت الأمور تتوتر، نحن بحاجة إليهم ولا داعي لإثارة حفيظتهم تجاهنا.

- وماذا في الزواج؟ إنه حق للرجال والنساء كما إنه يتم في كنيستنا ووفق الكتاب المقدس.

- نعم، هذا يثير حنقهم، لأننا بدورنا نحوِّل الزوجات إلى مسيحيَّات، ومن ثم تكون ذريتهم.. لقد قمنا ببناء اللبنة الأولى لمُلكنا على هذه الأرض، وأمامنا كثير العمل والسعي.

سَعل ألبوكيريك مرارًا بعد كلمته الأخيرة، وما أن هدأت عاصفة السعال حتى سألته بقلق:

- أنت مُتعب، هيا لنعُد إلى الحصن.

- مازلتُ قويًّا يا فتاة، ومازال أمامي درب طويل حتى أحقق حُلمي بالوصول إلى بيت المقدس مرورًا بصحراء العرب ومكة.

اشتد السُّعال مرة أخرى وهذه المرة قام بالبصق، ربتت على ظهره بحنان:

- أنت بحاجة للراحة قبل عودتك إلى بحر العرب.

وافقها الرأي بإيماءة، وقال بينما يسير بجوارها وتتأبط هي ذراعه كطفلة في كنف والدها:

- يَبلَى كل شيء مع الزمن، تخور قوانا ونستجدي ما تبقى فينا من عزم لنُكمل الدرب، فسبيل الخلودِ وعْرَة، ولا إكسير أو ترياق يستطيع إيقاف عُمرنا عن التقدم. يصيب الأجساد الوهن والمرض. نهرم ولا نكفُّ عن الحركة حتى إن كنا عاجزين، نُبحر بخيالنا في مستقبل لن نكون جزءًا منه، ويأخذنا حنين إلى من خذولنا وخذلناهم، فلا يشوب ذكراهم لومٌ أو تقريعٌ، كنَّا وكانوا، ولم تبقَ سوى حكاية نرويها أو نتخذها سرًّا إلى القبر، وفي لحظات النهاية يراودنا ذلك الإحساس بالرغبة في البقاء، الحياة جميلة وقد كانت كذلك بكل ما فيها، فمعذرة لأولئك الذين سقطوا منا على درب الحياة طوعًا أو كَرْهًا.

تركته يتحدث حتى أوصلته إلى باب غرفته، أحسَّت أن الشيخ مُثقل بالهموم على غير عادته، وقد عَهِدَتْه لا يعبأ بالهم والحزن بقدر ما يُفكر في آماله وخططه، ولكن هذه المرة غير أيَّة مرة تحدثت فيها معه، ودَّعته بعد أن أخبرها بأنه سيسهر قليلًا ليكمل كتابة مذكراته التي بدأ كتابتها أيام أسْره على يد غريمه دي ألميدا، تمنَّت له ليلة سعيدة وتوجهت إلى جناحها، وبداخلها سؤال لم تسأله للدَون، لماذا عليها أن تخشى يونس؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نهار غائم وشمس باردة، وشوارع غوا مزدحمة كالعادة في هذا الوقت من اليوم، سوق الدواب مُكتظٌّ بالباعة والصيادين الذين أتوا من كل حدب ليبيعوا نفيس ممتلكاتهم، حيوانات وطيور مختلفة ألوانها وأشكالها، جياد وغنم وقردة وطواويس، وحتى جراء الذئاب، هذا بالإضافة للثعابين والفيَلة، مكان صاخب تفوح منه رائحة البراز وبول الحيوانات، مرَّت جماعة من الجند البرتغالي بملابسهم السوداء

وأحذيتهم الجليدة الطويلة غير عابئين بالأرضية الطينية التي يخوض فيها الهندوس حُفاة، أحبَّ يونس زيارة ذلك المكان، حيث كان يرى أعجب المخلوقات، يذكر أول مرة رأى فيها الفيلة كان بالقرب من كوتشي على ضفة النهر، حين همَّ قطيع من الفيلة بمهاجمة أحد حقول الخضروات، أما هنا في غوا فقد رأى كل غريب، ولكنه لم يَجد ما يريد، كان يبحث عن الببور، ولم يكن لها في السوق أثرٌ سوى جلود أتى بها الصيادين لبيعها بباهظ الأثمان، حين سأل بعضهم قالوا إنها شرسة للغاية وصعب أسرها حية، لا تستكين حتى تتحرر وتقتل أحدًا أو تموت، قضى يَومه بين أزقة السوق وحوانيته، واشترى قلادة أعجبته من الخرز والزجاج الملون قبل أن يتخذ دربه إلى سوق التوابل، كان عقله مشغولًا بطريقة تقديم هديته إلى ماتيلدا حين سَمع الخبر. رست إلى الميناء سفينة ملكيَّة قادمة من لشبونة، حث قدميه على الإسراع لرؤية الوافدين الجدد.

في طريقه إلى الميناء، لَمح الدون ومن خلفه ماتيلدا وكثيرٌ من الحاشية البرتغاليين يتجهون إلى مدخل المرفأ، أسرع في مشيته مهرولًا ليلحق بهم، كانت سفينة ضخمة ذكَّرته بزهرة البحار في طرازها وأشرعتها وصواريها الشاهقة، اندَسَّ بين الحاشية محاولًا إظهار نفسه لماتيلدا التي ابتسمت لرؤيته، كانت تقف إلى جانب الدون الذي بدت على وجهه علامات الحيرة والترقب، السفينة تحمل راية المَلك، وما لبث طاقمها أن برز على الحاجز الخشبي لسطحها، تأملهم الدون متفحصًا وجوههم. وضع الجسر الخشبي ليعبر ربان السفينة ومبعوث الملك «لوبو سوارس دي ألبيرغا»، لم يره ألبوكيريك منذ سنوات، آخر مرة كانت في لشبونة داخل أروقة القصر الملكي، ما الذي أتى بهذا الشخص السمج إلى هنا الآن وهو من يُعارض دومًا كل خططه؟!

تقدم دي ألبيرغا ومن خلفه حاشيته وحملة البيارق، كان رجلًا نحيفًا ذا وجهٍ طويل شاحب ولحية حمراء، زيَّن وجهه بابتسامة عريضة أظهرت سنًّا ذهبيّة لامعة بين شفتيه، شيء ما بداخل ماتيلدا جعلها تتوجس من الرجل القادم تجاههم، وقبضت أصابع ألبوكيريك على مقبض عصاه، وعيناه لا تفارقان الرجل الذي ما أن صار على مسافة قريبة منهم حتى حدثهم:

- ها نحن نلتقي مجددًا، دون ألفونسو!

صافحه ألبوكيريك ببرود:

- من الجيد رؤيتك دون سوارس، أتمنى أن تكون قد حظيت برحلة ممتعة.

- إنها طويلة وشاقة، ولكن كل شيء يهون في سبيل الرب والملك.

نقل سوارس بصره إلى ماتيلدا الواقفة إلى جوارهما، ومدَّ يده ليأخذ بيدها بلطف، وانحنى ليطبع قبلةً عليها، وما أن اعتدل حتى تطلَّع فيها:

- لابد أنك الدوقة ماتيلدا ابنة النبيل دي جايا، كنت متشوقًا للقائك سيدتي، وقد سَمعتُ عنكِ كثيرًا فالملكة ونبيلات لشبونة لا يتوقفن عن ذكر ما تفعلينه هنا.

ردت ونبرتها الرقيقة تفيض بالغبطة:

- لا أفعل إلا ما يتوجب عليَّ فعله في سبيل امتنان، نحن مِلك الرب، ونفعل كل شيء وَفْق مشيئته.

أومأ الرجل برأسه وراح يجول بعينيه في وجوه مستقبليه من حاشية ألبوكيريك، وما لبث أن قال:

- هل سنبقى هنا في الميناء؟!

أفسح ألبوكيريك الطريق بيده، فأنشقت الصفوف ليسير الرجلان ومن خلفهما ماتيلدا وبقية النبلاء من مرافقي سوارس. تبع يونس الجَمع بينما كانت أجساد الجند تحول بينه وبين الدوقة، وفي أثناء سيرهما، تحدث الغريمان، بدأ ألبوكيريك فاتحًا الحوار:

- كيف أحوال البلاد؟

- لشبونة ازدادت جمالًا وبهاء، صارت مركزًا لتجارة التوابل والبضائع النفيسة القادمة من مستعمراتنا في الهند الشرقية والغربية، كل شيء على ما يرام هناك، وحالما تعود سترى بالتأكيد ما يسُر قلبك.

- العودة ليست ضمن مخططاتي القريبة.

- لعلها تكون أقرب من خططك أيها الكهل..

ألقى جُملته الغريبة وهو يَمُدُّ يده إلى جيب سترته، أخرج لفافة تحمل خَتم الملك وناولها للبوكريرك الذي سأله:

- ما هذا؟

تلفَّت سوارس حوله وهو يجيبه:

- مرسوم ملكي.

اكتفى بابتسامة باهتة، وأكمل المسير ومن خلفه رجاله، بينما توقَّف ألبوكيريك ليفتح الرسالة، بيد مرتجفة أزال الختم الأحمر وراح يقرأ الرسالة في صمت، توقفت ماتيلدا وكذلك حاشية الدون، رأت تبدل ملامح الدون وهو يقرأ فحوى المرسوم بصمت، لا يعلم كيف يفعل به الملك هذا؟ وهو المخلص له وللتاج، كيف يقوم بعزله من منصبه وهو من صنع مجد الإمبراطورية البرتغالية! مازالت لديه أمنيات وأحلام لم تتحقق، أحس بمرارة الهزيمة كماء حارق يكوي جوفه، ليست بهذه الطريقة يُنَحَّى، ذُل من بعد عزة ورفعة، تمنى لو أن ما قرأه مجرد خديعة وكذب، ولكن توقيع الملك وختمه يعرفهما جيدًا، كان منكسرًا مخذولًا، وحين رفع وجهه إليها كان مكفهرًّا زائغَ البصر، سألته:

- هل هناك أمرٌ ما؟؟

لم يُجِبْها، تحاشى النَّظر إليها، وحين أدار وجهه اصطدم بصره بيونس الواقف على مقربة منه، شَعر بضيق يغزو صدره، وألمٌ يحيق بكل ذرَّة في جسده، هَمَّ بالمشي، ولكن قدميه لم تتحملَا ثقله، خارت قواه وسقط أرضًا، كان الأمر مباغتًا وأثار الخوف في القلوب على البحار الشيخ، كانت ماتيلدا الأقرب إليه، هرعت وجذبت جسده لتقلبه على ظهره، كان جاحظ العينين محملقًا في الخواء فاغرًا فاه، أخذت تهزه بكل قوتها مغمغمة: دون ألفونسو! ما بك؟؟ أجبني أرجوك! ابق معي!

ولكن كل توسلاتها ومحاولاتها باءت بالفشل؛ إذ كيف يجيب الميتَ الأحياءَ، مات من بث الرعب في نفوس أعداء الإمبراطورية، لم يتحمل صدمة عزله بسبب كَبر عمره، الحزن بسط مهجعه بين الحضور، ماتيلدا تبكي وتحضن جسدا خاو من الحياة، والوجوه من حولها واجمة، وعقل يونس المضطرب يستذكر كل لحظة جمعته مع الرجل، لم يكن في قلبه مثقال ذرة من أسى، تمنى لو أنه فاعلها، ولكنه كان أجبن من ملاك الموت الذي لا يستأخر ساعة أو يستقدمها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

القاهرة.

الأمل، هو ما قاده إلى هنا مرَّة أخرى، أسوار القاهرة البعيدة ومآذنها الكثيرة، الأجواء المُغبرَّة وشمس الظهيرة شديدة القيظ، تغمر المدينة الشاسعة ذات الأسوار الممتدة من النهر إلى أحضان جبل، تطل من فوقه أبراج ضخمة لقلعة السلطان، لم يرَها منذ ما يناهز العقد من الزمن، وها هو يعود إلى برِّ مصر المحروسة من جديد، إبِلُ القافلة تسير على مَهلٍ وقد ضمنت الوصول أخيرًا إلى وجهتها بعد رحلة طويلة، ولكنها لم تكن كتلك التي خاضَها، انقبضَ قلبُه وشَرد عقله فيما قد يكون حدث في أثناء غيابِه. سنوات قضاها في البحر قبل تِجواله طويل الأمد في أرض الهند وأحراشها، التنقُّل من مدينة إلى أخرى والهرب الدائم نحو المجهول، على كل حال، ريح القاهرة ونسائمها الدافئة لامسَتْ قلبه، اختلجت مشاعره واضطربت أفكاره، حين غادرها آخر مرة، كان قد كُلِّف بقيادة الأسطول المملوكي للذهاب إلى جدة وتحصينها، تكليفٌ أزعج مماليك السلطان، طالما رأوا فيه شخصًا انتهازيًّا يتحيَّن الفرص ويستغل صداقته للغوري، عشر سنوات مرَّت على غيابه عن أرض مصر، كم يشتاق لاحتضان بناته وزوجته، بما أصاب النسيان عقولهم، كيف دارت بهم الحياة وتقلَّبت! فَضَّل الذهاب إلى القاهرة قبل السويس، كان عليه أن يضع نفسه بين يدي السلطان ويطلب عفوه على تقصيره، خشي أن يعلم المماليك بأمر عودته فيكيدون له؛ لذا أخفى هو ومن بقى من رجاله أمر هويتهم وهم يعبرون بابِ البرقية بالضلع الشرقي لسور المدينة، تأمل وجوه الرجال من حوله، كانوا متوجسين غارقين كلٌّ في بحر أفكاره، بدلتهم الأيام وأخذتهم السنون، الشَّيب طال لحية إبراهيم الصباغ الذي صار نحيفًا هزيل الجسد، ولاشين الألفي الذي التقوه في كاليكوت بعد هربه من الأسر كان خير رفيق في دربهم الطويل، فَقَد عددًا كبيرًا من رجاله خلال تلك الرحلة العجيبة، منهم من هلك في الأحراش والأدغال، ومنهم من يئس وتاه بعد أن فقد عقله بين القرى الهندية، آخرون فضَّلوا البقاء في بلاد آل لودهي في دلهي، وبعضهم بقي في كابُل ليقدم المشورة لأميرها المغولي ظهير الدين، وقتل الصفويون ثلاثة رجال، إن كان له أن يَكتب سيرته يومًا فسيعَنْوِنها برحلة الفَقْد، قلَّة من تمسَّكوا به وبأمل العودة إلى أهليهم في مصر، وثقوا به وكان عليه أن يعيدهم، تبدلوا كثيرًا عما كانوا عليه وكذلك هو، رجال كان البحر هو سبيلهم، اضطروا أن يسيروا آلاف الأميال برًّا، تقلَّبت الفصول عليهم، وبدلت مظهرهم وأثقل كاهلهم، أمطار الهند وكثافة أشجارها ووحوش غاباتها، وبرودة الليل في جبال خرسان المغطاة بالثلوج، عبروا أراضي فارس الوعرة، والهرب من الصفويين إلى بلاد العراق وأنهارها، وأخيرًا، ها هم يسيرون بدروب القاهرة التي لم تعد هي أيضًا كما كانت.

اليأس سَمت الوجوه المصفرة في المدينة المزدحمة، كثير من الحوانيت أغلقت أبوابها لشح البضائع، الدراويش والشحَّاذون ينتشرون بين الأزقة وبالقرب من الخانقات والمدارس، المماليك منتشرون في الأرجاء بدروعهم الجلدية ونظراتهم الحادة، الهَم يجثم على قلوب العامة، وذبلت أشجار الطرق وخلت الوكالات من روادها، تساءلوا فيما بينهم عمَّا حدث للبلاد في أثناء غيابهم، ليست هذه القاهرة التي عهدوها، نزلوا عن دوابهم ومنحوا أجرة السفر إلى قَيِّم القافلة وشكروا له حسن معاملته، ثم اتخذوا طريقهم إلى القلعة، وقبل الوصول إلى بواباتها شاهدوا تجمهرًا للناس، توجه إليهم إبراهيم الصباغ سائلًا عما يدور، أجابه أحد الرجال وهو يتفحصه:

- أغريب أنت عن البلاد؟؟

- نحن قوم كنا على سفر طويل.

- ليتكم ما عدتم، لقد نال البلاء من البلاد، نهب المماليك الجلبان دكاكيننا وبضائعنا، أما يكفي وقف الحال الذي نعاني منه!

- وأين السلطان من كل هذا؟

- في قلعته بالجبل، ماذا سيفعل لهم السلطان وقد هددهم بالنزول عن العرش فداهنوه وبسطوا أيديهم إليه ليبايعوه، وما لبثوا أن نقضوا العهد كعادتهم!

جذب لاشين الألفي صاحبه من ذراعه ليكملا المسير، وعلى بوابة القلعة أوقفهم مُقدم المماليك السلطانية وطلبوا منهم العودة من حيث أتوا، إنهم خاصة السلطان وأشد المماليك بأسًا، مرة أخرى طُلب منهم الرجوع ولكنهم لم يتزحزحوا، تحسست أيدي المماليك مقابض سيوفهم، فتقدم أحد الرجال إلى المُقدم المتحفِّز وحدثه قائلًا بنبرة هادئة:

- أنا الأمير حسين الكردي.. رئيس أسطول القلزم، وأريد مقابلة مولانا السلطان الأشرف قنصوة الغوري.

كان رثَّ الهيئة وسَطَا المشيب سطوته على سواد لحيته الكثة، أخذ المُقدم يتأمله بضع لحظات قبل أن يقول متهكمًا:

- ارحل عن هنا أيها الدرويش قبل أن تقضي نحبك بسجن القلعة.

تدخَّل إبراهيم الصباغ بنبرته الخشنة:

- أما سَمعت الرجل يا هذا! إننا جند السلطان الغوري وبحارة سفنه.

قاطعه المقدم بحدة:

- أي سفن يا هذا؟! الأسطول مازال قيد البناء!

وقبل أن يتفوه حسين الكردي تقدم لاشين الألفي ليقف مواجها المملوك:

- من جلبان السلطان أنت؟؟

دفعه مُقدم المماليك السلطانية جانبًا بينما سَحب رجاله السيوف من أغمادها وهو يصيح في وجه الألفي:

- وما دخلك أيها الوضيع؟ من يُخال عليه تلك الكذبة، انظروا إلى وجوهكم اليائسة المرهقة وقد نال منها الشقاء!

لم يتم الرجل كلمته حتى أمسك حسين الكردي بتلابيبه فجأة خانقًا إياه ودافعًا به إلى الحائط أمام جنده الذاهلين، وحدَّثه بغضب وغلظة:

- إنه الأمير لاشين الألفي، أمير عشرة ورئيس سفينة.

قطع حديثه حين رأى الجند يتحركون نحوه بحذر، فعاد ببصره إلى الرَّجل بين يديه قائلًا:

- أرسل إلى السلطان وأعلمه بأن الأمير حسين الكردي والأمير لاشين الألفي وزمرة من البحارة بالخارج.. وهذا فيصل بيننا.

أفلت الرجل الذي كظم غيظه عاضًّا على شفته السفلى، عدَّل هندامه ونظر في وجوههم:

- حسنا.. وإن لم تكونوا من تدَّعون، فسأطلب من مولانا السلطان ذبحكم كالنعاج وتعليق رءوسكم على باب القلعة.

أشار لأحد جنوده وتحدث معه هامسًا في زاوية بالقرب من البوابة، رحل المملوكي وبقي المقدم وبقية رجاله يحيطون بحسين ورفاقه المبتسمين، طال بقاؤهم وتململهم الأمر الذي جَعل لاشين الألفي يتوجه إلى إحدى جرار الماء وأخذها دون إذن المقدم الذي كاد أن يقتله بعينيه، شَرب حتى ارتوى ومرر الجرة إلى الصباغ وهو يحدث المملوكي:

- شركسي أنت أليس كذلك؟؟

- هل مكتوب على جبهتي أني كما تقول!

- يا رجل هذا مجرد سؤال، حاول أن تكون لطيفًا معنا، فبعد قليل سنعبر تلك البوابة وسيستقبلنا السلطان والأمير سيباي وجان بردي الغزالي و..

توقف لاشين عن إتمام الأسماء لردة فعل المملوكي الضاحك، قهقه الرجل وقال متهكمًا:

- تدعون أنكم أمراء ولا تعلمون أن الأمير سيباي صار واليًا على دمشق والغزالي في حمص منذ سنوات!!

تبادلوا النظرات فيما بينهم في الوقت الذي عاد فيه المملوكي محدِّثًا مقدمه:

- سيدي، دعهم يدخلون، السلطان في انتظارهم.

تجاوزوه متجهين إلى البوابة التي فُتحت لاستقبالهم، كان آخر المارِّين إلى جواره لاشين الألفي الذي ربت على صدر المُقدم وهو يبتسم في وجهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشمس مالت إلى مَغِيبِها، واكتست أرض مصر وجبالها بلون برتقالي شاحب مثل السماء من فوقها، الرايات الصفراء ذات الثلاثة أهله تنساب مع الهواء الساخن، وفوق الأسوار يقف الحرس يتطلعون نحو القاهرة التي بدأ صخبها يَخبو، وفي داخل مقر السلطان الرطب بفعل الأرضيات الرخامية، كان حسين الكردي ورجاله يجلسون أمام تخت السلطان، استمع لهم الغوري باهتمام بينما يُقلب حاجِبه بنكام الرمل، ساعات قضاها معهم وهم يقصون على مسامعه ما حدث، في بداية الأمر تفاجأ

بوجودهم أحياء، حتى إنه نزل عن تحته واحتضن صاحبه القديم الأمير حسين وحدثهم بينما كان يتطلع في وجهه:

- لقد نال الدهر منك يا كردي، واستولى الشيب والتجاعيد على قسماتك.

- ما أريناه في رحلتنا يشيب له الولدان سيدي السلطان.

صلَّوا معه العصر وأعد لهم مأدبة، وحكايتهم الطويلة لم تتوقف، انتصارهم العظيم يوم ديو وهزيمتهم النكراء في ليلة غبراء أمام ساحل شاول، أسرهم وهروبهم وحربهم إلى جوار سلطان الزاموريين في كاليكوت، كل منهم كان لديه جزء من القصة، لاشين الألفي ألقى على مسامعه قصة هربه هو الآخر وكيف التقى برفاقه مرة أخرى، ولكن الأكثر حديثًا كان حسين الكردي، كان أكثرهم أملًا وصبرًا على الرغم من الآلام والإنهاك، سنوات ترحالهم بين مدن الهند من مومباي إلى أحمد أباد ووصولهم إلى دلهي، كيف استضافهم سلطانها إبراهيم بن إسكندر آل لودهي، الذي وفَّر لهم سبل الراحة وحمَّلهم بالهدايا وبالزاد لرحلتهم الطويلة، ولكن الأمور لم تسر كما يجبون، طاردهم الهندوس في إقليم راجبوتانا وقتلوا عددًا منهم وسلبوا ما كان لديهم، ومرة أخرى وجدوا أنفسهم دون زاد ولا مطية تحملهم إلى وجهتهم، هاموا على وجوههم في الصحراء حتى وصلوا إلى أسوار فرغانة، وكان أميرها يخوض حربًا ضد أعمامه، ولكن هذا لم يَمنع من ضيافتهم وتصديق حكايتهم وما حل بهم، بقوا في بلاد الأفغان لسنوات يساعدون الأمير الشاب ظهير الدين الذي يلقِّبونه بالنمر أو كما يطلق عليه بلسان أهل البلاد بابر، بدى الاهتمام على قسمات الغوري وهم يخبرونه أن الأمير المغولي ذا النسب الرفيع الممتد إلى تيمورلنك وجنكيز خان يُقاتل الصفويين أيضًا، وأن الشاه إسماعيل الصفوي صار مُحاصرًا بين مطرقة ابن عثمان سليم الأول وبين سندان نمر المغول الشاب، أخبرهم السلطان بأمر الجواسيس الذي أمسك بهم طومان باي يحملون رسائل إلى ملوك أوروبا.. الصفوي كان يستنهض الصليبيين لمهاجمة مصر والشام، وأضاف حُسين أن الصفوي تحالف مع ألبوكيريك قائد البرتغاليين وساعدهم في غزو ساحل خليج عمان وبحر العرب، ولكن السلطان قهقه ضاحكًا وهو يقول:

- يستحق الصفوي ما ناله على يد سليم في جالديران، لقد هزمهم ابن عثمان هزيمة نكراء ودخل عاصمتهم.

وأضاف طومان باي الجالس بقرب تخت السلطان:

- ليت لنا من الأمر شيئًا لنميل على الصفويين ونعيد بلاد فارس وخراسان إلى أهل السنة المنَكَّل بهم هناك.

أومأ لاشين الألفي برأسه موافقًا وقال حسين الكردي:

- اتَّخذنا دربًا طويلًا استمر لسنوات، ومررنا بأرض الصفويين ونكل بنا أحد ولاتهم وطاردونا، إن أرضهم وعْرَة قاسية ليست كسهول الشام ولا أرض مصر المنبسطة، حربنا القادمة يجب أن تكون هناك على ساحل الهند مرة أخرى، علينا إجلاء البرتغاليين عن قواعدهم على شاطئ المليبار.

أشار إليه السلطان مقاطعًا:

- نعم، صدقت يا حسين، إن حال البلاد صار أسوء بعد توقف تجار الكارمية عن القدوم إلى مصر، الأسواق بارت واضطررنا لرفع الضرائب على المحاصيل والدكاكين لدفع نفقات الحرب وبناء أسطول جديد، وبينما نتحدث الآن يُبنى أسطول جديد في السويس تحت قيادة حليفنا الرئيس سليمان باشا.

غمغم الألفي:

- سليمان باشا من؟؟

رمقه السلطان بنظرة غاضبة وهو يُردف:

- إنه أمير بحر ابن عثمان، سيساعدنا في حربنا ضد البرتغاليين الذين صاروا يملكون البحر ويمنعون عنا البضائع. أمدَّنا سليم بالأخشاب والمدافع قُبَيْل ذهابه لحرب إسماعيل الصفوي.. وها هو قد فرغ من الصفويين، وسيكون خير حليف لنا في حربنا.

ابتهج الرجال لعزيمة السلطان التي لم تفتُر، أخذ يخبرهم كم صار أمر الحُكم شاقًّا عليه، وأنه خلال الأعوام الماضية كان قد قرر التنازل عن عرش السلطنة لما يفعله المماليك من خذلان له والجور على الرعية، الأمر صار لا يُطاق وحال مصر والشام لا يُرضي عدوًا ولا حبيبًا، الأمراء في دمشق وحمص وحلب يتناوشون فيما بينهم، الغزالي وخاير بيك وسيباي أخلص الرجال في جيشه ليسوا على وفاق، والعربان في الحجاز لا يكفُّون عن التذمر، وكذلك فلّاحو مصر هجروا الأراضي من كثرة الضرائب على المحاصيل والغلال، أضاف والحزن يُخيِم على نبرته الرخيمة:

- كل شيء يتهاوى فوق رأسي.. ومماليكي لا يجدون فرصة إلا ويصغرون رقبتي أمام الرعية، إن الله جاء بنا إلى هذه الأرض لحماية الناس والذود عنهم وحفظ بيضة الإسلام، ولكننا تحولنا في نظرهم إلى لصوص ينهبون الدكاكين والوكالات، ما أن تتأخَّر الجامكية وما يدفع لهم يثورون.. والأرض من حولنا تشتعل بالحروب، أجلى الصليبيون أهل الإسلام من الأندلس، ووقعت بعض مدن ساحل المغرب في قبضتهم، وكذلك على ساحل الهند، وتوغَّلوا حتى جدة لولا تصدينا لهم بخليج عدن، أسأل نفسي بين الحين والآخر، لماذا لا نتكاتف كلنا أهل الملة الواحدة ضد أعدائنا بدل النزاع فيما بيننا، ولكن التخت يُغري وفي سبيله سُفك كثيرٌ من الدماء، والتاريخ لن يرحم المتخاذلين.

حلَّ المساء ونال كل منهم ثيابًا جديدة وغُرف ليبيتوا فيها، كانت ليلتهم هانئة مطمئنة وهم في ضيافة السلطان المُثقَل بالهموم، ليلة لم يحظوا بها منذ سنوات، راوَدَ حسين ذلك الشعور بالخدر في جسده المُنهك، ولكن النَوم لم يستطع أن يبسط سطوته على عقله، الشوق صار لهبًا يحرق جوفه، العودة إلى زوجته سلمى وبناته الأربع هو كل همِّه الآن، في الصباح سيطلب من السلطان المغادرة إليهن، وبينما كان يجوب خياله بحصان فكره تذكر أيوب النجار.. وولده يونس وسليمان، سيكون اللقاء مع الرجل حتميًّا إن كان حيًّا، ولكن ماذا عليه أن يخبره؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيام قضاها في القاهرة بصحبة السلطان الغوري وطومان باي، أعجب بنباهة المملوكي الشاب والذي كان دائم الحركة، يستقبل الوفود وينظر في المظالم ويقضي بين الناس، المدينة تعُجُّ بالمظالم وتبعات

الكساد وركود التجارة، حظى لاشين الألفي بعطلة لقى فيها زوجته وأولاده، ودعاه للمجيء لزيارته في بيته القائم بالقرب من الجامع الأزهر، لبَّى طلبه وزاره برفقة إبراهيم الصباغ وبعض الرجال ممن كانوا معه، وهناك تحدثوا عن أمر الإبحار مجددًا، العودة إلى سواحل الهند مرة أخرى وهزيمة البرتغاليين الذي صاروا شوكة في ظهر دولة المماليك، ولكن الألفي قرر البقاء.. لن يُبحر مرة أخرى، سيبقى في خدمة الغوري، ولعل الحظ يبتسم إليه يومًا ويرتقي تخت ولاية، على الحياة أن تكون رغدة لتعوِّضه مشقة السنوات الماضية، أما إبراهيم الصباغ فسيتجه إلى الإسكندرية لملاقاة أهله، وبعدها سيعود إلى القلعة ليكلفه السلطان بما شاء، وحده حسين الكردي كان مشغول البال، وكل ما يريده هو الاطمئنان على زوجته وبناته.

أذن له السلطان بالعودة إلى بيته، وكان طريق وادي الطليمات المُشجر لا نهاية له، مُنِح جوادًا قويًّا أعانه على الطريق حتى بدت منازل القلزم في الأفق، توقف وأخذ يتأمل الوادي الممتد إلى الخليج، ها قد عاد أخيرًا إلى حيث وُلِدَ وترعرع، ذكريات عدة تداخلت لتتشابك داخل عقله، ولكنها لم تمنَعْ ذلك الإحساس بالبهجة، ملأ صدره بنسيم بحر القلزم وحصانه يَمشي على مهل في الطرقات بين المنازل، هنا كان يركض صبيًّا صغيرًا، وهناك في تلك البساتين كان يأخذ قيلولته بعد عمله مع أبيه، نسب شريف ودار دِبَاغة أوصدت أبوابها، تجوَّل بعينيه في الوجوه من حوله، لم يلحظوا وجوده وقد تبدلت ملامحه، ترجل عند عتبة داره ممسكًا بلجام جواده، تَمهل لحظة قبل أن يطرق الباب، وقد نفرت عروق جسده وراح قلبه ينتفض، وقبل أن يفعل، نادت إحدى النسوة كانت تقف بالقرب من باب منزلها بصوت مرتفع:

- أنت! الشاهبندر حسين الكردي! يا سلمى لقد عاد زوجك!

كررتها وانفتح باب الدار، بينما كان ينظر تجاه المرأة، وحين عاد ببصره وجدها تقف أمامه، جميلة وإن ذبُلت واسودَّ أسفل عينيها الكحيلتين من أثر السُّهد والفقد، ارتمت بين ذراعيه وأخذ الدمع يترقرق منسابًا على وجنتيها، قبَّل رأسها واعتصرها في حضنه، ومن خلفها كن بناته، يقفن غير مصدقات ما يريْن، وما لبثوا أن ركضوا إليه واحتوَيْنَه بأذرعهن، تبدلت هيئاتهن، ونضجت أجسادهن، كانوا صغارًا حين تركهن، والآن قد أصبحن جميلات كأمهم التي كانت ترفع رأسها لتنظر في وجهه، وتلامس بأناملها لحيته الشيباء متمتمةً:

- صدق قلبي حين أخبرني بأنك ستعود..

وخارج المنزل صدحت زغرودة من حنجرة السيدة الفضولية، أتت لعتبة الدار وقالت:

- حمدًا لله على سلامة زوجك يا سلمى.

ولكن سَلمى كانت غارقة في تفاصيل زوجها العائد بعد غياب طويل، ردَّت الابنة الكبرى على السيدة وشكرتها ومن ثم أغلقت الباب برفق وأمها وأخواتها يجذبن أبيهن إلى داخل البيت.

بعد الاستقبال والاطمئنان على حالهن، لم تتركه سلمى ليحكي، صاحت في الفتيات ليعددن عشاءً يليق بعودة أبيهن، وقامت هي لتُوقِد الجمْر على قدر ماء بالحمام، جهَّزت ملابسه وعطرتها وذهب إليه، كان يَخلع ملابسه حين دخلت عليه، فأولاها ظهره؛ خجل من مظهره وقد بدى نحيلًا عما كان عليه،

وضعت ما في يدها واحتضنته من الخلف واضعة رأسها على ظهره، كان أطول منها قامة، همست وهي تقبل عنقه:

- اشتقت إليك يا أبا البناتِ.

لم ينادِه أحدٌ سواها بهذه الكُنية، استدار إليها وقبَّل رأسها:

- لا أصدق أني هنا معك يا سلمى! هل هذا حُلم؟!

- إنها حقيقة، وأنت في بيتك يا حبيب القلب.

قالتها وهي تتحسس مواضع جروح وضربات لم تعْهَدْها في جسده واستطردت:

- يبدو أنك قاسيت كثيرًا في هذه السنوات.

- سأقصُّ عليك كل شيء.

- دعنا نزِل عنك عناء السفر وشقاء رحلتك.. سيكون لدينا كثير من الأيام لتقصَّ عليَّ ما حدث لك.

أجلسته على كرسي خشبي وراحت تكيسه بالليف والصابون، صبَّت على رأسه الماء الدافئ، ترك نفسه لها تفعل به ما تشاء، جففت جسده بمنشفه خشِنة، وساعدته في ارتداء ملابسه التي صارت فضفاضة عليه، سبقته في الخروج لترى صنيع الفتيات، أما هو فقد صعد إلى غرفته، كل شيء فيها على حاله وكأنه فارقها بالأمس، ألقى جسده على الفراش متنهدًا، أخيرًا، صار في بيته، ومرت كل مشاهد رحلته أمام عينه، ضاق صدره فنهض متوجهًا إلى المرآة، لم يتعرف إلى حاله لوهلة، تحسس وجهه ولحيته ثم توجه إلى صندوق أغراضه، تردد في فتحه وما لبث أن فعل، مقصه ومشط العاج الخاص به وقنينه عطر، مسبحة أبيه والخواتم الخاصة به.. سلمى الأصيلة لم تفرط في شيء، أخذ المقص وأخذ يشذب لحيته الكثَّة، وما أن انتهى حتى تطيَّب بينما باب الغرفة يطرُق، فتحه ليجد كريمته الكُبرى نوران، ابتسم لها وهي تقول:

- العشاء جاهز يا أبي..

أومأ لها برأسه ونزل الدَّرج يتقدمها سائلًا محدثًا إيَّاها:

- كَبرتِ يا نوران، صرت عروسًا وقد كنت أحسب أنكِ تزوجتِ.

- رفضت أمي كل من تقدم لخطبتنا.

تعجب من فعل زوجته وهو يتأملها تضع الأطباق هي وسارة والصغيرة درة، جلس وتحلقوا حول المائدة العامرة، غمزت سارة لنوران من مظهر أبيها بعد تهذيب لحيته، وأمهم تضع أمامه طبق حَمَام مُحمر وثريد إلى جانب المرق وطاجن خضروات ذي رائحة شهية.. لم تستطع سلمى أن تُصْمِتهن، ولم تتوقف أسئلتهن، وأجابها كلها بدوره، اتسعت عيونهن لحكاياته ومغامراته بين أحراش وجبال الهند، قص على مسامعهن طرائف وقصص حزينة ومآثر الملوك على درب عودته، المائدة فرغت من الطعام ونهضت درة منصاعة لأمر أمها فأتت بالفاكهة والعصائر، ونوران تسأله:

- أبي هل عاد معك أخ سليمان بن أيوب؟!

تفاجأ من سؤالها ونظر إلى زوجته التي قالت لهن:

- هيَّا يا فتيات لتحملن فارغ الأطباق إلى المطبخ.

سارعن في تنفيذ أوامرها، بينما هو يسألها:

- كيف كانت حياتكن في الأعوام الماضية؟

- كل شيء سار على ما يرام في الأعوام الأولى، وأتى خبر نصرك العظيم على الإفرنج الصليبيين، عمَّت الأفراح القلزم وعُلِّقت الزينات وأرسل لنا السلطان بركاته، وما لبثنا أن سمعنا عن خبر الهزيمة وغرق كامل الأسطول.. كان وقْع ذلك شديدًا علينا، قالوا إنك مت، ولكني لم أصدق قولهم، حلَّ الحزن على البلاد ونال الفقر من العباد، استغنينا عن الخدم وأعتقت الجواري اللواتي كنت قد اشتريتهن، اشتد العسر علينا وقد خسرنا كثيرًا بفقدك، لم يعد لأحد تجارة رائجة وقد خلَا ميناء السويس من البضائع، لم يعد يطيق أحد العمل في الميناء الخاوي من السفن، فقط مراكب الصيد تبيع للناس ما يجود عليهم البحر، وما لبث السلطان أن رفع ضرائبه ونُكل بالتجار على يد المماليك الذين راحوا ينهبون الحوانيت ويسلبون الناس أشياءهم، هجر كثير من الناس المدينة واتجهوا إلى الشام، ولكن الله سَخر لنا ذلك الشاب سُليمان بن أيوب، كان يعمل لديك تذكره بالتأكيد، استطاع أن يجبي الديون التي كانت لك من بعض التجار، وأقام الوضع من جديد، لم يتركنا يومًا وظلَّ وفيًّا لذكراك وما صنعته مع أخيه توءمه..

- نعم، يونس.

- طالما قال إنه حي، فإن مات لشعر به، ولكنه كثيرًا ما كان يقول إن أخاه حيٌّ يرزق في مكان ما، وهو ما ثبت اليقين بداخلي أنك حي.. نمت تجارة الجلود مرة أخرى على يده وأعاد العمل إلى دار الدباغة، وجعل قدرًا من مالٍ في أبقار وغنم ترعى بالقرب من البحيرات الشمالية، لقد كان خير عونٍ لنا. حتى أمه وزوجة أبيه وأخته الصغيرة ورد يزوران منزلنا من وقت لآخر، وقبل سنوات تقدموا لخطبة نوران، ولكني رفضت الأمر، تفهم هو الأمر حين أخبرته بأن الفتيات ينتظرن أباهم.. وجاء لسارة كثيرٌ من الخطاب ورفضتهم جميعًا.

- ما كان عليكِ هذا، الفتيات كبرن وبحاجة للزواج، لماذا رفضتِ كل من تقدم لخطبتهن؟

- لا يعيبهم شيء في الحقيقة، ولكني خشيت على البنات من الفرقة، وأن يكون الخطاب ما جاءوا إلا طمعًا في إرث أو مال.. حتى أنا تقدم للزواج مني أحد أولاد الناس، ولكني أخبرت الخاطبة أنك مازلتَ حيًّا، أما السلطان فكان يُرسل لنا بعض المال بين الحين والآخر حتى انقطع، وسرقت الأبقار والأغنام على يد أحد المماليك، ولكن سليمان تصدى لهم هو وإخوته والعمال لدينا، وقام برفع مظلمة إلى الوالي ولكنه لم يفعل شيئًا.. كنت أتحيَّن عودتك كل يوم، وأسأل الناس هل جاءت سفن من الهند؟؟ لتأتي أنت برًّا، في الأسبوع الماضي رأيت رؤيا وبشارة بأنك تلبس البياض وتجوب جنان خضراء. ناديتني وكنت أبكي وأخبرتني أنك ستعود، وقد صدقت.

دام حديثهما وطال السهر بصحبته، أجاب عن كل أسئلة البنات، وضحك معهن قبل أن يتركهن ويصعد لغرفته بصحبة سلمى، التي نصحتهن بالنوم وعدم السهر، وفي غرفتهما أشعلت قنديل زيت وراحت تتجرد من الثوب الثقيل لتبقى بآخر خفيف أبرز مفاتن جسدها على وهج القنديل، أوت إلى الفراش بجواره، وأخذ يتطلَّع إليها مداعبًا خصلات شعرها المُمَوَّج، وطبع قبلة حانية على شفاهها، وما لبثا أن انصهرا بداخل بعضهما بعضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يهنأ حسين بالراحة في الأيام التالية، أشيع خبر عودته وتهافت الناس على زيارته، كان أولهم سُليمان، جاء والشوق يسبقه، وكان لقاؤهما حارًّا، الشاب صار رجلًا يُعتمد عليه، بهيُّ الطلة سليمُ السريرة، شكر له الأمير على فعله مع أهل بيته، وحين سأله سليمان عن توءمه يونس فأجابه الأمير بأنه حي يرزق في مكان ما من أرض الهند، خرجا إلى وكالة الأمير وسط ترحاب الناس ودعواتهم، وُزِّعت الحلوى وضجت المجالس بحكاية حسينٍ الكردي وأخبار بلاد الهند، وفي منزله كانت سلمى تستقبل نساء المدينة كعروس جديد، تزيَّنت وتعطَّرت وبالغت في قص بطولات زوجها، طالما علموا بأمر حزنها وقد أخبرتهم بيقينها أنه عائد، والآن تورَّد وجهها ونبضت خلجاته بالحياة، ومن بين الحضور كانت فيروز أم يونس، لم تكف عن السؤال عن ولدها الذي لم يَعد مع الأمير، ولكن سلمى طمأنتها بأن ابنها مازال حيًّا وقد يعود يومًا، لم تدرِ فيروز أتفرح أم إن الحزن قد سَطَا سطوته على قلبها أبد الدهر، ولا شيء في الحياة أقسى من انتظارَ أمٍّ ابنًا غائبًا.

في صباح يوم مشمس خرج حسين من منزله قاصدًا الميناء، اليوم موعده لملاقاة الرئيس باشا العثماني، ودعته سَلمى بعد أن أخبرته بأن الوقت قد آن لينظر في أمر خطبة سُليمان من نوران، أخبرها أنه سيفكر في الأمر، وهذا ما كان يُفكر فيه وهو يسلك دربه، وبالقرب من المرفأ التقى بالشاب، طلَّته ذكرته بيونس يوم هَرب وتركه خلفه على ساحل شاول، حالت بينهما النيران وصوارم تحمل المنية، وخُيِّل إليه يوم كاليكوت أنه رآه على سفينة البوكيريك، ولكنه كذَّب ما رأى حالما سَمع من لاشين الألفي أن الفتى باقٍ في حصن كوتشي، والآن صار شبح الفتى يتجسد أمامه في أخيه شبيهه المطابق له في الشكل والنظرات، إلا إن سُليمان كان أشدَّ بنيانًا من أخيه الأسير لدى البرتغاليين، يُقدر ما فعله ابني أيوب له. يونس الذي خدم معه على متن المنصورة، وسليمان الذي حَمل على عاتقه حماية تجارته وأهل بيته، كان الشاب نبيهًا فطنًا يهتم بكل التفاصيل ويضع رأيه في الأمور، عَلم حسين أن الفتى يحاول جاهدًا إثارة إعجابهن، وكان لقاؤهما مع الأمير العثماني طيبًا، تحدثوا فيه عن الإبحار والأحوال في أرض الهند وبحر العرب، تفقدوا أمر بناء السفن وتجهيزها بالمدافع الحديثة التي أرسلها السلطان سليم الأول لصديقه وحليفه السلطان الغوري، عَبر الكردي عن بهجته بهذا التحالف بين أخوة الدِّين، وقال لسليمان حين فرغَا من لقاء صاحبهما:

- ليت سلاطين الهند يتحالفون فيما بينهم كما فعل سلطاننا مع ابن عثمان.

- ألا يستطيعون مقاتلة الإفرنج دوننا؟!

- بلى يستطيعون، ولكن هناك بين ظهورهم فئة من أهل البلاد يعبدون الأوثان وهم سبب كل بلاء على البلاد والعباد، يساعدون البرتغاليين ويوقعون بين السلاطين، الحروب دائمة بينهم وبين بعضهم

بعضًا.. والآن وقد تهادن سلطانا بيجابور وكاليكوت مع البرتغاليين أصبح الأمر عسيرًا.

- إنها حرب خاسرة إذن.

- ربما هي كذلك، ولكن علينا الدفع بأنفسنا، وكل ما نملك في الحياة من أجل إخواننا في الدين، ولئن تركناهم لجاءت إلينا جيوش البرتغاليين إل عقر ديارنا بعد أن يفرغوا منهم.. إن سلطان دلهي مازال يُقاتل وحده الكُفار وعبدة الأوثان، أما البقية فالتجارة وذهب البرتغاليين قد أعمى أعينهم.

- منذ ما يقرب العامين جاءوا مرة أخرى، وتوغلوا في بحر القلزم، وحينها تذكر الناس وتأسوا لما حدث للأسطول الذي كان تحت إمرتك، خشينا أن يدخلوا ديارنا أو ينزلوا جدة ومن ثم مكة كما أُشِيع. حينها تذكرتك وتذكرت يونس الذي خرج في جوف الليل ليلتحق بركب الجهاد.. أوقفته وسألته ألا يذهب ولكنه أبَى إلا أن يخوض غِمار الحرب والذود عن بيت الله وأرضه، كنت أنظر في وجه أمي الذي لم يفارقها الحزن على فقده وأحدث نفسي، هل كان يونس أشد عزمًا منَّا جميعًا نحن أبناء أيوب؟ لقد ذهب لما يُحب وفعل ما أراد، وربما نصركم يوم ديو كان سببًا في إحجام البرتغاليين عن وطأ أرض مصر، كل شيء رتَّبه الله وخلقه لسبب، ولعل يونس فعَل الصَّواب ونحن هنا آمنون بفضل فعله هذا..

- أين أبوك يا سليمان؟! لم أرَه منذ عدت!

- لا يعود إلى المنزل إلا في ساعة متأخِّرة، ويقضي يومه في الميناء للإشراف وإتمام عمل بنائي السفن، صار أكثر صمتًا منذ رحل يونس وبعده صالح الذي سكن جدة ويرسل لنا بين الحين والآخر ليطمئننا على أحواله، ولكنه مازال في انتظار عودة يونس، يأمل ذلك، ابتسم حين علم بعودتك وأخبرته بما قلت لي إن يونس حي. ولكن ما لبث أن تعس بعلمه أن فلذة كبده أسير لدى الصليبيين.

- تعال نعرِّجْ عليه.

العمل جارٍ داخل دار صناعة السفن، عمال كُثر وضجيج القواديم والمطارق والمناشير لا يتوقف، بحثوا عنهً بين العمال الفرحين لوجود الأمير بين ظهرانيهم، أثنى على أعمالهم وحياهم وسأل سليمان أحدهم أين يجد أباه، دلَّهم الرجل على مكان أيوب الذي كان بمثابة رئيس للنجارين، وجدوه فوق أحد هياكل السفن يَنصب ميزانَ الخيط ويعطي العُمال توجيهاته، ناداه سُليمان:

- أبي.. يا أبتِ.

استدار ليجدهم يقفون أسفل الهيكل الخشبي، أومأ برأسه لابنه وواصل التحدث مع رجاله وحالما انتهى نزل إليهم، صافح الأمير حسين قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك أيها الأمير، اعذر تقصيري في عدم القدوم إليك والاطمئنان على حالك.

- ليس هناك أي داعٍ للعذر فقد صنعتم في أهلي معروفًا لن أنساه ما حييت آل أيوب، لقد كان ولدك سُليمان خير سند ومعين لأهل بيتي.

تطلع أيوب في وجه ابنه الخجل وهو يردُّ على الأمير:

- لم يفعل سُليمان إلا ما أملته عليه المروءة والواجب، لقد تربَّى في كنفك واشتدّ عوده في وكالتك، وتعلّم كثيرًا منك وهذا دَيْن عليه.

ربت حسين على ظهر سُليمان برفق وهو يحدث أباه مبتسمًا:

- أحسنت تربيته يا أبا يونس.

اختلج قلب أيوب وتبدَّلت ملامحه:

- أكرم الله أصلك أيها الأمير!

- لا داعي لمناداتي بهذا اللقب يا رجل! فما جئت هنا إلا طلبًا لوُدِّ مصاهرتك.

اتسعت حدقة سُليمان وعقد أيوب حاجبيه وحسين يُكمل حديثه:

- نعم، أريد مصاهرتك وإنه لشرف عظيم أن أطلب ابنك سُليمان ليكون زوجًا لابنتي الكبرى، وقد عَلمت أن والدته قد فاتحت أمَّ البنات في الأمر وقد حان وقته.

بدت البهجة على وجه سُليمان، وهزَّ أبوه رأسه وهو ينظر إليه بفخر:

- إن سُليمان لذو حظٍّ عظيم بقبول طلبه.

- الشرف لنا يا أيوب فكما قُلت من قبل نِعم الرجل أنت وخير الأولاد هم بنوك، وما رأيت من سليمان وأخوه إلا كل خير.

بدا الحزن على وجه أيوب وهو يسأله:

- هل يونس بخير؟

- إن ولدك بطل شجاع، رافقني في الفرح والحزن، كان خير جليس ونِعم الرفيق في رحلاتنا، شهد معي النصر العظيم يوم ديو وقاتل ببسالة، وكان إلى جواري يوم أغرق البرتغاليون أسطولنا.. ولكنه لم يستطع الهرب معنا، وكان هذا خطأً مني، ولكني علمت أنه بخير في حصن كوتشي ويحظى بمكانة بين الأسرى، ولو كان لي من الأمر شيء لما عدت إلا به، ولكن الأيام فرَّقتنا وأخذتنا السنون، إن يونس قوي ذا عزم لا يفتُر، لم يترك شيخًا هنديًّا مصابًا خلفه وبقي معه.

أثلجت كلمات حسين صدر الرجل ولكنها لم تفلح في إزاحة كل مخاوفه وبدى ذلك جليًّا في نبرته:

- أخشى أن يكون قد أصابه مكروه.. أو فتَنَتْه الدنيا وتملك اليأس من فؤاده، أن يبيع دينه وأهله بعرَضٍ من الحياة.

- ابنك يعلم طريق العودة إلى هنا.. ولسوف يعود يومًا.

- يونس طيب القلب رقيقُه، وأخاف أن يتحكم به الهوى، على عكس سُليمان الذي يُعمِل عقله ويحكِّمه في كل شيء، صُدمت يوم فرَّ إلى سفن الأسطول، وكنت أحسب أنه قد ارتضَى بما فرضته عليه،

قسوت عليه، وطالما أخبرته بأنه بليد لا عزم له، ولكني كنت مخطئًا، لقد ذهب إلى حيث يريد، أشفق على ما حل به، وأخاف أن يدركني الموت قبل لقائه.

- أمد الله في عُمرك يا أبت.. سيعود يونس وستراه.

قالها سُليمان ووافقه حسين الكردي بقوله:

- حالما تنتهوا من تجهيز الأسطول سيبحر إلى بر الهند، سأبلغ الرئيس سُليمان باشا بأمره، وإن شاء الله سيجده ويأتي به إليك لتقرَّ عين أمه به وينعم برضاك.

- أنا راضٍ عنه، وقد سامحته وإن كنت حزينًا على ما فعل دون رغبتي، ولكني تراجعت عن غضبي وقد كنتُ عاهدت الله إن رزقني ولدًا لوهبته إيَّاه، وكان كرم الله واسعًا حين وهبني سُليمان ويونس وصالح ويحيى، ومن بعدهم المدللة ورد.

- هل من أخبار عن ولدك صالح؟

- آخر رسائله قال فيها إنه سار مع مجموعة من المماليك إلى اليمن، ونزلوا في ضيافة الطاهريين هناك، لا أخشى على صالح الحياة ومشقاتها بقدر ما يُشغلني أمر يونس، فالأول ذهب إلى جدة ليعيد يونس إلى السويس، ولكن مع وصوله كان أخوه قد رحل معكم إلى بحر العرب، صالح يعرف ما يصنع أما يونس فكثير التفكر والتقلُّب.

- جمعك الله بهم أيها الرجل الصالح، وسرَّ نظرك وقلبك بصنيعهم.

- شكرًا لك أيها الأمير.

- أمير مرة أخرى؟! سأنتظرك يوم الخميس القادم لنقيم الخِطبة ونعلنها للناس.

ضحكَا واحتضن أيوبُ سليمانَ مباركًا خطبته، رحل سليمانِ مع حَمِيه وظلَّ أيوب يتابعهما ببصره، طمأن الأمير قلبه على يونس، وإن كان الشوق بداخله قد اتَّقد أكثر، الغبطة عمت ربوع روحه وقد كان الهم يجثم فوق صدره منذ رحل يونس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيام مضت وتمَّت الخطبة، وعاد حسين لوكالته ومباشرة أعماله، قُرْبه من سليمان الفطن جعله يتذكر يونس الذي لم يفارق خياله، متشابهان في الهيئة وإن اختلفت طريقتهما في الحياة، أخطأ ذات يوم وناداه: يونس! ليدور بينهما حوار حول الغائب، مآثره وليل الإبحار تحت النجوم برفقة بحار شاب مُحارب يحب ما يفعل، شغوف بالبحر وجزره وسواحله، المحيط الشاسع يمنح ذلك الشعور بالحرية والسعي الدائم إلى الشاطئ، يخلل حديثهما الدائم حكايات عن دلهي وآل لودهي وأفيالهم الضخمة، ووحوش الأحراش التي تهاجم البشر وتهاجم القرى ليلًا وتختطف الرُّضع من أسرتهم، ومرَّت الأيام وتوطدت العلاقة بينه وبين صهره طيب النفس، وبدأت السفن النزول إلى الماء، التجهيزات صارت أكثر سرعة، وفي غضون شهر سيبحر الأسطول من جديد إلى الحرب، وعزم حسين على أن يُعجِّل بقران كريمته نوران على سليمان، اقتطع لهما منزلًا قريبًا ليكون هدية للزوجين، وكلَّف سلمى

بتجهيز أغراض العروس، كان يزور أيوب بين الحين والآخر، رجل صالح ومعلم في صنعته، أفلح في تربية بنيه، وفي ليلة الجمعة الأخيرة من شهر رجب أعدت وليمة عظيمة في بيت حسين الكردي، وعلقت الزينات على واجهة المنزل، سيزف العروس إلى بيت زوجها، تعجبت سلمى من سرعة الأمر، وقد كان زوجها متريِّثًا في كل أفعاله، السنون قادرة على تبديل كل شيء، ولكنه كان يَعلم قيمة الفرح مع دوران الزمن، أراد أن يَجمع الناس حوله من جديد، وقف يستقبل ضيوفه ومن دعاهم بترحاب بالِغ، جاء القاضي حسن الدمشقي وشيخ الكُتاب المُسن عبد الكريم الشرقاوي وشاهبندر تجار سوق الخيل أبو عيسى الزناتي، جمع رفاقه القدامى وأعيان القلزم، كما دعا الرئيس سُليمان باشا ضيف شرف مأدبة العرس، ذبحت الخراف وأطعم عامة الناس والدراويش، وحضر شباب السوق ليحتفوا بصاحبهم سليمان الذي كان محبوبًا بين جموع الناس، جلس إلى جوار حَمِيه مرتديًا ثوبًا جديدًا من ديباج أسود وعمامة من اللون نفسه مزينة بخطوط ورسوم فضية، بدا كأبناء الأمراء بوسامته، جاوره أخوه يحيى بطلته الهادئة ووقار يليق بطالب علم، أما أيوب الفَرح فكان يجلس عن يسار نسيبه على طرف مائدة تعج بكبار القوم. لحم الضأن المشوي وقصع فتة المرق، الفطير المُسمن والبنجر المخلل وأطباق البطاطا الحلوة، لم يكن ليحلم أيوب بهذا من قبل، أن يرى ابنه يتزوج، مرَّ العمر به سريعًا، تذكر شبابه وشقه طريق الحياة الصعبة، سنوات عُقْمِه الجافة والخير الذي وهبه الله في البنين والصنعة، كان أشهر المعلمين فيها، تمنى لو أن يونس كان حاضرًا أيضًا وصالح، ولكن الله قدر لهما عكس ما يريد هو، وله حكمة في ذلك.

أما النساء فتجمعن في البهو العلوي من البيت، ضربت الدفوف وغنت النساء والعذارى من الفتيات يتمايلن في رقصهن، وعمرت أطباق الكعك وحلوى كعب الغزال وحلاوة القمح والأرز باللبن المحلى بالعسل، ساعدن خالات العروس أهل البيت في ضيافة الحريم، أما فاطمة وفيروز وورد فتجملن بأثواب من حرير وكتَّان أزرق وأبيض مذهب التطريز، أما سلمى وبناتها فتزينَّ بجلابيب حريرية ملونة وحلي من ذهب وفضة وخرز ملون، وضعنِ الحُمرة وتعطرن وتكحلن، وكانوا محطَّ أنظار النسوة الحضور، غابت العروس عن المشهد فقد ظلّت نوران في غرفتها، كانت متوترة لا تعرف ما عليها فعله، وما لبثت أن خرجت بعد إلحاح من أختها سارة لتقابل المدعوات، التف حولها الصغار والكبار وترددت الزغاريد ليضج المكان، وبعد أن فرغ الرجال من الولية أشهر القران وانهمرت التبريكات والصلوات على الزين الهادي، تمنى الحضور للزوجين حياة كريمة ورضا ورضوان من الله، مُنح سليمان العطايا وزُفَّ هو وعروسه إلى بيتهما على صهوة جواد أبيض مزين بسرج أحمر، ذرفت فيروز دمع الفرح وطيَّبت فاطمة بخاطرها وأخبرتها بأن هذا يوم فرح لا حزن وتحسُّر.

ليلة كان وقعها جميل في نفوس كل من حضرها، رجع آل أيوب إلى منزلهم يتحاكون فيما بينهم عن لحظات العرس البهيج، وحالما فرغت سلمى وابنتاها وخالاتهن من ترتيب، ذهبت لتفقُّد حسين الذي كان جالسًا في ركن صلاته بالغرفة، بدَّلت ملابسها بينما هو غارق في خلوته، ارتدت ثوب النوم الخفيف وقبل أن تصعد إلى الفراش ذهبت وأتت بإبريق ماء وعادت لتجده قد فرغ من خلوته، استقبلها بابتسامة فجلست إلى جواره على طرف الفراش، تأمَّلها وكانت رطِبة المحيَّا جميلة التفاصيل، نضَجَت وخاضت غمار الحياة معه وانتظرته حين غاب، إنها نبع للوفاء والإخلاص، أزاح خصلات شعرها جانبًا متطلعًا إليها:

- من يصدق أن اليوم هو عرس ابنتنا الكبرى؟ مازلت أذكر يوم عرسنا كأنه الأمس.

ضحكت ومالت برأسها على كفه:

- أتقصد أننا صرنا كبيرين؟ وقريبا سنرزق بأحفاد.

- إنه لشيء مُثير حقًّا، كيف سيكون هذا الشعور حين أحمل حفيدي بين يدي.

- أمد الله في عمرك ورزقك الله بكثير من الأحفاد، مازالت هناك سارة ودرة.

صمتت لبرهة لتذكر كم تمنى الولد ولم يحصل عليه، فرك ما بين كتفيها بلطف:

- سليمان رجل يُعتمد عليه، الآن أستطيع أن أطمئن عليهن، وكم أتمنى لهما رجلين مثله.

طبعت قبلة على شفاهه فجأة، ولم يبقَ في دهشته كثيرًا، أخرسته قبل أن يَدخل في حديث آخر، فهذه الليلة التي تشبه حقًّا ليلة عرسهما كانت تستحق عناء محاولة منها لإسعاده، ومنحه ولد ترجَّته في قرارة نفسها من الله، ماجَ بهم الفراش، وتقلَّبوا مع زبد حبهما، شهقات لذة وغنج شوق، وأخذهما الإجهاد الحُلو إلى نوم عميق وقد احتضنها بين ذراعيه.

فتح عينيه ببطء ليجد ضياء الشمس يغمر الغرفة، لم تكن سَلمى بجواره على الفراش الوثير، شذى عطرها في المكان، وهديل اليمام قرب نافذته تناهى إلى مسامعه، أضحى مسرورًا يغمره الصفاء وقد نال من الراحة ما عوَّض به سنوات الشقاء، ظل بالفراش متدثرًا، كان على تلك الحالة حين فتحت سلمى الباب ودخلت، وعلى محياها ابتسامة ونظرة غبطة وسعادة من أثر الليلة الماضية، كانت تحمل بين يديها سفرة الإفطار، وضعتها أمامه بينما اعتدل جالسًا:

- ما كل هذا؟

- فطور يليق بأميري..

ضحك وهو ينظر إلى صحون العسل والقشدة والبيض المسلوق والخبز الطازج، تناولا فطورهما معًا وانساب الحديث بينهما، ذكرته بالأيام الخوالي الأولى من زواجهما، ويوم رُزِقا بالبنات تباعًا، أيام الفقد وغيابه ولوعة الانتظار، كل شيء دار على لسانيهما، حتى سألته عن المستقبل، كيف سيكون؟ وماذا يخفي القدر لهما؟ صمت ولم يجِب وطال شروده، بينما يتناول لقيمات إفطاره، طرقات على باب غرفتها أعادته من واقعه، أذنت سلمى بالدخول لدرة التي وقفت على عتبة الباب بعد أن واربته:

- أبي، هناك رسول من السلطان يقف بباب المنزل.

ارتدى عباءته على عجل وركب نعله لينزل مسرعًا، وحين فتح الباب ليلقى رسول السلطان فتفاجأ به، كان الواقف على باب المنزل هو إبراهيم الصباغ مبتسمًا، احتضنا بعضهما بعضًا مربتًا كل منهم على ظهر الآخر، دعاه للدخول وقبل أن يفعل الصباغ مدَّ يده ليمنحه صحيفة مختومة من السلطان، علم حينها أن أيام الراحة قد ولَّت، فتح الرسالة وهما يجلسان داخل المضيفة، مرر عينيه على سطور المرسوم، وحين رفعها لمح سلمى الواقفة في زاوية ظليلة خلف عامود رخامي، التقى بصرهما وقد حلَّ ما كانت تخشاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

11

غوا

أبحرت عدَّة قوارب صغيرة عكس تيار نهر ماندوفي، المجاديف القصيرة راحت تدفع الماء العكِر لتتقدم متمايلة مع رقرقة المياه الجارية، وعلى الضفتين مروج ذات خضرة شاحبة تنبثق منها أشجار دردار وسنديان صوفي وغاف، حُمرة الخريف البديعة وضعت لمستها على الأغصان والأوراق، وصفحة الماء عجَّت بما تساقط منها، ويتردد صدى زقاء طواويس تسعى للتزاوج، وقردة تتنقل على الأفرع القريبة من سطح الماء متتبعة القوارب المتوغلة إلى عمق الغابة، الصباح مازال في أوَّله وضباب خفيف يعمر الهواء، ورجال راما يجدِّفون بعَزم وقوة، أربعة قوارب على متن إحداها كانت الدوقة ماتيلدا وخادمها العربي واثنان من الجنود البرتغاليين، والثلاثة الآخرون كانوا لراما ورجاله وعتادهم، مقصدهم شلال ماهافير والتي يطلق عليه أهل البلاد شلالات اللبن، كانت تبحث عن مغامرة جديدة ورحلة بداخل غياهب الغابات والأحراش المحيطة بغوا،

وقد سَمعت كثيرًا عن جمال الأدغال، وأثارت فضولها تلك الحكايات عن حيواناتها الغريبة، رحلة صيد أعدَّها راما للدوقة التي مازال الحزن يسيطر عليها منذ موت راعيها، عام وبضعة أشهر مرَّت على وفاة الدون ألفونسو دي ألبوكيريك، أثار رحيله عاصفة حزن لم تهدأ إلا بفعل يونس القريب منها، كان يواسيها ولا يتأخر في مسعاه لسعادتها، كانت خائفة وحيدة وقد خيَّرها نائب الملك الجديد «دي ألبيرغيا»، إما أن ترحل وإما أن تبقى لتكمل مهامها التي تطوَّعت بفعلها، وبقيت ولا تدري ما يخبئ الغد لها، كانت دائمة الزيارة لقبر الشيخ بكنيسة سيدة التلّ التي أوصى بأن يُدفن فيها، كانت قد وجدت كثيرًا من المذكرات والأوراق التي خطها ألبوكيريك بيده، قرأتها كلها ودمعت عيناها كلما تذكرته، وما لبثت أن أرسلتها إلى ابنه في لشبونة، أما هي فقد صارت الحياة لها على تلك الأرض كئيبة، وتفنن راما في محاولات إسعادها منافسًا ذلك العربي ثقيل الظل والمحيا.

وصلوا إلى بقعة رملية مثَّلت شاطئًا مثاليًّا للرسو، ونزل الهنود إلى الماء ليدفعوا القوارب إلى الشاطئ، ووطئت قدم ماتيلدا الأرض بعد ساعات من السير عكس التيار، أحسَّت بأن الأرض تميد بها، فتوكأت على كتف يونس، أضحى أقرب شخصٍ لها على تلك الأرض بعد موت الدون، عوَّض جزءًا من فقدها، وكان خير صاحب في أيام الحزن، أثار نبله جوارحها، تقاربَا وكادت مرةً أن تخبره بأنها تميل له وتريده، ولكن ماذا سيقول نائب الملك والنبلاء والجنود؟؟ كيف تهيم حبًّا في رجلٍ مسلم، وفي ركن مظلم بداخل فؤادها كانت كلمات ألبوكيريك تتردد فتوجعها:

- احذري أن تميلي إلى ذلك العربي؛ إنهم خونة.

نُصِبت الخيام وأوقدت النيران، وانتشر رجال راما بعمائمهم البرتقالية الكبيرة في أرجاء المكان لتأمينه، كانوا على حافة دغل كثيف، والليل جاء مبكرًا على غير عادته أو هكذا حسبت، خرجت من خيمتها بعدما أخذت قسطًا من راحة وتفاجأ بها يونس حين رآها، ترفل في ملابس الرجال، عقدت شعرها للخلف ووضعت غمد خنجر في حزام خصرها، كانت جميلة ووهج النيران المنعكس على وجهها منحها بهاءً، جلست إلى جواره أمام حفرة النار وهي تسأله:

- المرة الأولى التي أرى فيها تلك النظرة على وجهك!

أجابها وهو يشيح بوجهه ناحية الرجال المنهمكين في سلخ غزال اصطادوه:

- فقط تعجَّبت هيئتك هذه!

- وجدت أن الثوب لن يليق برحلة كهذه، فهيَّأت ما قد يفيدني في الحركة مثلكم.

عاد إليها ونهل من جمال عينيها:

- تذكرت يوم رأيتك على متن سفينة الدون، كنتِ ترتدين ملابس الجند، وكان تتكرك مزريًا في الحقيقة.

عقدت حاجبيها:

- كيف؟!

- مشيتك وجسدك المتعرج الممتلئ من الخصر، وذلك الضي في عينيكِ كان يفضحك على الرغم من اللثام والخوذة.

- تختلس النظرات إلى جسدي إذن؟

- لا أفعل.

- بل تفعل هذا يا عربي.. كل الرجال يفعلون، ولا أظنك كدييجو.

ضحك وكذلك فعلت هي، كانت تلك المرة الأولى التي يضحكان فيها هكذا، وقد كانت تظن أن السعادة فارقتها منذ زمن، الأجواء الساحرة حولهما جعلت حوارهما الطويل ممتعًا، النجوم تتلألأ في السماء ونقيق الضفادع يقلق سكون الليل، ولحم الغزال المشوي كان لذيذًا ناعمًا، وراما يقص على مسامعهم قصة القرد الذي طمع في محصول فلاح واعدًا إيَّاه بكنز من ذهب إذا تقاسمَا المحصول، فاتَّفقا وقال الفلاح للقرد بأن يختار إما الجزء السفلي مما سيزرعونه وإما الجزء العلوي، فطلب القرد من القسم الأعلى وسيرضى بما سيجود به زرعهما، وكان الفلاح حذقًا، فزرع اللفت، فما نال القرد إلَّا عريش اللفت وحصد الفلاح الثمار، وأخذ من القرد الكنز.. قصة لم يفهموا فحواها، وما لبث أن بدَّلها وراح يحكي واحدة أخرى عن الآلهة دورغا ربة النصر والانتقام التي يعني اسمها «التي لا تقهر ولا يمكن النيل منها»، تمتطي ببرًا وفي بعض الأوقات أسدًا، ولها عشر أذرع، وبينما كان يتحدَّث عن قدرتها وعظمتها توقف وعُقد لسانه، متذكرًا ما رأى في منامه من قتلِ النمرِ القديرةَ وتمزيقها، رؤيا راودته منذ زمن في حصن كوتشي، والآن عادت بكل تفاصيلها إلى ثنايَا عقله، لم ينطق، واعتذر عن الإكمال متعللًا بذهابه إلى قضاء حاجته، وانصرفوا جميعًا كلٌ إلى خيمته، وأوصلها يونس إلى مبيتها، ومن بين الأشجار والظلام كان راما يشاهدهما، يقفان على عتبة خيمة الدوقة يتحدثان ضاحكين، دخلت هي وذهب يونس إلى خيمته، وعاد راما إلى أعوانه، لم يحدثهم واكتفى بإلقاء جسده على العشب الجاف، وأصوات بعيدة تأتي من غياهب الغابة، وعقله يحثه على ضرورة التخلص من ذلك العربي، كل حال تبدَّل منذ مات ألبوكيريك، الدوقة الحزينة وجدت الأنس والرفقة في ذلك الأفَّاق

الخبيث يونس، ولعل مجيئهم هنا هو اللحظة المناسبة لذلك، ففي الصباح سيتوغلون داخل الدغل الكثيف صعودًا إلى موضع شلال اللبن، وفي الطريق الموحش قد تقرُص غريمَه عنكبوت، وربما يلدغه عقرب أو يظفر به روح الغابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع شروق الشمس بدأت الحياة تضج في المخيم، وقف راما يعطي رجاله الأوامر واختار من سيرافقه منهم في رحلتهم إلى الشلال، ولما انتهى الرجال من تجهيز أنفسهم صفَّق أمام خيمة الدوقة ثلاثًا، وخرجت شمس الصبيحة المشرقة من بين ستار القماش المغطي للباب، بهيَّة الطلة على الرغم من النُّعاس الذي مازال أثره على ملامحها الرقيقة، شفاهها الوردية الصغيرة، وعيناها الواسعتان الممتلئتان بالحياة جعلَا راما يطيل التحديق فيها، استنشقت عبير ندى الصباح الذي بلَّلَ أوراق الأشجار، تجاوزته وهي تحدِّثه:

- هل حان الوقت؟

تبعها مجيبًا:

- سنتحرك على الفور، الطريق طويلة، ويجب أن نصل مع الظهيرة حتى نعود قُبَيْل الظلام.

كانت تبحث عن يونس في أرجاء المكان، تعجَّبت من عدم وجوده، هَمت بالسؤال عنه ولكنها رأته يأتي من بين الآجام، وربما تلك المرة الأولى التي تراه يعتمر عمامة رمادية اللون فوق رأسه، اعتادت رؤيته بشعره البني الكثِّ، كانت تحدق فيه حين وقعت عيناه عليها، فابتسم فأشارت له:

- عربي، يا لها من إطلالة.

عدَّل العمامة بأطراف أصابعه:

- أعجبتك حقًّا؟!

أضحكها فعله، فأومأت برأسها فتابع وهو يتقدَّم نحوها:

- يمكنني صنع واحدة لكِ، فتلك الأحراش من حولنا قد يكون بها حشرات أو غبار قد يلصق برءوسنا.. وبالنظر لكل من يرافقونا فإنهم يعتمرون عمامات وأغطية رأس.

- كنت مختلفًا دونها.

- أخلعها إذن؟؟

- لا، لم أقصد، إنها جميلة.

خلعها بروية ليكشف عن شعره الذي كان قد غسله في ماء النهر حين استيقظ، بدا لامعًا وإن كان مبعثرًا، مد يده بالعمامة ليمنحها إيَّاها قائلًا:

- إنها على الطريقة العربية، علمني أبي طريقة لفها يومًا.

ترددت في أخذها، ولكنها فعلت وهي تحدِّثه:

- هكذا سيكون راما هو الوحيد الذي لا يعتمر شيئًا على رأسه بتلك القَصة الغريبة وبشاربه الكث.

ألقت جُملتها وضحكت وهي تثبت العمامة على رأسها، ولم يُفلح يونس في كتم ضحكاته وكذلك الجنديان البرتغاليان، وبدا الضيق على وجه راما، وارتفع حاجباه كقوسين مقلوبين، تركهما ومشى تجاه رجالِه قائلًا بغلظة:

- لنذهب!

قاد راما رجاله عبر الدغل الكثيف، يشقُّون طريقهم عبر الشجيرات والآجام المتشابكة، يقطِّعون ما يقف في طريقهم بسيوفهم القصيرة، في المؤخرة، كان حرس الدوقة يسيران خلفها هي ويونس، أشعة الشمس تتغلغل بين الأغصان المتشابكة، وأصوات طيور مغردة تنشد أو تحذِّر أقرانها من المخلوقات، وماتيلدا الضاحكة ترى عالمًا جديدًا تمامًا، شجرٌ مختلفة جذوعه وأوراقه وإن تعانقت أغصانه، تحاول جاهدة مطالعة تلك الطيور والبحث عن مصدر الشدو الصاخب، يونس كان يتقدمها بخطوات يجول بنظره في أرجاء المكان، درب شاقٌّ وسيرٌ متواصل داخل غابة لا نهاية لها، ولكن شيئًا تسلَّلَ إلى أنوف رجلَيْ راما، توقفَا وتحدثَا بلغتهم مع قائدهم الذي رفع رأسه قليلًا وأخذ يستنشق الهواء. كانت الرائحة بالكاد تُشَم، ولكن مع تغيير اتجاه الريح هَبَّت لتزكم الأنوف، يعرفها جميعهم إلا ماتيلدا التي اشمأزَّت وتقززت وكادت أن تتقيَّأ حتى كتمت أنفها بالجزء المتدلي من العمامة، ساد التوتر بينهم وحدثهم راما بالبرتغالية بينما كانت عيناه تبحثان في أرجاء المكان عن شيء ما:

- إنها جيفة حيوان ما.. وأتمنى أن يكون ميتًا وليس صيدًا.

- ماذا تعني؟

سألته ماتيلدا، أجابها وهو يشير لرجاله بالبحث في المكان:

- قد يكون حيوانًا نافقًا، وما قصدته بالصيد أنه ربما طعام أحد وحوش الغابة.

غمغم يونس:

- وحوش؟! ما هذه المبالغة؟

رماه راما بنظرة مَقْتٍ:

- أنت غريب عن هذه الأرض؛ فلا تتفوه بما لا تعرف!

كاد يونس أن يَرد عليه لولا اللوم في عيني الدوقة، جاء أحد الرجلين إلى راما وكلَّماه بلغتهم واستدار بعدها الراجبوتي قائلًا:

- إننا على مقربة من عرين، فهد أو ببر، علينا توخي الحذر وإكمال الطريق دون توقف. إن هذه المخلوقات ترانا من حيث لا نراهم وتتحيَّن اللحظة المناسبة للانقضاض.

أوْلاهُم ظهره ومشى أمامهم رفقة أتباعه، وتفاجأ يونس بيد ماتيلدا تعتصر كفه، نظر إليها بدهشة فهمسَتْ:

- كن بالقرب.

أحس برجفتها، ربما كلمات راما الجافة أرعبتها، وفي قرارة نفسه كان يونس يشكر لذلك الحيوان الذي تحدث عنه الهندي؛ فهو السبب الذي جعلها تقترب منه ليشعر بدفء يدها الرقيقة الناعمة، استمر السَّير وتخلله حديث خافت بينهما، سألته إن كان رأى أحد تلك المخلوقات يومًا، ذكر لها يوم رأى الببر الميت في ميناء مدينته، وكيف كان العبيد يحملونه على صارٍ خشبيٍّ، وحدَّثها عن تلك الرؤى التي رآها وكيف فسرها صاحبه الشيخ إقبال الذي رأى بدوره حُلمًا آخرَ، كان يحكي وراما يرهف السمع، أخبرها يونس أن رفيقه كان يَعلم كثيرًا عن تلك الحيوانات، وأنه يوم أسره حين كان هائمًا في الغابة المظلمة سمع جلبةً وصراخًا تخلله زئير يخلع القلوب.. حديثهما عن عجائب المخلوقات عَرج على وحيد القرن الذي أمسك به ألبوكيريك وأرسله إلى لشبونة، وتلك الأفيال التي يستخدمها الناس في غوا كوسيلة نقل، وخلُصَا إلى أن البشر هم أخطر مخلوقات الرب، ربما كان لهذه الحيوانات أنياب ومخالب وقرون، ولكنها تستخدمها في الحصول على قوتها والدفاع عن نفسها. أما بنو آدم فق مُنِحوا عقلًا وهو أكثر فتكًا، وما استغلوه إلا للقتل ولصيد ما دونهم من بشر وطير وحيوان.

الخروج من الدغل الكثيف كان بمثابة إطلاق سراح لهم، خرجوا إلى أرض منبسطة يكسوها عشب طويل جاف، ومن بعيد تجلَّى سفح الشلال يتطاير ماؤه ملونًا الهواء، خرير قوي راح يعلو كلما اقتربوا أكثر من مجرى الماء الفوارة بالزبد، كانت الجنَّة المخفية عن الأعين، الهواء عليل والأجواء رطبة، حثَّت ماتيلدا الخطى بينما جميع الرجال يتابعونها، غمرت فؤادها بهجة بفعل المشهد البديع، يستحق المخاطرة وعناء الوصول، جلست فوق صخرة بالقرب من الماء الجاري، خلعَت نعليها ووضعت قدميها في الماء البارد، وأرخت جسدها على الحجر الأملس بعد أن وضعت العمامة وسادةً أسفل رأسها، غفت مستدفئة بشمس الظهيرة المنتصبة فوق رءوسهم، وانشغل رفاقها كلٌّ بما كُلِّف، راح رجال راما يجمعون الحطب بينما خلع هو ملابسه إلا من سرواله، وخاض في الماء، بدا وكأنه يتباهى بجسده المفتول وهو يسبح أمامها، لم تولِه أي اهتمام ولم تنظر ناحيته حتى، وعلى مقربة منها كان يونس يقف عاقدًا يديه أمام صدره، ضجرًا مما يفعله الهندي، أمَّا حارساها فراح أحدهما يملأ قرب الماء والآخر ذهب إلى قضاء حاجته بين الأشجار. لا شيء يؤرِّق السكون إلا صوت الخرير وبين الحين والآخر يصدح طير بشدو عذب، اصطاد الرجال السمك وراحوا يشوونه مثبتين إياه في أغصان رفيعة، يونس كان منهمكًا في شَيِّ الأسماك مع البرتغاليَيْن، أخبره أحدهما أنه زار الحبشة ورأى شلالات أعلى من هذا بكثير، كذلك تحدَّث الرجل عما كان ألبوكيريك ينتوي فعله، من قطع مياه النهر عن أرض المماليك. ولكن الموت عجل إلى الدون، وتدخل راما بفظاظة وسماجة لم ترُق للمتحاورين، حدثهما بالبرتغالية:

- كم كنت أتمنى أن يتم الدون أمره ويغزو بلادكم أيها العربي!

رمقه يونس، بينما تابع الراجبوتي حديثَه:

- لقد أفلح الرجل في غزو مدنكم على ساحل بحر العرب، وكان قاب قوسين من دخول مدينتكم المقدسة، كنت أنتظر اليوم الذي يصل إلينا فيه خبر إحراقها وتدميرها، بل محوها من الوجود.

قضم يونس جزءًا من ظهر سمكته وأخذ يلوكه محدثًا جليسه البرتغالي:

- هل تصنعون السمك المملح في بلدكم؟

ضحك الجندي واستشاط راما غضبًا، جاء ليقرفص أمام يونس ويحول بينه وبين الرجل:

- تهزأ بي! أليس كذلك؟

تطلَّع يونس في وجهه وقد بلع ما في فمه من طعام وقال بالعربية التي يفهمها الراجبوتي:

- إن أردت القتال فلا تختلقه، فقط أخبرني أنك تريد قتالي وسنفعل هذا بالطريقة التي تعجبك.

- لا شيء يمنعني من قتلِك وترك جيفتك هنا لينهشها الطير ووحوش الغابة.

- بل هناك ما يَمنعك، وإلا لفعلتَها وقد سنحت لك الفرصة مرارًا، لستَ بحاجة لأن نكون في غياهب الأحراش لتقوم بما تريد، وإن كنت فاعلًا فدعني أسألك، ما كل هذا البغض الذي تكنه لي!

- أنت وقومُك سبب خراب تلك الأرض، جاءوا إلى هنا وحطَّموا تماثيل آلهتنا ودنَّسوا مقدساتنا.

قاطعه يونس بتحدٍّ:

- آلهتكم!! لماذا لم تدافع عن نفسها إذن؟ إن كانت حقًّا كما تقول ولا تكف عن ذكر بطولاتها وقدراتها الخارقة، فلماذا لم تمنع عنكم جيوش الفاتحين حين جاءوا منذ قرون؟ بل لماذا تركتهم يبنون مدنًا وقصورًا وينجزون العجائب؟! أنت واهم يا رجل! ثم أين قومي هؤلاء الذي تدَّعي أنهم يحكمونكم؟ سلطان بيجابور إسماعيل عادل شاه؟ أليس هذا من بني جنسكم؟؟ والآخرون من سلاطين هضبة الدكن وكاليكوت، أليسوا هنودًا وإن اختلف دينهم عنك؟! لقد دخل أجدادهم الإسلام طوعًا ليحملوا شعلة الخير والنور إلى أرض الهند والسند. في الحقيقة أتعجَّب من قدرتك على الكذب، قد يكذب الناس على بعضهم بعضًا، ولكن أسوءهم من يكذب على نفسه ويصدِّق كذبه، في جبال الراجبوت التي أتيت منها، هل دفعك أحدٌ عَنوة لتصبح مسلمًا؟!! هل حاربكم آل لودهي ملوك دلهي حين استقللتم بسهول راجبوتانا؟! أتعرف من سبب خراب تلك الأرض حقًّا؟ أنت وأمثالك ممن عاونتم الغزاة على سلاطينكم أيًّا كان دينهم..

مال راما بجسده إلى الأمام قليلًا وقال بنبرة تفوح بالبغض:

- إن كانوا هؤلاء غزاة فأنتم كذلك!

- شتان بين من جاء ليساند بني أمَّته ويحمي ديارَه، وبين من جاء بالقتل والدمار وسلب الأرواح، يبدو أنك لا تعي ما تقول حقًّا، أو لديك قصور في فَهْم بعض الأمور والأسماء، لقرون كنتم بين ظهور المسلمين وحكامهم ولم يتعرض لكم أحدٌ، ومن ثَمَّ جاءت سفن البرتغاليين ليستعبدوكم.

سَحب راما سيفه بغتة وقام واقفًا ليضعه على رقبة يونس الذي لم يهتز، وانتفض حارسا الدوقة واقفين وصاح أحدهما في راما بالبرتغالية:

- توقف! أخفض سلاحك!

وابتسم يونس في وجهه محدثًا إيَّاه بالعربية:

- هيَّا! أطع أسيادك أيها الراجبوتي!

احتقن وجه راما، والجنديان من خلفه يأمرانه بوضع السلاح، الأمر الذي جعل ماتيلدا تفيق من غفوتها الطويلة، رأت المشهد من مكانها، فزعت وجاءت مهرولة حافية القدمين:

- ما الذي يحدث؟ راما! أي جنون أصابك؟!

أجاب بلغة عن سؤالها دون أن ينزل عينيه عن يونس:

- ذلك الخائن يضمر لكِ ولنا شرًّا، من الخطأ أن يبقى إلى جوارك وبين ظهرانينا.

نقَلَت بصرها بينهما وعادت لتقول:

- أنزِلِ النصل وتراجع، هذا أمر!

مع آخر حروفها، سحب حارساها سيفيهما ليشهراهما في وجه الراجبوتي، أما تابعاه فكانا يقفان دون فعل أي شيء، عضَّ راما شفته السفلى قبل أن يقول ليونس بالعربية:

- لم ينتهِ الأمر بيننا يا عربي!

سحب النَّصل وأعاده لغمده واتجه إلى حيث يقف رجلاه قائلًا بالبرتغالية:

- سنعود إلى المخيَّم متى تنتهون من غدائكم.

غاب بين الأشجار وذهبت ماتيلدا إلى حيث يجلس يونس وسألته:

- ما الذي دفعه لفعل هذا؟

- يبدو أنه يغار عليكِ..

- أأحمق هذا؟

- إنه يكنُّ لي العداء مذ كنا في حصن كوتشي، قلبه مليء بالغضب والبغض.

- لا عليك منه، متى نعود فسألقنه درسًا لن ينساه.

- ماذا ستفعلين؟

- دعنا منه الآن، لماذا لم توقظني للغداء، هل طمعت في سَمكتي؟

ضحكًا وكذلك فعل الجنديان، كان وقتهما ممتعًا حتى أعدّا كل شيء للرحيل، يومٌ رائع بصحبته لم ينغِّصه سوى وجه راما المتجهِّم، تمنَّت لو بقيت هنا في هذا المكان عند الشلَّال، أن يكون لها كوخ صغير يطل على الوادي الفسيح وأشجاره المتزاحمة، ستكون حياة هادئة بعيدة عن صخب المدن والروائح الكريهة، وغوا تعجُّ بالناس والحيوانات والأعين الفضولية، أما هنا، فلا شيء سوى الطيور المغردة وخرير الماء. عادا أدراجهما، وبينما هم في طريق العودة، أوقف راما السير بإشارة من يده وهمس لهم بألا يتحرك أحد أو يصدر صوتًا، تعجَّبت ماتيلدا من فعله، ولكن سرعان ما فهمت قصده، بالكاد كانت ترى ما جعله يتوقف، بين الآجام الجافة وعلى أرض الغابة المكسوة بالأوراق الشاحبة المتساقطة بفعل الخريف، كانت أنثى ببر ضخمة تسير على مهل، برتقالية الفراء، ذات خطوط سوداء لامعة، عظْمَتَا كتفيها يرتفعان ويهبطان بتناغم مع مِشيتها، ضخمة ومن خلفها كان شبلان رائعان يتبعان خطواتها، يقفزان فوق بعضهما بعضًا ويلعبان كهرين لا يحملان همَّ ما يحيط بهما، ينقلبان على ظهورهما ليظهر بياض صدريهما الناصِع، تزأر أمهما ليلْحَقَا بها؛ فيركضان وأرجلهم الصغيرة بالكاد تلمس الأرض، يتمايلون ويهز كل منهما ذيله، وأمهم تتقدمهم لتشق طريقها عبر الغابة كملكة لهذه البقعة من الأرض، لم تلحظهم، ومن حسن طالعهم أن الرياح معاكسة لأجسادهم، ظلوا يتبعونها بأعينهم وهم جامدين في أماكنهم، وراما يهمس لهم بخفوت:

- تلك روح الغابة، أنثى ببر، جميلة ولكنها قاتلة، إن شَعرت بوجودنا فستكون نهايتنا محتومة، فلا شيء يضاهي شراسة أمٍّ تدافع عن صغيرها ومملكتها.

وبينما كان الراجبوتي يتحدث، مدت ماتيلدا يدها وأمسكت بيد يونس خلسة مرة أخرى والتقت عيناهما بحديث شوق وببهجة وتفيض برغبة وحب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نسيم خريفي وليلة صافية يرصِّعها بدرٌ، نثر ضياءه فوق غوا ومحيطها، أسند يونس ظهره إلى حائط البرج جالسًا على طرف سور السطح، وطيف من ذكرى قريبة في الغابة جعلته يبتسم، صار قلبه يخفق كلما اقتربت منه، لم يفصح لها بمكنون فؤاده ويخشى فعل ذلك، سنوات مرت وهو بجوارها، رحل ألبوكيريك وازدادت قربًا منه وكان خيرَ جليسٍ لها، جميلة هي كعزف قيثارة رائق في ليلة هادئة، فتنته بجمال روحها وحسن محياها، كانت تعامله بإجلال وتقدير بينما يخشاها ويبجِّلها كل سكان غوا وحصن أجودا، يرون فيها الأميرة البرتغالية ذات النسب النبيل، راعية كنيسة سيدة التلِّ التي أضحت زيارتها لها طقسًا يوميًا، تزور قبر الدون بداخلها وتصلي من أجله، وينتظرها يونس بالخارج حتى تنتهي، كان مألوفًا لدى العامة، ولكنهم لم يحبُّوه يومًا، والسبب أن الراجبوتي أذاع في الناس أن مساعد الدوقة ما هو إلا جاسوس مسلم، عَلم أن الغدر يحيق به ولكنه لم يأبه بما يقولون عنه، ولا يبالي بنظراتهم إليه، كل ما يخشاه أن يصيبها هي مكروه وقد سلبت عقلَه وصار جوارُها مهجةَ روحِه، مات في غرامها وارتحل بخياله مرتقيًا معها منازل الحب والهوى، وتلُح روحه بسؤال ينغِّص عليه أحلام يقظته، هل تبادله هي ما يكنه لها؟!

شَرد في مشهد أنثى الببر وحكايا راما، كان يحاول ربط كل هذا برؤياه القديمة وما قاله إقبال من قبل، مَرَ بكبد سماء الليل شهاب عابر في الأفق بين النجوم، تذكر أخاه صالح، كان يُحب مطالعة النجوم

أيضًا، أما هو فقد صار يحفظها عن ظهر قلب وهو البحَّار على متن المنصورة، التي صارت الآن مأوى للأسماك ومخلوقات البحر، كان على تلك الحالة من شروده يقلب عينيه في نجوم وكواكب السماء حين سمع حثيثَ خطوات خلفه، التفت ليراها قادمة نحوه، وضَّاءة على الرغم من الظِّلال كانت مشرقة وكأن القمر يستمد ضياءه من جمالها الأخَّاذ، قام ليستقبلها، وما أن صارت على مقربة منه حتى سألته:

- عربي، ما الذي يشغل بالك لتبقى هنا حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل.

- لا شيء.. أتأمل النجوم.

أراد أن يقول «سواكِ»، ولكنه اكتفى برده، واحتفظ في قرارة نفسه بما أراد قلبه أن يفيض به، تطلَّعت إليه وعلى شفتيها بدت ابتسامة رطيبة:

- وماذا تخبرك النجوم؟؟

- إنها دليل الحيَارَى والتائهين في دروب الحياة، يهتدي بها الرحالة والمسافرون، هذا نجم الشمال، وذاك البعيد هو الدب الأصغر، واللامعة تلك النسر الواقع. وربما يظهر كوكب الزهرة قرب الفجر إن كانت ليلة صافية.

- هذه الليلة كذلك! جميلة وإن كان الجو أكثر برودة.

رد وهو يتابع تحرُّكها حوله:

- الأجواء في تلك الأرض غريبة حقًّا، تمطر في الصيف ويشتد القيظ في نهار الشتاء، ولكني لم أرَ للخريف هنا مثيلًا.

جلست على طرف السور بينما ظلَّ واقفًا وتأملت الأفق:

- وكيف هي الفصول في بلادك؟!

- برُّ مصر جميل ومعتدل في كل أحواله، لا حَرٌّ ولا قرٌّ، في مدينتي الصغيرة وهي تطل على الخليج تمطر بين الحين والآخر، ولكن الربيع هناك بديع، خاصة في وادي الطليمات حين يفيض النيل ويغذِّي الترع والروافد بالخير.

- في بلادي ترتدي الجبال ثوبًا من بياض الثلج شتاءً، ويضرب الساحل الأعاصير أحيانًا، أما الصيف فنخرج إلى الشواطئ، وتقام الحفلات في المروج ربيعًا. ويبدو أن ما يجمع مدينتينا هو البحر. فأنت تقول إن بلدتك تقع على خليج، وأنا وُلِدْتُ وترعرعت في حصن أندلسي قديم شمال لشبونة، وها نحن نجلس أمام البحر أيضًا.

- متشابهان نحن.

- كيف؟؟

تلعثم وتحرَّك ليقف بجوارها متأمِّلًا الخواء:

- أقصد مختلفين وإن تشابهت رحلتَانَا، وُلِدْنا في مدينتين تطلان على البحر، وخرج كلانا إلى المجهول بمحض إرادتنا وخُضْنا أهوالًا، وتقلبنا مع موج الحياة ليُلْقينا كيفما أراد، بعيدان عن بلادنا وأهلينا، وعلى الرغم من أن كلًّا منا نبت في تربة مختلفة إلا إننا هنا معًا، ابن النجار وابنة الدوق، عبدٌ ونبيلة.

- لست عبدًا.

قالتها بحدة مقاطعة إياه، نظر إليها فابتسمت وتابعت بلطف:

- مُنحت حريتكَ، وشاء الرب أن يعيدك إلى هنا مرة أخرى، وربما لم يمنحك الدون ألفونسو فرصة أخرى للرحيل لأنه كان على عجالة من أمره للذهاب إلى الحرب.. وكما تعلم، لقد تأثَّر بفقدان زهرة البحار حينها.

- أعلم ذلك الشعور بالفقد، كنت أعمل سابقًا على أعظم سفن الأسطول المملوكي كما ذكرتُ لكِ من قبل، وفقدت كثيرًا من الأصدقاء قضوا نحبهم غرقًا.

- البحر غادر، رُبَّما حرب البر تكون أهون من تلك الحروب بالسفن، مضت أشهر حتى الآن ولم يعد الدون دي ألبيرغايا من رحلته إلى بحر العرب، أتمنى أن تنتهيَ الحرب للأبد.

- نظلم البحر ونتهمه بالغدر، ولكننا نتجاهل أنه ربما للبحر روحٌ مثلنا، يضيق صدره بما نفعله به، أتعرفين يا سيدتي..

وضعت كفها الرقيق على فمه فجأة:

- لا تقل هذه الكلمة مرة أخرى!

تسارعت أنفاسه، وعيناها تحتويانه وصوتها الناعم يلامس فؤاده، ويدها نسل عن شفتيه:

- عربي، حاولت كثيرًا أن أخفي ما علق بروحي من قربك، وها أنا أفشل.. أنا أحبك يا يونس، كل ما فعلته من أجلي، مساندتك لي، بقاؤك جواري طوال تلك السنوات، لم أعد أطيق السكوت..

وتوقفت كلماتها والدمع يترقرق في عينيها، حاولت أن تشيح بوجهها عنه، ولكنه فاجأها باقترابه منها، دفعه الشوق إليها واختلطت أنفاسهما قبل أن تلتقي شفتاهما، يدها تحركت لتتغلغل بين خصلات شعره، أما هو فطوَّقها بذراعيه وحين فتحت عينيها كانت عيناه في مقابلها، توقف عن تقبيلها فسألته هامسه متوجسة:

- ما بك؟

- أخشى أن..

لم تتم كلماته؛ شفاهها الوردية الرطبة التقمت شفاهه، سحبته من يده وسار خلفها منقادًا مسلوبَ العقل والقلب، وفي غرفتها ذات الفراش الوثير كان لقاؤهما، نهل يونس من شَهد عذراء لم تُفرِّط في عفَّتها إلا من أجله، قبَّل ثنايا جسدها وكذلك فعلتْ بنَهَمٍ وحب ورغبة، وجموح تمثَّل في تنهيداتهما وآهات

غنج تجودُ بها دون وعْيٍ، أحبَّت كونها معه وبين يديه، ارتعشت، وتعانقا، انتفض فضمَّته، ليلة لم تكن كأيَّةٌ ليلة في حياتهما، نالها بعد أن تمنَّاها وتمنَّته، ومنحته كِيانها، وعلى الرغم من برودة الجو قد كان جسداهما العاريان دافئين، والعرق يكسوهما، احتضنها متقابلَيْن، كان منهكًا وكانت تتأمَّل وجهه وتمرر أناملها عليه، كان أجمل ما وجدت على تلك الأرض؛ فارسها النَّبيل، غفى وأغمضت عينيها بعد أن وضعت رأسها على صدره؛ تنعم بدفء أنفاسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعدَّدت زيارات يونس إلى غرفتها، يتسلَّل في الليل إلى خِدْرِها الذي يغلفه الحب ولذَّته، شغُفَ بكل تفاصيلها، عطرها صار ملازمًا له، كانت عروسه غير المعلنة وسره الذي حرص على إخفائه، يشاركها النهار متفقدًا الأعمال وتدبير أمور التجارة والمراسيم، جولاتها في الميناء وبين الجند والبحارة، صارت أكثر حيويَّة وقد وجدت السعادة طريقها إليها، يتسلل بعد الفجر خارجًا من غرفتها بعد أن يطبعَ على جبينها قبلة رقيقة، تشعر به فتمسك بيده وتتمنى بقاءه، ولكنه يمضي إلى مسكنِه في طرف الحصن، وفي الصباح يلتقيان والخجل يورِّد وجنتيها، لا يتحدثان فيما يدور ويختلسان النظرات بين الحين والآخر، الحياة هي طعم شفاهها ومسام جلدها الناعم. فُتِنت به وبجسده المفتول وتلك الندبة على وجهه، عيناه البندقيتان ولحيته مضبوطة الرسم. كان خطيئتها المعسولة، ولذتها الأولى في عالم الرجال، هو الوحيد الذي استحق أن ينال عذريتها، كانت مجنونة به شرِسة في لقائتهما الأخيرة، تحتضنه بفخذيها وهو فوقها، أو تمتطي جسده وهو ممدد مسلوب الإرادة لتعض رقبته، مضى شهرٌ وهم على تلك الحال حتى جاءها وقت حيْضها، امتنعت عنه راغبةً فيه، وأمسى ساهرًا إلى جوارها.. حدَّثته عن رغبتها في إعلان علاقتهما، وكان قلقًا مما قد يحدث لهما، القس الجديد في كنيسة سيدة التلِّ كان محققًا في ديوان التفتيش بلشبونة، رجلٌ صعب يبطش بالهنود ويفتش في نوايا جند الحامية البرتغالية، تُرى كيف سيكون رد فعله إن علم بأمرهما، وفي تلك الليلة أخبرته ماتيلدا أنها تريد البقاء إلى جواره طوال العمر، أن تنجب منه صغارًا ينسخون عنه ملامحه العربية التي سحرتها، وتاقت نفسها أن يأخذها ويرحل بعيدًا عن غوا، ربما إلى كوخ بعيد عند ذلك الشلال الذي زاره معها منذ عدة أشهر، راوده القلق والخوف من القادم، وتذكر أن الحياة لا تسير وَفْق هوى البشر.

مرَّت أيام وانشغل من في الحصن بقدوم سفينة من أسطول سوارس دي ألبيرغايا، تشتَّتْ جميع السفن بعد هروبهم من البحر الأحمر قبالة ساحل جدة، وكاد قلب يونس يهوى وهو يستمع للبحارة الذين أقسموا أنهم رأوا أسطولًا مملوكيًّا لا مثيل له، وفي طريق عودتهم انقلب المحيط بعاصفة هوجاء، فما كان منهم إلا أن عادوا إلى غوا دون البحث عن قائدهم الدون سوارس. في ذلك النهار عرجت ماتيلدا على الكنيسة كعادتها وحين خرجت كان يونس في انتظارها، وبينما كانا يسيران إلى الحصن أخبرته عن رغبتها في الزواج منه، وكان ردَّه باهتًا ولم يرُق لها:

- أنا مسلم، وأنتِ مسيحية، أنتِ دوقة نبيلة وأنا عبد عربي..

- دعك من هذه الأمور، سنكون معًا أليس كذلك؟!

- نعم، ولكن كيف سنتزوج؟ وهل سيقبل الدون ووالداك والملك والجند، وراما؟

- ليذهبوا جميعًا إلى الجحيم، يونس أنت لي، ولن أترك شيئًا وهبه الرب لي، يمكنك أن تتعمد وتعلن أنك صرت مسيحيًّا أمام الأب سانتياغو.. وبعد ذلك نتزوج.

- لن أترك ديني.

- لا أقول لك اترك دينك وتحوَّل عنه، ولكن سنفعل ما يُمَكِّننا من البقاء معًا، افعل هذا من أجلي؛ إنها مجرد طقوس، وأبق على عقيدتك داخلك كما تريد، كذلك يفعل الموريسكيُّون في بلادي.

قضى يومه يُفكر فيما قالته، يريدها وأحب جوارها، إنها فُرصته المثلى ليكون سيدًا ذا مكانة ونبلٍ، ولكن لن يقبل به أحدٌ حتى لو فعل ما أرادت، فكَّر كثيرًا في علاقتهما وكيف أنها منحته كثيرًا، ودفعت به إلى الوجود بين القادة والجند حارسًا لها ومساعدًا شخصيًّا، لم يتناول غداءه وظلَّ هائمًا في دروب غوا وفي الذاكرة، بين زحام السُّوق والأفيال المارة إلى الميناء حاملة أجولة التوابل والفلفل الحار، رأى وجه لورنسو دي ألميدا وملابسه البيضاء المذهبة ملطَّخة بدماء تقطر من جرح رقبته، فَزع وظنَّ أن روحَ ذلك القتيل ستظل تطاردُه طالما ظلَّ بجوارها، لم يتأسَّى على موته، ولم يعد هناك أحدٌ يذكر يوم النصر في ديو.. وقرب أحد المعابد وجد تجمهرًا للناس، يسجدون ويتقرَّبون لبقرة مارَّة يتمسَّحون بها وتفيض أعينهم بالدمع، وآخرون يضعون أطباقَ الطعام والفاكهة أمام صنم لإله امرأة سمينة؛ يتضرَّعون لها وتلمس أطرافهم جسدها طلبًا البركات، وفي طَريق عودته إلى الحصن مرَّ بكنيسة سيدة التلِّ، وتوقف أمام بابها الكبير قبل أن يدخل، كان محطَّ أنظار الرهبان وهو يقف متأمِّلا الصليب الكبير فوق المذبح، وتمثال مريم العذراء في أحد الزوايا حزينة الهيئة بحجابها وثوبها الأبيض وعباءتها الزرقاء، والأب سانتياغو يضع كفه على رأسِ صغيرٍ يبكي بينما تحمله سيدة هندية ويتلو صلوات ومباركات، ظلَّ يتأملهما برهة، وخرج قبلَ أن يحدِّث أحدًا. ذهب إلى شاطئ المحيط الهادر بالموج، وقلَّب وجهه في السماء يتحدَّث:

- كلٌّ مشغول هنا بمعبوده، يرونه ويلمسونه، وأنا لم أرَك، ولكنك في قلبي وهذا واقعٌ، أشعر برحمتك، وأتطلع لحكمتك فيما أنا فيه، لم أيأسْ، ولكني غاضب، ولا أجد سبيلي إليك، مرَّ زمنٌ مُذْ دعوْتك وأقمت الصلاة لأجلك، أنا ضائعٌ في هذه الدنيا، واتبعت هواي، ارتكبت كل مُحرَّمٍ لعلي أنسى الحزن وما ألم بي من حال الدهر، ولم أعد، أنا ذاك الفتى من القلزم، أنا يونس يا الله، أحِبُّها وكم أتمنى أن يكون لي ولدٌ منها، ولكني أخشى قدرتك وأن يكون ما كتبته عكس ما أريد، أخشى من الغد وأن تنقلب الدائرة مرة أخرى، أنا ضعيف ولا قوة لي دونك، أرشِدْني وأخبرني أنك معي وإلا ضعت وهلكت بعيدًا عن طريقك الذي خرجت من أجله.

قضى ما تبقى من النهار على الشاطئ، غيم يأتي ويرحل، وموج يتقلَّب، ونوارس تحلق فوق سطح المحيط حتى بدت في الأفق ثلاث سفن، الأعلام البرتغالية ترفرف فوق صواريها بينما تتخذ طريقها إلى المرفأ، الصليب الأحمر على الشراع الأسود لأكبر السفن كان علامة دي ألبيرغايا، شاهد السفن ترسو، بينما راما يقود خيْله لاستقبال الدون، ذهب إلى الحصن ليخبر ماتيلدا التي ابتهجت لعودة الرجل وقد لاحظت تجهم يونس، تحسست وجهه وسألته:

- ما بك أيها الوسيم؟

- متوعِّك قليلًا، ربما لأني لم أتناول شيئًا منذ الصباح.

- أين كنت طوال هذا الوقت؟؟

- ذهبت إلى الميناء لمتابعة تحميل سفينة الملك، كان عليَّ التأكد من أن كل شيء أمرتِ به على ما يرام.

طوقته بذراعيها ووضعت رأسها على صدره:

- كم أحبك يا عربي!

قبل رأسها على الرغم من جموده، أزاحها برفق وهو يتطلع إلى وجهها:

- أنا أيضًا أحبك يا جميلتي، هل نذهب لاستقبال الدون؟

كانت تلك المرة التي تتخلى فيها عن حذرها وتقوم باحتضانه في بهو الحصن الخالي إلا منهما، اتخذا طريقهما إلى بوابة الحصن لاستقبال نائب الملك العائد من الحرب، وبينما هما واقفان سألته:

- هل فكرت فيما عرضته عليك؟

أومأ برأسه، فاستطردت:

- إلى ماذا خلُصت؟

- سأفعل أي شيء لأكون بجوارك.

قبضت على يده وقد غمرتها سعادة بالغة:

- إذن فلنفعل هذا يوم الأحد القادم، سآخذك إلى الأب سانتياغو ليُعمدك أمام جميع الناس خلال القداس، أي بعد يومين من الآن، وهكذا سيكونون جميعًا شهودًا على ما أصبحت عليه. سيكون عليك اتخاذ اسمٍ جديدٍ أيضًا، أرى يونان مناسبًا لبحار نجى من الغرق مرارًا.. ولكنه غرق في حبي أخيرًا.

ظلت تتحدث بغبطة وفرح حتى وصل الدون، استقبلته هي وبقية القادة، وما لبث الرجل أن ذهب إلى جناحه بالقصر بعد أن سألها عن الأمور وكيف تسير الحياة في غيابه، كان دي ألبيرغايا قريبًا من تيموجي وراما على عكس ما كان عليه ألبوكيريك، وبدى على وجه الرجل أثر هزيمة نكراء على يد الأسطول المملوكي، تطلَّع يونس لمعرفة تفاصيلها، ذهب إلى الميناء مرة أخرى ليسأل البحارة عمَّا لاقوه في معركتهم، عادة طالما قام بها بعد كل رسو لسفينة قادمة من بحر العرب، جميعهم يجزم أن أسطولًا ضخمًا للمماليك صار يسيطر على البحر الأحمر برفقة سفن حلفائهم العثمانيين.

في المساء ذهب إلى حوريته، كانت ترفل في ثوب من حرير أزرق مذهب ولا شيء تحته، احتضنها وقبلته، أجلسها على ساقه بينما يرتشف شهد شفاهها، لقاء محموم أحسَّت أنه يلتهمها، كان شغوفًا قاسيًا، وأحبت ذلك، أنهكها، وقد نال منها مرارًا؛ حتى ارتخى جسده فوقها، ظل صامتًا كعادته محتويًا إياها بين أضلعه، أغمض عينيه، وظلت تتأمله مبتسمة. يومان يفصلانها عن قربه المَتين، سيصير مسيحيًّا من أجلها، ومن بعدها ستتزوجه وستقيم حفل رائعًا بحضور النائب ونبلاء ساحل المليبار.

وبعدها سترسل لأبيها وأمها لتعلمهما بالأمر، وستطلب من الملك منحه وسامًا ولقبًا، ستنجب منه ذرية نبيلة تحكم أرض الهند يومًا ما.

اليوم التالي قضته مع الدون الذي كان حزينًا على ما حاق به أمام ساحل جدة، أخبرها بالفخ الذي وقع فيه وكيف نجى بأعجوبة من الأسطول المزدوج، عثمانيون ومماليك تحالفوا لصد هجومه الذي كان ضمن خطط ألبوكيريك، أراد أن يحظى بالمجد لنفسه وأن يكتب لخُطة سَلَفِه النجاح، اقترح راما أن يقود هجومًا على حدود آل لودهي قرب مومباي للحصول على مزيد من الغنائم، وافقه دي ألبيرغايا على أن يتم هذا بعد استجماع قواهم، وطلب مددًا من حصن كوتشي وبقية حصونهم على الساحل، ووقت الغداء جاء الأب سنتياغو وكانت فرصة مثالية لأن تخبر ماتيلدا الجمع بأمر تعميد يونس.. الأنظار أحاطته بين حائرة في أمره وفرحة لما اختار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حل الليل والقمر مُحاق إلى منتهاه، ليلة باردة على الرغم من أن لا نسيم ولا ريح فيها، كلاب تنبح في طرقات غوا، وبومة بيضاء تحلق فوق الحصن بحثًا عن عشاء، استحم يونس بماء بارد لا يُناسب الأجواء، ارتدى ملابسه وخرج متجها إلى حيث يقضي لياليه في الآونة الأخيرة، أركان الحصن تكتظ بالبحارة ورجال الدون، لم يعر نظراتهم أي اهتمام بينما يمضي في سبيله إليها، لديه رغبة شديدة بالبكاء في كنفها، مشى والشوق يسبقه إلى حيث تنتظره، في الصباح سيرضخ لرأيها وما تخطط له، سيذهب إلى الكنيسة برفقتها، سيحضر قداس الأحد ويستمع لعظة القس قبل أن يُعمد أمام جميع الناس، سيصير يونان بعد أن كان يونس، وربما أهدته صليبًا كمثل الذي تعلقه في رقبتها ويتدلى بين مفرق نهديها، كانت أخبرته أنه هدية من والدتها ليحفظها من الشرور، ولكنها تستبدله بين الحين والآخر بقلادة الخرز التي أهداها لها.. تحبه ولا جدال في هذا، ومحظوظ هو بها، ارتقى الدرج الحجري بخفة حتى صار أمام باب غرفتها، تلفَّت حوله ليتأكد من خلو الممر وطرق الباب ثلاثًا، فتحت وجذبته للداخل وأغلقت الباب خلفه، دفعته ضاحكة إلى الحائط وضغطت بجسدها عليه، قبلته كما لم تقبله من قبل و.. دوى صوت صراخٍ خارج الحصن أفزعهما.

دُقت أجراس الكنيسة، وتعالت الصيحات، ومن شرفتها رأوا النيران تتأجج في الميناء، تنتشر بسرعة بين السفن وتكاد تصل إلى باب الحصن، حالة من الفزع تحدث في الأسفل والخيل يركض على غير هدى فارًا من النار، والجند والناس يهرعون بعيدًا عن السعير الذي راح يلتهم كل ما في طريقه، وانعكس ضي النيران في عينيهما وما لبث يونس أن ركض ناحية الباب، تركته يذهب ليساعد في إخماد النيران وراحت هي تبدل ملابسها لتلحق به، ومع وصوله إلى باحة الحصن سَمع الجند يصيحون: هجوم! نحن نتعرض لهجوم!

من ذا الذي يجرؤ على هذا الفعل، سلطان بيجابور؟! بالتأكيد لا، فهو في سلام مع أصحاب غوا الجدد، ركض تجاه المرفأ مع الجند حتى صاروا وسط جدران من النار، لم يكن يعرف ما عليه فعله وهو يرى اللهب يصعد إلى الصواري والأشرعة، حمل الرجال من حوله الدِّلاء ركضًا إلى الماء، وآخرون حاولوا سحب ما يمكنهم إنقاذه بعيدًا، وانشقت النيران بجند يحملون صوارم لامعة وعمر المكان صوت صياح طغى على فرقعة النار، تفادى نصلًا مر من فوق رأسه، ولم يكن يحمل في يده

سوى دلو ماء فارغ، صد ضربات مهاجمه والمعركة تحتدم من حوله، الموت يحاصرهم بسيوف تحمل المنية، ونيران تشتاق لشواء جلودهم، لم يكن هناك وقت ليتعرف إلى هوية المهاجمين، كانوا يرتدون دروعًا فضية وخوذات تعكس وهج النيران، حاول جاهدًا ألا يُقتل وهو يركض هنا وهناك ويقفز من فوق اللهب، بحث في كل مكان عن سلاح حتى وجد حربة في يد جندي برتغالي صريع، أخذها ولوح بها في الهواء ليبعد المهاجمين عنه، ومن حوله يتساقط رجال الدون من هنود وبرتغاليين، وانكسر الرمح الذي لم يكن يعلم كيفية المبارزة به، ومن خلفه ارتفع صوت الدون دي ألبيرغايا يحث رجاله على الصمود:

- إنهم المماليك.. امنعوهم من الوصول إلى الحصن.

واندفع الرجال إلى قلب معترك القتال، ويونس صار يقاتل بجزء الرمح المكسور مدافعًا عن نفسه، لم يُرد قتل أحد وقد علم من هم مهاجموه، فكّر في التراجع والانسحاب إلى الحصن خوفًا من أن يُصاب أو يُصِيب، كان خائفًا ولا يدري ما سبب تلك الرجفة التي أصابت جسده، وبينما يحاول التراجع تعثَّر في أحد القتلى وسقط، ومن بين الدخان وعلى وهج النيران رأى شخصًا قادمًا نحوه، لعله ملك الموت جاء ليظفر به، حاول النهوض فسقط مرة أخرى ونجح في الثالثة قبل أن يهوى السيف على رأسه، تصدى لضربة موت قسمت ما يمسك به من بقايا الرمح، ولو وصلت إليه لشجَّت جمجمته لنصفين، ركل مهاجمه ليتراجع خطوتين للخلف، ووقفَا أمام بعضهما بعضًا.. النيران تحيط بهما ويونس الأعزل في مواجهة وجه خُيِّل إليه أنه يعرفه.. والرجل الذاهل أمامه فغر فاه وهو يحملق في وجه من ظن أنه عدو، وتمتم الرجل:

- يونس!!

قُبض قلبه وأفلت ما في يده وهو يُحملق في وجه مبارزه، لقاؤهما تأخَّر لأكثر من سبع سنين، آخر مرة رآه فيها كانت النيران تحول بينهما، وكأن ما حدث بالأمس كان قريبًا بل هو اليوم! الرئيس إبراهيم الصباغ ابتسم وركض ليحتضن جسد يونس الذاهل، اغرورقت عنيا الفتى بالدمع والرجل يتأمله قائلًا:

- والله لأنت يونس!

وبينما هما كذلك إذ هاجمهم أحد البرتغاليين، تصدى الصباغ بمهارة وقتل الرجل في ومضة عين، سحب السيف من يد الصريع وألقاه إلى يونس الذي تلقفه ولم يقوَ لسانه على الحديث، والصباغ يجذبه من يده ليبتعدَا عن صخب المعركة:

- كنت أعلم أنك حي.. ولكني لم أتوقع وجودك هنا!

ومع آخر حروفه دوى صوت بوق عميق، ورأوا الخيالة الهنود يقتربون من بوابات الميناء، تَلجم يونس من فرط المفاجأة، ظن أنه داخل حُلمًا وأمنية قديمة لم تتحقق، ولكن الصباغ صاح في رجاله آمرًا إياهم بالانسحاب إلى السفن والقوارب، ومن خلفهم كانت النيران تتأجج أكثر فأكثر لتحول بينهم وبين عدوهم، جذبه الصباغ من ذراعه ولكن قدم يونس ثُبتت، أحس بثقل يجذبه لأسفل ويمنعه من الحركة، التفت إلى الحصن المرتفع خلف جدار اللهب، وقبضة باردة اعتصرت قلبه وكادت أن تقتلعه

من صدره. وقَعُ أقدام الخيل يقترب أكثر وإبراهيم الصباغ على حافة المرفأ يحثه على التحرك، وما لبث أن استدار وانقاد ركضًا مع المنسحبين، حتى وجد نفسه بداخل قارب يُبحر في ظلمة الليل ويبتعد عن الميناء المشتعل وشاطئ غوا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كيف هي الحال إن فقدت أغلى الأشياء على قلبك، أن تسقط في هُوَّة الخوف من بعد أمن، حين تكون قريبًا مما تطمح وفجأة تتحطم سفن آمالك، ترى النيران تشتعل في أشرعة أحلامك، ويصبح ما ترنو إليه مجرد دخان أسود يغشى روحك، تذرف الدمع متحسِّرًا وقد حال بينك وبين من تحب فراق دون عودة، بخطوات واهنة مرتجفة جالت ماتيلدا في الميناء بحثًا عنه، طلع الصبح والنيران خمدت وارتفعت أعمدة الدخان، نُقل الجرحى إلى داخل الحصن، وبقيت الجثث المتفحمة والمشوهة على رصيف المرفأ، أعياها البحث ووجع قلبها، أحست أن الأرض تميد بها من كثرة ما رأت من دماء وقتلى، انساب الدمع من مقلتيها وانتفخ جفنها، فُجِعت مما حاق بسفن الأسطول والمرفأ وجند وأناس كانت تعرفهم، ويونس مفقود.. حبيبها الذي أصبح يوم تعميده يوم فقدانه، ليته يأتي ويكذِّب ما تراه من دمار، ولكن لا أثر له بين القتلى، ولو كان أحد المتفحمين لعرفته، كانت تائهة يقود الخوف قدميها حتى رآها دي ألبيرغايا، أتى نحوها وقد هاله ما رأى في وجهها:

- سيدتي عليكِ العودة إلى الحصن!

تطلعت فيه بوجهٍ باكٍ وبنبرة يأس سألته:

- هل وجدتموه؟

- لا، ولكننا مازلنا نبحث عن المفقودين، كانت ليلة دامية وهجوم مباغت لم نفلح في صده، لدينا كثيرٌ من الخسائر. أرجوكِ عودي إلى الحصن، المكان هنا خطر ولا يليق بأن تكوني هنا بين الموتى.

- لن أرحل حتى أجده.

- »لن تجديه أيتها الدوقة«

جاءت الكلمات من خلفها بصوت راما الراجبوتي، استدارت إليه:

- ماذا تقول يا هذا؟

- لقد رحل معشوقك المدلل دون رجعة.

لطمته على وجهه بغتة، صفعة سمعها كل من حولهما، كانت مباغتة وتفاجأ بها الراجبوتي الذي شعر بحرقة وغيظ وآثار أصابعها على وجهه الأسمر، تحسَّسَ موضعها مبتسمًا:

- صفعتك هذه شرف لي، سيدتي.

هَمَّت بلطمه مرة أخرى، ولكن الدون أمسك بيدها وعنَّفها:

- ماتيلدا، توقفي! راما أحد رجالنا المخلصين.

غمغم الراجبوتي:

- والمُخلصون على هذه الأرض ليسوا كثرًا.

نزعت يدها من بين أصابع دي ألبيرغايا وهي تنظر بغضب في وجه راما:

- إياك أن تتفوه بأيَّة حماقة، وإلا كان عقابك عسيرًا.

بُهت راما ورفع حاجبيه:

- سيدتي، هل هذا جزائي؟ لأني أقول الحقيقة!

سأله الدون وهو يتقدم ليحول بينهما:

- تحدث يا راما دون ألغاز!

- عفوًا سيدي، ولكن هذا العربي يونس، رأيته يهرب مع بحارة المماليك اللذين هاجموا الميناء.

- أنت كاذب!

قالتها ماتيلدا، بينما تابع هو بنبرة ساخرة وهو ينظر إليها من خلف جسد الدون:

- لقد حذَّرتها أنه جاسوس، ولكن الدوقة رفضت تصديقي، يمكنكم سؤال رجالي وكل من بقي حيًّا من القتال، لقد هرب وأظن أنه لن يعود مرة أخرى، وربما تكون عودته بهلاكنا جميعًا وقد علم كل صغيرة وكبيرة عن غوا وحصن كوتشي وكل تدابيرنا.

- اصمت أيها الحقير!

استدار إليها الدون غاضبًا:

- لماذا قد يكون راما كاذبًا؟؟

- إنه لا يحبه.

- ماتيلدا، الأمر لا يتعلق بالحب والكره، ولكن يبدو أن العربي خذلك بالفعل..

رفض عقلها تقبُّل الأمر، أحسَّت بألف مطرقة تضرب رأسها، ونال الغثيان من روحها، تسارعت أنفاسها وراما يقول مُكملًا حديث الدون:

- يمكننا اللحاق بهم إن أردت سيدي الدون، نهاجمهم وقد أمِنوا ألا نفعل لحرقهم سفننا ولكن مازالت لدينا طرادات سليمة.. وحينها سنثبت للدوقة أننا صادقون، حين آتي برأسه لها.

كان الدمع ينهمر من مُقلتيها، وارتفعت حرارة جسدها، وألم شديد راح يغزو أسفل بطنها، وضعت يدها موضع الألم وقد مادت بها الدنيا وسقطت أرضًا مغشيًّا عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

12

بطسة عملاقة راحت تمخر عباب المحيط، دفع الهواء أشرعتها الكبيرة وخفقت راية المماليك الذهبية فوق أعلى صواريها، ضجَّ سطحها بصخب هادر، غناء واحتفالات بنصر عظيم، عثمانيون ومماليك ومتطوعة يقودهم الرئيس إبراهيم الصباغ، كان قد لحق بأسطول دي ألبيرغايا وتتبعه لثلاثة أشهر عبر المحيط الشاسع حتى استقر الأخير في غوا، وكانت فرصته للانقضاض على مرفأ المدينة في ليلة دهماء، أحرق الصباغ سفن الإفرنج الرابضة في ميناء المدينة المسلوبة من سلطان المسلمين، وكانت مفاجأة عظيمة له حين رآه، في بداية الأمر لم يعرفه وكاد أن يقتله، وعلى وهج النيران المتأججة عرفه على الرغم من تبدّل مظهره، نعم، هو الفتى يونس وإن صار شابًّا قويًّا وتغيرت ملامحه قليلًا، وصارت فرحة النصر مضاعفة، حمله معه بقاربه ومن ثم إلى سفينتهم الرابضة في عُرُض البحر، وتعجب من وُجُومه وصمته، السنون قادرة على تغيير الناس وتبديل سرائرهم، وما قضاه الشاب في الأسر كفيل.. على الرغم من ذلك قام الصباغ بتعريفه إلى طاقم سفينته:

- أيها الناس! رحِّبوا بأحد أبطال معركة ديو، يونس بن أيوب المصري.

هلَّلَ البحارة، وزَيَّنت وجوههم ابتسامات فرح، احتضنه الصباغ:

- سنتحدث كثيرًا، وستقص علينا كل ما فاتنا على أرض الهند يا فتى، أخبرنا لاشين الألفي بإيثارك وبقائك مع صاحبك الشيخ.

- قابلتم الألفي؟!

- نعم، في كاليكوت يوم صددْنا هجوم ألبوكيريك على المدينة، كنا هناك ونجى الوغد بأعجوبة من الهلاك ودمار أسطوله.

أحس يونس بالخِزْي، اكتفى بابتسامة باهته وإبراهيم يستطرد:

- وبالتأكيد سأحكي لك قصة رحلتنا الطويلة والتي استغرقت سنوات حتى وصلنا إلى بر مصر، الذي لم نمكث فيه إلا بضعة أشهر قبل أن يُكلفنا السلطان الغوري بالعودة إلى هنا، عليك أن تأخذ قسطًا من الراحة فطريقنا طويل.

- هل سنعود إلى بر مصر؟؟

- سنذهب أولًا لملاقاة صهركم الأمير حسين الكردي والرئيس سليمان باشا بمملكة الكجرات، أسطولنا مُرابط هناك في ضيافة السلطان مظفر شاه.

- صهر من؟!

- نعم، لقد تزوج أخوك الذي يشبهك، من ابنة الأمير حسين الكردي، وأقيم لهما عرس فخم.

أمسك إبراهيم بكتفي يونس وتابع حديثه:

- ستحل ضيف قمرتي، فأمامنا كثير من الحكايات لتروى.

ليلة قصيرة خلد فيها الصبَّاغ إلى النوم وما لبثت أن أشرقت الشمس، ويونس مستيقظ لم يذق جفنه النوم، حائر النفس يلومها، لا يعرف إن كان هذا حُلمٌ أم واقع فُرِض عليه من جديد، ولكنه اختار الرحيل عن غوا وعن محبوبته الجميلة، تلك التي اختار البقاء معهاَ وذاق في كنفها أشهى وأجمل أيام حياته، خذلها وتخلَّى عنها ليلقي بنفسه في البحر مجددًا، ولكنها «مشيئة الرب» كما كان يقول الدون ألبوكيريك كلما جدَّ أمرٌ عكس هواه، حدث كل شيء بسرعة لم يُدركها، الحريق والقتال، وظهور إبراهيم الصباغ، طالما ظن أنهم نسوْه وذهبوا لحال سبيلهم، وتفاجأ بأن الأمير لاشين الألفي قد أخبرهم بأمره، بل الأعجب أنه عاد معهم إلى مصر.. ليلة عصيبة قضاها يتقلب على فراش صلب وقد اعتاد جسده الوثير من حرير وفراء، وماتيلدا التي يفتقد حضنها ولين جسدها وأنفاسها الدافئة التي تبدلت برائحة البحر والطحالب العالقة في بدن السفينة، كان قد نسي الإبحار، والآن عاد إليه، حثته نفسه على البحث عن سبيل للعودة إليها وتصارع بداخله مع يونس آخر من زمن بعيد، ولعل الله استمع إلى مناجاته يوم وقف على البحر في غوا مناشدًا الغوث والنجاة من مصير مجهول كان ينتظره، تغيَّرت الحال الآن، ولن يدخل كنيسة سيدة التل ليتعمد ويصبح مسيحيًّا، وعلى كل حال انتهى به المطاف لمجهول جديد فوق موج لا يدري أين سيلقيه هذه المرة، عقله لا يتوقف عن جدال نفسه..

يفتقدها..

يشتاق إليها..

وقد خذلها..

لا يعلم أسيلتقيها مرة أخرى، أم إن القدر قد حال بينهما إلى الأبد، ولن تغفر له فعله، يعلم هذا ويفكر كثيرًا ماذا ستقول عنه. وكيف ستعيش دونه، من سيحظى بها بعد رحيله، ولمن ستسلم قلبها وروحها؟! ولكنها ليست من هذا النوع، قاسية القلب ولم تَلِن إلا له، ذات عقل ورأي وتدبير، يبجلها جميع الناس ويهاب حضورها أشجع الفرسان، وهبته كل شيء وكان الخذلان من نصيبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قدَّاس تشييع جثامين من قضوا نحبهم في معركة ليلة السبت الدامي، وقف الأب سانتياغو يلقي الكلمات بوجه جامد، لم يُفرق بين هندوس ومسيحيين، اقتطع لهم مساحة من حديقة الكنيسة، وضعت صلبان خشبية على جميع القبور، وشهد الجنازة جموع غفيرة من أهل غوا، وقف تيموجي حزينًا وإلى جواره دي ألبيرغايا وزمرة من قادته، وغاب عن المشهد راما الذي ذهب في إثر السفن المملوكية، وماتيلدا التي لم تغادر غرفتها وقد ازداد قلبها حُرقة بعدما عَلمت بما في أحشائها، لم تعهد نفسها ضعيفة منذ زمن، والآن صارت في عيون جميع الناس عاهرة العربي، تمنَّت لو أنه مات بالفعل ولم يهرب مثلما يقول ذلك الهندي الوقح، لم يجف نبع الدمع في عينيها، وامتنعت عن الطعام وحتى رؤية خادماتها، حاولت إقناع قلبها بأنه لم يخذلها ولم يخُن عهدهما، وأبى عقلها إلا أن يدور في فلك الاحتمالات، الهَجر علقم، والفقد تيه فشلت في استجداء دليل فيه.

جاءها دي ألبيرغايا ذات مساء، اطمأنَّ على حالها ولم يجد كلمات مناسبة ليطيِّب خاطرها أو لومها، كانت في حالة سيئة وكأس الشراب لا يفارق يديها، دائمة الحركة كسَبُع أسير، تدور في محيط

غرفتها بين الشرفة والفراش، ترقب أن تأتي سفينة بخبره أو يفشل راما في إقناعها بكذبته الدنيئة، وارتفعت السقالات في أرجاء الميناء والسور البحري، تذكرت حين كانت في حصن كوتشي، يوم رأته لأول مرة بين الأسرى وديجو يعالج جرحه، كل لحظاتهما داهمت روحها، أجهشت بالبكاء وهي تتحسَّس بطنها، وجال بخاطرها كلمات أمها حين زارتها منذ سنوات:

- ماتيلدا، أريد أن أحمل أحفادك.

كانت قد عرَضت عليها الزواج من ابن أحد نبلاء التاج الملكي، وأن تعود معهم إلى لشبونة، ولكنها أرادت أن تبقى لتحظى بما تريد، وجه ألبوكيريك برز لها من ظلال ركن الغرفة، وصوته يدوي بسمعها:

- لا تأمني لأحدٍ هنا.. ولا تثقي إلا بنفسك وما تستطيعين فعله.

ليته ما مات، كم تشتاق لحكمته فيما وصلت إليه، وخُذِلت بعده من كل الناس، حتى حبيبها، هل كانت كلماته وهمساته وشغفه وكل شيء قدمه لها، كذبًا وخداعًا!! لو قضى نحبه لكان بين من دفنهم الأب سانتياغو، الذي زارها ليطمئن على حاله، كانت شاحبة ضعيفة، أخبرها بأن الحياة لن تقف، وهو بحاجة لأن تكون قوية، فهي رمز كنيسة سيدة التل، حاكمة حصن أجودا التي عهدها قوية، السيدة التي تدخَّلت في طقوس الوثنيين ومنعت كثيرًا منها، دوقة غوا وتلميذة ألبوكيريك النجيبة، من شيَّدت مجد الإمبراطورية على ساحل الهند، وأقامت الكنائس ليعم ضياء الرب بمشيئته، لا يجب أن يراها أحدٌ مكسورة، حزينة لفقدان عبدٍ، سواء أهرب أم مات، فهو خارج ملكوت الرب، وأن تلك النطفة التي تنمو في رحمها قد تكون هبة، ومن يعلم الغيب إلا خالقها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إبحار طويل من غوا إلى ميناء ديو، تلك المدينة الشاهدة على نصر المماليك على لورنسو دي ألميدا، حدثته ماتيلدا عنه وعن رسائله لها، وكيف كانت ستكون حياتها معه، وكيف أن للرب خططًا أخرى، أن تُحب بحارًا ممن أغرقوا سفينة خطيبها السابق، أيام من الإبحار برفقة إبراهيم الصباغ الذي كان فرحًا ولم يكف عن الكلام حول رحلتهم وشقائهم حتى وصلوا إلى مصر، والأهم من كل هذا أن الرجل تخلَّص من حجر ذنب كان يثقل كاهله، طوال سنوات كان يلوم نفسه على ترك الأسرى خلفه وخاصة يونس، ولكن الله شاء أن يجده مرة أخرى ويعود به إلى ميناء ديو، حيث يستقبلهم الأمير حسين الكردي.. ومن ثم سيعود به إلى مصر ليُلْقِيَ الشابُّ بجسده بين ذراعي والده.

نزل البحارة وسط تهليل وتكبير واستقبال حافل، تقدمهم إبراهيم الصباغ الذي احتضنه قائده مبتهجًا بما حقق من نصر، أخبار ما حدث في غوا سبقتهم إلى قصر مظفر شاه، فقدوا في تلك الحملة سفينة صغيرة شَردت بين تلاطم الموج، ولكن الصباغ عاد مكللًا بالنصر، وبين عبارات الثناء وفخر حسين بصنعه، كان أمير البحار الرئيس سليمان باشا يستقبل هو الآخر رجاله، وبين الزحام والصيحات مال إبراهيم على أذن صاحبه:

- لديَّ مفاجأة لك.

وأتى بيونس من بين البحارة، صمت الكون من حولهم وحدقة حسين تضيق وهو ينظر للواقف أمامه، نعم، هو يونس بن أيوب المصري، ضحك حتى بدت نواجزه وتحركَا تجاه بعضهما بعضًا، احتضنه حسين فرحًا وأعاده مرة أخرى أمام بصره، أمسك بلحيته وشعره الكث:

- والله إنك لأنت يونس..

وجدت الغبطة طريقها إلى قلبه المحطم، وعلى الرغم من كل شيء ضحك هو الآخر:

- سيدي الأمير حسين، إنه يوم سعدي وأشكر الله الذي جعل لقاءنا قدرًا محتومًا.

- والله إني لأسعد الناس اليوم برؤياك، كبرت يا فتى وأصبحت رجلًا قويًّا.

- وكأن فراقنا كان بالأمس القريب.

أخذه تحت إبطه وسار به نحو رجل مستدير الوجه ذي شارب كثٍّ وعمامة كبيرة بيضاء، قدمه إليه قائلًا:

- سليمان باشا.. أقدم لك صهري يونس أخا سليمان.

بهت الرجل وهو يتأمل وجه يونس وقال بعربية للكنَتِها وقع غريب على يونس:

- إنه يشبهه تمامًا.. لولا تلك الندبة.

- هذا أثر جرح شرف وواجب ونُبل، هما توءمان، ويونس هذا أحد رجالي الذين قاتلوا إلى جانبي أمام سواحل تلك المدينة التي نقف على أرضها الآن.

نقل حسين بصره إلى يونس وتابع:

- أعرفك إلى أمير البحار الرئيس سليمان باشا، حليفنا من آل عثمان أرسله السلطان سليم الأول لعوننا في حرب الإفرنج البرتغاليين.

حيَّاه يونس بدماثة وصافحه، وتمنى الباشا العثماني للشاب حياة مديدة مليئة بالأمجاد، ومضوا جميعًا إلى قصر سلطان الكجرات، وفي الطريق قال له حسين:

- إن أيوب سيفرح كثيرًا بعودتك، وكذلك أمك وإخوتك، إنهم يشتاقون إليك وقد علموا صنيعك.

واستفاض في الحكي لساعات جلوسهم في مأدبة مظفر شاه، حفل أقيم على شَرف النصر المؤزَّر، داخل القصر الفخم جلس الرجال حول موائد تعج بصنوف الطعام من لحم البقر إلى النَّعام، وبينما كانوا يأكلون مما جاد به السلطان عليهم لم يتوقفوا عن سرد بطولاتهم، وشاركهم إبراهيم الصباغ قصصهم، وحين جاء الدور على يونس. أخبرهم بما رأى من صنيع ألبوكيريك، اختار بعناية ما يقوله لهم واحتفظ بما أراد في مكنون نفسه، لم يأتِ على ذكرها وقلبه يغَص بالحسرة عليها، ستظل سرَّه الجميل المؤلم، وقِبلة روحه الهائمة بطيفها، ذكرهم بإقبال وكيف أن الرجل ساعده على البقاء حيًّا، وحين سألوه أين ذهب!! أخبرهم بأنهما افترقَا حين سَمح لهم الدون بالرحيل، ولعله الآن لدى أمير يدعى ظهير الدين محمد في مدينة تُسمَّى كابل.. اندهشا، فهم كانوا في ضيافة الرجل نفسه لسنوات،

وهو الذي جهَّز رحالهم وساعدهم في بدء رحلة عودتهم إلى مصر، يسمونه «بابر»، أي النمر بالفارسية، وعدهم بأن ينضم إلى حربهم ضد البرتغاليين حالما يَفرغ من حربه مع الصفويين وما يحاك حوله من مؤامرات، ولكن سلطان الكجرات الجالس على طرف المائدة شكك في قدرة الأمير المغولي وقال ساخرًا:

- ظهير الدين بن الميرزا عمر ليس سوى طفل مدلَّلٍ ينتقم من أعمامه وأخواله، ويريد كرسي الحكم لنفسه بعد أن ذاق منهم الويلات، إنه حفيد ضعيف من بيت تيمورلنك، ولن يصبح ذرة في مجد أجداده.

تعجب يونس كيف أن العالم صغير للغاية وإن بعدت المسافات بين المدن والممالك، ربيب إقبال هو ذاته من ساعد رفاقه الفارِّين من قبضة الموت، وقبيل موت ألبوكيريك سمعه أيضًا يتحدث عن ذلك الشاب المُحارب في الشمال البعيد لبلاد السند، ربما يكون إقبال وجد ضالته وراحته هناك تحت شمس الجبال الحارقة، ظل شاردًا في كل تلك الحكايات التي قصها حسين الكردي على مسامعه، وارتاح قلبه حين علم أن جميع أهله بخير وأمان، حظى سُليمان بزيجة سترفع قدره، وصار أيوب كبير العمال في دار صناعة السفن، ويحيى صار من طلاب الأزهر، وأمه مازالت تحفظ ذكراه وتنتظر عودته.. ولكنه ليس يونس الذي يعرفونه، لم يعد كذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم مطير غائم يبعث الكآبة، فالذكريات تحب مثل تلك الأجواء، تنبت في كنفها وتلتف حول الروح، وبدلًا من بعث الدفء في النَفس تثير الشجن والحزن، شهرٌ مر على فراقهما، ومازالت تنتظر خبره، لم يعد راما ولم يفلح دون ألبيرغايا في إخراجها من تلك الحالة التي ألمَّت بها، ترقب الميناء والأعمال الجارية به من شرفتها، وطيف ألبوكيريك لم يزَلْ يطاردها، كانت عالقة في حزنها تفكر في مستقبل مبهم لذلك الشيء الذي ينمو في أحشائها، لمن سيُنسَب وكيف سيكون بين ظهور بني قومها. صارت عصبية، وإن رأت الخادمات تبالغ في غضبها، تسبُّهم وتلقي في وجوههن أطباق طعام كانت تحبه بالأمس، الهمسات من حولها ضجيج يفتك بعقلها، ونظراتهن مرآةُ ما في صدورهن، روحها لم تهدأ، وراحت الكوابيس تؤرِّق لحظات غفوتها، تشرب وتسهر حتى طلوع الفجر ويداهمها التعب والنوم، تغمض وما تلبث إلا أن تستيقظ فزعة، الغابات من حولها ازداد شحوبها لحزنها، أخبرها الأب سانتياغو أننا البشر نتعرض كما الأشجار لقسوة الحياة والفصول، منا من يُزهر كما الربيع، وآخرون ينعمون ببركة مطر الخير الذي قد يتحول إلى نِقمة، وأيامنا الحارة كثيرة وبالضرورة ينال كل منا خريفه.. وما بعد الخريف إلا حياة جديدة.

كل مكان داخل غوا يذكِّرها به، تراه في زوايا غرفتها وعلى فراشها، خرجت من غرفتها قاصدة المكان الوحيد الذي لم يدخله، كان يتركها أمام الباب بينما تدخل هي، كنيسة سيدة التل، منذ فترة لم تزر قبر الدون ألفونسو، جاءت منكسرة مطأطئة الرأس، وقفت أمام القبر ذي الشاهد الرخامي البارد، تحسست الصليب المحفور على سطحه وتمتمت بالصلاة وانفجرت مقلتاها دمعًا، تلعثمت وراحت تمسح وجنتيها وهي تحدث صاحب القبر:

- ما كان عليك تركي هكذا! أصبحت وحيدة أرجو اللحاق بك إلى عالم الموتى، لم أعمل بنصيحتك ولم آخذ حذري.. ولا أعلم ما عليَّ فعله الآن.

شَردت وهي تتذكر كلماته بعد عودته من ملقة محملا بذخائر وغنائم النصر:

- ماتيلدا، بنيتي إن الناس تتبدل وَفْق أهوائهم وما تريد نفوسهم، وكل منهم لديه المبرر والرؤى الخاصة به، وتتأرجح بنا سفينة الحياة بين فقْدٍ وخذلان وخيانة وصدق في النِّيَّات، وهذا قليل بالمقارنة بما نشتهيه من كذب ووصول لما نبتغي، عليكِ أن تكون قوية فهذا العالم قاسٍ بقدر الجمال الذي نراه من حولنا، وربما يصيب قلبك حزن ونَصَب فلا تتركي نفسك أبدًا للهموم لتجتاحكِ وتهيمن عليكِ. ولا تقسي على نفسك في أمر فعلتِه عن طيب خاطر أو محبة صافية، واعلمي أن ما فعلتِه لا يقلل من قدرك، والأفضل أن تجعلي جميع الناس خاضعين وممتنين لكِ على الدوام. أصدقاء اليوم قد يكونون أعداء الغد كما فعل دي ألميدا معي؛ فلا تثقي إلا بذاتك، ولا تأمني لمخلوق فقد يتغير يومًا، إن عفوتِ فليكن صفحك جميلًا وإن بطشتِ فاجعلي عدوك يخشى نظرتك، وإن كان الانتقام لابد منه، فليكن انتقامًا يليق بأوجاعك، لا تأسفي على أحدٍ واسعَيْ لتحقيق ذاتك، أريقي الدماء إن اضطررتِ لإظهار قوتك، ولتكن القسوة هي ما يرَوْه منكِ لا الطيبة والحِلم.

أحست أن روحه تجوب أرجاء المكان، برودة سَرت في أوصالها، وكلماته الدافئة تسري بوجدانها، تذكرت قصص فتوحاته وحروبه وكيف كان مهيبًا! وبينما هي واقفة أمام القبر إذ جاءها صوت الأب سانتياغو:

- من الرائع رؤيتك مجددًا في كنيسة سيدة التل أيتها الدوقة.

التفتت إلى حيث يقف:

- الرائع حقًّا هو أن الدون ألفونسو مدفون هنا، في البقعة التي اختارها لبناء الكنيسة، مجرد وجوده هنا يبعث الطمأنينة في قلبي.

- أراد أن يُدفن في أرض غريبة.

- ليست غريبة أيها الأب، إنها موضع فتْحٍ عظيم سيغير مجرى التاريخ، نحن هنا بفضل صاحب هذا الضريح، وعلينا أن نحافظ على إرثه وما صنعه من أجلنا.

أومأ القس برأسه مبتسمًا لها، كان سعيدًا بنبرتها التي تخلَّت عن الحزن وإن كان جليًّا على مظهرها، لم تمضِ لحظات حتى جاءهم أحد الجند محدثًا إياهم:

- عفوًا سيدي، أعتذر سيدتي عن دخولي هكذا ولكن راما الراجبوتي عاد.. ومعه بعض الأسرى.

حثَّت الخطى لتسبق الجندي إلى الميناء، قلبها كان ينتفض بقوة، يكاد يخرج من بين أضلعها، ظنت أن يكون بينهم على الرغم من أن تمنيها عكس ذلك، لم تمض دقائق حتى وصلت إلى حيث يقف راما متباهيًا بما حققه، أجلس الأسرى المنهكين وعلى وجوههم آثار التعذيب والضرب، بينما كان يتلقَّى كلمات الثَّناء من الدون ألبيرغايا، لحق الراجبوتي بسفن المماليك بالفعل، واستطاع التسلل إلى إحداها في مساء مُعتِم، أحرق السفينة وأتى ببعض الأسرى معه، ولكن يونس لم يكن بينهم، جالت ماتيلدا في

الوجوه وتمعنت فيها، كانت هادئة على الرغم من البركان الذي يغلي بجوفها وجاءها راما ليقول بزهوٍ:

- سيدتي هؤلاء هم رفاق الخائن الهارب.. أخبروني أنهم كانوا في طريقهم إلى ديو بسلطنة الكجرات.

- ما الذي يدفعني لتصديقك؟؟

- اسأليهم إن أردتِ، لقد قمت باستجوابهم جميعًا وأقسموا على ما قالوه وإن كان قسمهم لا يمثل لي أي شيء، ولكن بالنسبة لأناس مقبلون على الموت فسيقولون الحقيقة.

- وما الحقيقة؟

جذب أحدهم بعنف ليأتي به أمامها وحدثه بالعربية:

- أين ذهب أميركم وصاحبه الذي ذكرت؟!

تلعثم الرجل ولم يدرِ ما يقول، وعلى كل حال لم تكن لتفهم ما سينطق به وإن كانت قد تعلمت كثيرًا من الكلمات والجملَ العربية إلا أن كلمة واحدة جعلت قلبها يهوي، نطق الرجل اسمه، قال: يونس.. وهنا تَرجم راما ما قاله البحار الأسير:

- اسمه يونس، وهو صاحب الأمير إبراهيم الصباغ. قال إنه أحد أبطال ديو وأشيع الخبر بين سفننا الذاهبة إلى الكجرات حيث يقبع أسطولنا.

ما أن انتهى راما من ترجمة كلمات الرجل حتى باغتته ماتيلدا، سحبت خنجر الراجبوتي من غمده ودون أي تردد طعنت الرجل، جحظت عيناه والدماء تتفجر من بطنه، وانهالت بطعناتها على جسده وهي تدفعه للخلف أمام سمع وبصر الذاهلين من حولها، هوى الأسير صريعًا، وتدخَّل راما ليمسك بيدها جاذبًا إيَّاها للخلف بقوة، التفتت غاضبة وكادت أن تطعنه هو الآخر، تطلع إلى وجهها وقد تناثرت الدماء عليه وهي تقول له بغضب:

- اترك يدي أيها الهندي القذر؛ وإلا لحقت به..

فك أصابعه الخشنة عن معصمها وهو يقول بغضب وحرقة:

- لقد سئمت منكِ ومن قومك أيتها المرأة.

تراجع إلى الخلف خطوتين وهو يحوِّل بصره إلى الدون:

- نعم، ما سمعتموه بلغتكم صحيح، سئمت منكم أيها البرتغاليين، تنظرون إلينا من علياء وتظنون أنكم أفضل منا، تعاملوننا بازدراء وكأننا لسنا أصحاب الأرض التي تقفون عليها.

قاطعه دي ألبيرغايا بغلظة:

- عن أي أرض تتحدث أيها الرجل؟! لقد حصلنا على تلك الأرض بفضل دمائنا التي بذلناها من أجل الرب والملك والبرتغال، نحن من حاربنا سلاطين المسلمين واقتطعنا هذه الأرض عَنوة من ملكهم،

وإن حديثك هذا يضعك في موقف صعبٍ للغاية.

- لا أرى أصعب من موقفكم على أرضنا أيها الدون، نحن من ساعدناكم لتحصلوا على القلاع والمدن وموانئ تجارة البهار.

- أنت واهمٌ أيها الراجبوتي، لقد تقاضيتم أجرًا على هذا وغنمتم من ورائنا كثيرًا من الغنائم، نحن أصحاب تلك الأرض الآن، بل نحن أسياد البحار ودويُّ مدافعنا يُسمع من لشبونة إلى بحر الصين، قلاعنا تزيِّن سواحل المحيط.

صفَّق راما لكلمات الدون بسخرية وقال بعدها ببرود:

- انظر حولك، كم وجه برتغالي ترى بين هؤلاء!

- الآن بدأت تثير غضبي أيها الهندي!

- لن أثير أي شيء بعد الآن، سأرحل أنا ورجالي وسنرى كم تصمدون دوننا.

- أي رجال تقصد؟!

أحس راما بالغيظ يَملكه، استدار وواجه البحارة والجند من الهنود، ونادى فيهم بالسنسكريتية:

- أيها الناس، لم يعد لنا مُقام هنا بين هؤلاء القوم، لسنا بعبيد وبلاد الراجبوت تسعنا، الحرب الحقيقية قائمة هناك بين آل لودهي الأفغان حكام دلهي وبين أهل الراجبوتانا.

وبينما هو يتحدث، شُقَّت الصفوف وبرز الحرس وبينهم القاضي تيموجي ذو العمامة البرتقالية، دخل إلى محيطهم بجسده الضخم، خفض رأسه بتبجيل للدون وأبدى أسفه للدوقة بإيماءة رأس وهو ينظر إلى القتيل أسفل قدميها، وما لبث أن رفع بصره إلى راما قائلًا بصوته الخشن القوي:

- إن كنت تريد الرحيل فأذهب وحدك أيها الراجبوتي.

كلماته طعنة في قلب راما، انتفضت عروق عنقه ولم يسعفه لسانه في النطق وصاحبه القاضي يتابع:

- إننا هنا في غوا باقون، وأمامنا كثير لنخوضه، راما لو كنت شخصًا آخر لقضيت بقطع رقبتك لتمردك على التاج البرتغالي.. ولكننا سنكتفي بتركك ترحل.

أعاد كلماته بالبرتغالية مرة أخرى، وصاح في الناس والجند بأن ينصرف كلٌّ إلى عمله، لم يتحدث دي ألبيرغايا الذي بدا متقبلًا ومعجبًا بقرار القاضي، ظلَّ راما واقفًا لا يدري ما عليه قوله وقد خُذل، أما الدوقة القاتلة فأحاطتها العيون تحدق فيها والدماء تغطي صدرها ووجهها، انحنت ومسحت الخنجر بصدر الجثة التي أسفل قدميها، ثم استدارت ووضعته بيد الراجبوتي محدثة إيَّاه بنبرة هادئة:

- لم يعد لنا حاجة لك.

مضت إلى الحصن وتيموجي يعطي أوامره لرجاله بشأن الأسرى:

- أقتلوهم جميعًا، وتجهزوا لمباغتة الأسطول المملوكي عند ديو.

تَرك راما وكأن لا وجود له، نكرة بين الجند والناس والأسرى التي راحت رءوسهم تتدحرج أرضًا، كل هذه السنوات ضاعت هباء، الجيش الذي بناه وَفْق هواه لم يعد مِلكه، وكل تلك الانتصارات حظي بها غيره، فعل كل ما يريدونه وكثيرًا ما تطوع لفعل ما يعزز مكانته لديهم، والآن عليه أن يذوق مرارة النُّكران، بذل ما في وسعه من أجلهم ولا حاجة لهم به الآن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاثة أشهر قضاها يونس في ديو برفقة أصحابه القدامى، الأسطول اكتفى من البقاء في نعيم ضيافة سلطان الكجرات مظفر شاه، أمدهم بكل ما يحتاجونه من مؤن لرحلتهم، وهذه المرة كان هدفهم هو غوا، رتب حسين الكردي وسليمان باشا خطة مُحكمة لاقتحام المدينة واسترجاعها من بين أيدي البرتغاليين، سيشاركهم الهجوم برًّا جيش قوي من سلطنة بيجابور، أقنعت رُسلهم سلطانها إسماعيل شاه محمود بضرورة استعادة المدينة لحكمه من جديد، طمأنوه وتحدَّدَ الموعد، ولم يدرِ يونس إن كانت عودته خيرًا أم خشي عليها أن يصيبها مكروه في تلك الحرب وقد وُضع على عاتقه الجزء الأكبر من المهمة، هو الوحيد الذي يعرف دروب الحراسة وبواباتها ونظمها في حصن أجودا، حيث ستكون ضربتهم القوية، إن سقط الحصن في أيديهم كما خطط حسين فستكون المدينة ملكًا لهم، ودعهم مظفر شاه وأبحرت السفن تجاه الجنوب.

أيام من الإبحار، الشمس تطلع عن شمالهم وتغرب عن يمينهم، أجواء رائعة قضاها يونس مع إبراهيم الصباغ وحكاياته التي لم تتوقف عن مدة مكوثهم عند حفيد تيمورلنك الأمير ظهير الدين بابر، قص عليه ما رأى من عظمة سمرقند وعمائر كابل وحدائق فرغانة، جبال غطَّت قممها الثلوج، وقصور من رخام وزليج تركوازي وفيروزي يسلب الألباب، أما حسين فكانت القصة لديه مليئة بتفاصيل عن الساسة والحكام، وآل لودهي الضعفاء المتناحرون، وكيف أن سلطان دلهي الحائر كان غاشمًا وغاضبًا على الدوام، انتصر على البنغاليين تورك المتحاربين معه من جبال الراجبوت، حيَّرَه أمر ذلك الرجل حقًّا، على الرغم من أن مكوثهم في دلهي تخطَّى العام إلا أنهم فشَلوا في لقاء الرجل، يخشى الغرباء ولا يلتقي العامة، قصره ذو الجدران الحمراء يحيطها جيشٌ من فيلة مدرعة وأكثر من ثلاثين ألفًا من الخيالة والمشاة يقيمون تحت أسواره ويخدمونه بقدر ما يطلق أيديهم في البلاد.

حياة الإبحار التي كان يفتقدها وأناشيد البحارة يملئان الخواء بداخله، غسلت روحه رائحة البحر ووسع أفقه والهواء البارد العليل، على الرغم من خوفه مما قد يحدث إلا أن أمل اللقاء بها ثبُت في قلبه واستقر، تمنى لو سبقه النسيم إليها ليخبرها بقدومه، سيخوض هذه الحرب من أجلها، ربما يقنعها بأن تذهب معه إلى مصر، ولكن ماذا لو سألته عن رحيله المفاجئ!

أيخبرها أنه يكره لحظات الوداع، وإن قال غير ذلك، فهل ستلتمس له العذر؟!

كيف ستفهم أن الله أراد هذا، ولكن الرحيل كان اختياره يوم لقي الصباغ مرة أخرى، نعم، هو كذلك، قدر الله له أن يبقى يونس وليس يونان، وعليها الآن أن تختاره حين يعود لها. في الليل جاء من يجلس برفقتهم وتتناقل ألسنتهم نبأ مصر والسلطان الغوري، وأخبرهم كيف تعلَّم البرتغالية وبعض لغة أهل الهند، وجاء على ذكر ما قاله ألبوكيريك في حق سلطانه المملوكي، أنصتوا له باهتمام وهو يسرد على مسامعهم ما عرفه عن ذلك الدون البحار، وتعجبوا من تلك النبرة التي يتحدث بها يونس عنه،

خَيِّل إليهم أنه يفخم في الرجل ويمنحه قدرًا من العظمة، وأقر حسين ذلك على الرغم من أنه سمع ورأى آثار مرور الدون على البلاد والقلاع، عدو جدير بالملاقاة، بطل لدى قومه وإن كانت نهايته على الأرض وليست بداخل معركة على سفينته، وعلى ذكر السفينة فأخبرهم يونس باسمها وكانت قصته يوم حزن ألبوكيريك جديرة بالإنصات.. وأضاف حسين متأثرًا:

- إن البحارة يموتون كمدًا إن حِيل بينهم وبين الإبحار مجددًا.

الشخص الوحيد الذي لم يكن يتحدث كثيرًا هو الرئيس سليمان باشا، ينصت ويلف طرف شاربه الكث وإن تكلم عن الحرب لا ينفك أن يصف سلطانه العثماني بالقاطع، هازم الصفويين وحامي بيضة الدين، حفيد فاتح القسطنطينية.

لم يتبقَّ لهم كثير حتى يصلوا إلى غوا، ليلة ونهار وسيمسون أمام مقصدهم، وفي تلك الليلة نام جل الطاقم مُبكرًا، لم يتبق على ظهر السفينة سوى قلة من البحارة وإبراهيم الصباغ الذي بقي مستيقظًا كعادته في عشِيَّة كل المعارك التي خاضها، قاد دفة السفينة المُبحرة بنعومة فوق سطح المحيط المظلم، كان شاردًا في حياته التي عاش أكثر من نصفها في البحر، تفاجآ بيونس يرتقي الدرج قادمًا إليه وما أن اقترب منه حتى سأله:

- يونس، ما الذي أبقاك يقظًا حتى الساعة؟

- النوم يجافيني.

- يقلقك أمر العودة إيي غوا أليس كذلك؟

- ربما..

صمت طويل والهواء يتلاعب بالأشرعة دافعًا إيَّاها، ترك إبراهيم عجلة الدفة إلى يونس فقبض عليها بأصابعه مثبتًا إيَّاها، أما الصباغ فجال ببصره في سفن الأسطول المبحرة حولهم وقد أضيئت قليلٌ من قناديلها:

- من يصدق أننا نبحر معًا مرة أخرى، أذكر يوم ديو وكيف قاتلت أنت ببسالة ونجحت في قتل ربانهم الشاب.

تمتم يونس:

- لورنسو دي ألميدا..

- نعم، هو ذلك، كان ابن قائدهم ونائب ملكهم، أذكر أيضًا كيف راحت سفنهم تغرق ببطء والمحيط يبتلعها..

أضاف يونس:

- وبعدها بعام لقينا المصير نفسه، وغرقت المنصورة..

- الحرب كما الحياة لا تستوي لأحدٍ، وها نحن هنا مرة أخرى، أحياء وسنقاتل حتى نحرر ما سُلِبَ منا، ونعود إلى مصر لنمشي في موكب النصر إلى جانب قنصوة الغوري، ستحتفل القاهرة ثلاثة ليالي وتقام المآدب في باحات الأزهر وشوارع القاهرة ستضج بقصصنا وبطولاتنا.

ما أشبه اليوم بالماضي البعيد، كان قد خاض مثل هذا الحديث مع حسين الكردي قبل معركة شاول، لا يتمنى النهاية نفسها، خُيِّل إليه أنه سَمع ألبوكيريك «مشيئة الرب نافذة»، لمَ عليه أن يُرهق عقله فيما سيكون؟ وأن يوجع فِكره بما كان؟ حديث إبراهيم لم يتوقفْ، ومرة أخرى جاء يونس فيضٌ من ذكرى، حين جاء صاحبه على ذكر ظهير الدين، لا يعرف لمَ كان إقبال وكانت رؤياه عن البر حاضرَيْن في ذهنه بالتزامن مع حديث الصبَّاغ الذي استمر مع قدوم الفجر.

جاء الشروق باهتًا، وبدى قرص الشمس كبرتقالة متدحرجة في الأفق، ومن إحدى السفن القريبة صاح منادٍ فهم أن توقفوا، وأن في إثرهم سفينة ترفع راية عثمانية، وما لبثت السفينة أن أبطأت ولملمت أشرعتها، توقف الأسطول بغتة، ومن الشمال كانت طرادة سريعة قادمة، ليست من سفن الأسطول، وبدت كأنها كانت تلحق بهم، وأيقظ البحارة الرئيس سُليمان باشا، ولحق به حسين الكردي إلى السطح، وسارت بروية بين قطع الأسطول حتى استقرت بجوار سفينة القيادة التي تحمل العلم المملوكي، أنزلت سلالم الحبال وبدأ ثلاثة رجال يصعدون، استقبلهم حسين بترحاب وكذلك فعل سليمان الذي ابتسم لقدومهم، ناوله أحد الرجال لفافة ورق وتحدث بالتركية التي لم يفهما معظم الرجال ولكن حسين وإبراهيم فهماها، كانت تحية، وهذه الرسالة من إسطنبول ويجب أن تُقرأ على مسامع جميع الأسطول، تعلقت الأنظار بالرئيس سليمان وهو يفتح الرسالة، مرر عينيه على السطور وهز رأسه بإيماءة لم يفهم المحيطون به فحواها، سأله حسين الكردي:

- ماذا هناك؟؟

ربت سليمان على كتف صاحبه وصعد الدرج ليرتقي خلف دفة القيادة وقال بالعربية بنبرة قوية مرتفعة سمعوها جميعًا:

- مات السلطان قنصوة الغوري..

شهقت الحناجر وارتفعت الأصوات بالرحمات والدعوات التي أوقفها صوت سُليمان باشا:

- قُتل في معركته أمام السلطان سليم شاه الأول حفظه الله، بميدان الحرب في مرج دابق.

جحظت العيون وفغرت الأفواه، كان وقع الخبر صادمًا، كيف يُعقل هذا وهما المتحالفان ضد عدو مشترك، كيف لأخوة الدين والغاية أن يحدث مثل هذا بينهم! عُقدت الألسنة وغابت العقول في متاهات الأسئلة والرئيس سُليمان يقرأ الرسالة على مسامعهم:

- باسم الله..

من السلطان الغازي سليم خان الأول بن بايزيد بن محمد.. إن جاءتكم رسالتي هذه فأنتم أمراء البحر على أسطولنا العظيم ببحر العرب والهند، نبلغكم بما حققناه من نصر على سلطان المماليك الذي هلك رعبًا من ملاقاتنا في مرج دابق.. وكان هذا يوم الخامس والعشرين من رجب في العام الثاني

والعشرين وتسعمئة من الهجرة، وإن كل من لديكم من مماليكه ورجاله هم في حُكم العدو إن رفضوا الانصياع لكم وتقديم البيعة لي. وقد حُزْت مُلك الشام والحجاز والطريق إلى القاهرة ليس ببعيد، وأن من انحاز لي من مماليك الغوري فقد صار لدي من المقربين المجتبين، وإن عذابي على من ابتغى غير ذلك.

والسلام على من أراد السلام.

ما أن انتهى من كلماته حتى هاج سطح السفينة بصيحات الاستنكار، وجذب حسين الورقة من يد سليمان باشا الذي نادى بالتركية في رجاله:

- تأهبوا يا رجال آل عثمان.

سُحبت السيوف والرماح وكان قد صعد إلى متن السفينة مزيدٌ من البحارة العثمانيين وهو يتلو الخطاب، هول المفاجأة ووقعها كان ثقيلًا على النفوس، حاق بإبراهيم ويونس والكردي الضيق ككل الرجال، المشاحنات بين البحارة والتدافع سيطر على المشهد والريس سُليمان يصيح في حسين الكردي:

- اطلب من رجالك التأني أيها الأمير.

- لا أصدق هذه الرسالة.

قالها حسين وهو يلقي بها في وجه العثماني الذي تلقَّفها:

- إنها تحمل ختم السلطان..

- ليذهب سلطانكم إلى الجحيم إذن.

سحب سيفه ليشهره أمام سليمان باشا الذي تراجع للخلف:

- أحذرك من مغبة هذا يا حسين.. نحن أكثر عددًا.

- لن أنصاع لتلك الأوامر يا رجل، إن سلطاننا هو قنصوة الغوري.

الوضع كان ملتهبًا، وانتقل إلى بقية السفن الأخرى، راحت أسطحها تموج بالصيحات، يودون معرفة ما يحدث على متن سفينة القائد، تبادل الصباغ النظرات مع أميره وهما يلصقان ظهريهما ببعضهما بعضًا وإلى جانبهما يونس الذي لم يجد سوى حديدة صغيرة، أمسكها في مواجهة العثمانيين، وسليمان يقول للكردي:

- صدقني يا رجل، اترك سلاحك؛ نحن أخوة.

- أي أخوة هذا وقد غدر سلطانكم اللعين بالرجل الصالح!

- أمير حسين، لقد ضايفتنا في بيتك وحضرت عرس ابنتك على أخي هذا الشاب، أبحرنا معًا وانتصرنا على أسطول البرتغاليين في جدة معًا، وتتبعناه إلى هنا وكنت تحت إمرتك، أطعت أوامرك

وانصعت لخططك، والآن تبدل الأمر.. أطع أوامري وسأحرص على سلامتكم جميعًا.

في الوقت الذي كان حُسين يُفكر فيه في كلمات الرجل، قال إبراهيم:

- أقسمنا على المصحف للسلطان الغوري ولن نبدل بقسمنا، أمير حسين، لا تثق في هذا الرجل، لقد ظلَّ طوال رحلتنا صامتًا، ويبدو أنه كان يعرف بغدر صاحبه سليم.

- ريس إبراهيم، لا داعي لمثل هذه الأقاويل، نحن رجال الشاه أينما وضعْنا، والله لم نعرف أي شيء من هذا ونحن معكم في البحر منذ ما يزيد عن ثمانية أشهر، ألقوا أسلحتكم ولكم وعد حق بأن ترجعوا إلى دياركم آمنين.

وصاح أحد البحارة المماليك في مقدمة السفينة:

- والله لن نُلقي سلاحًا أقسمنا على حمله أما الغوري..

وكانت هذه الكلمات شرارة حرب الأخوة، هجم المماليك على العثمانيين، وبدا أن المعركة ستكون دامية حيث سقط اثنان من كل جانب بمجرد البداية، وراح حسين يصيح فيهم:

- توقفوا! ألقوا سلاحكم!

تعجب إبراهيم من فعلِه وكذلك يونس، وبينما كان حسين يُلقي سيفه أرضًا كانت المعركة تحتدم بمقدمة السفينة، وضاع صياحه هباء، انكب الجند العثماني يطوق بإبراهيم الصباغ، حاول التملص ولكَمَ أحدهم ولكنهم تمكنوا منه، أحكموا وثاقه وكذلك فُعل بيونس الذي أخذته المفاجأة، ووسط صخب هادر أُرقِدوا أرضًا لتلامس وجوههم الأخشاب الرطبة لسطح السفينة، وما لبثت المعركة أن هدأت وقد سيطر البحارة العثمانيون على الأمر.

اقتيدوا إلى بطن السفينة وسط تهليل وتكبير، الوضع انقلب وهزموا، ولكن هذه المرة من حلفائهم وإخوانهم في الدين.. يَئِسون يملؤهم الحزن والخذلان، ويونس الجاثم في زاوية مظلمة يتحسس جانب ظهره والحديدة التي أفلح في إخفائها في حزام سرواله حين كانوا بالسطح، لا يدري أي حظ عاثر أصابه، أهي لعنة لصقت بقدره؟! وحسين الذي انكب مخنوقًا لا يقوى على النظر في وجوه رجاله، دفع البكاء بعيدًا عن عينيه، أراد فعل هذا ولكن الرجال لا يبكون.. هكذا علمه أبوه ولعل أباه كان مخطئًا؛ البشر جميعًا بحاجة للبكاء أحيانًا، الصراخ قد يجدي نفعًا أيضًا، ولكن ماذا بعد ذلك، إبراهيم الصباغ أخذ يلوم نفسه، ليته قاتل بدلًا من مهانة الأسر وذلِّه، لم يمضوا كثيرًا من الوقت في القبو، أُخرجوا إلى سطح السفينة والعثمانيون يقفون بأسلحتهم حولهم، تراص حسين ورجاله في ثلاثة صفوف وأمامهم وقف سليمان باشا يتأملهم وما لبث أن قال:

- أقروا ببيعة السلطان سَليم ولكم ما لنا، أخبرني الرجال أن هناك مماليك انحازوا إلى جيشنا يوم مرج دابق، وقد نالوا حظًّا من الإمارة وسيحصلون على المزيد، أسماء ربما تعرفونها جيدًا ولعل أميركم حسين الكردي يعرفهم وقد جالسهم يومًا.. جان بردي الغزالي، خاير بن ملباي وغيرهم من المماليك، كونوا مثلهم وقدموا البيعة وسأكون لكم ظهرًا عن السلطان، ولن أخبره بما اقترفه قلة منكم قبل قليل..

- إن سلطاننا واحد، ولن نقسم لغيره.

قالها حسين فرجفت لها قلوب الرجال، وخيَّم السكون إلا من ريح تلاعبت بالصواري والأشرعة، انتظر إجابة لم تأتِ، فأشار لرجاله فراحوا يربطون أيدي الأسرى وأرجلهم من الخلف بحبال غليظة، من قاوم ضُرب وجاء الدور على حسين الكردي الذي نظر بوجه سليمان:

- بهذه السهولة ستتخلص منا وقد أكلنا وشربنا وصلينا معًا؟!

- إن لم أفعل فسيبلغ أمري إلى السلطان، ولا أضمنكم بعد ما حدث من رجالك، أخشى أن تُضمروا لنا شرًّا وأنتم بين ظهورنا، أقسمت على طاعة السلطان، عدوه عدوي وصاحبه رفيقي والصلاح في رأيه ودربه.

- مخطئ يا سليمان باشا، أين عقلك وأين قلبك في قتل رجال ظنوا أنك أخٌ لهم، كيف ستقف أمام الله بدمائنا؟!

- إن الله يرانا ويعلم ما في قلبي، وإني عبدٌ مأمورٌ ونفَّذْت ما قاله سلطاني.

تناهى إلى مسامع حسين همهمات الرجال وبكاء بعضهم، وإبراهيم يضرب بجبهته رأس أحد الجند الواقفين أمامه بينما يكبله الآخر بالحبال، نظر إليه سُليمان متأسِّفًا:

- رأيت ما قد يفعله رجاله المتهورون..

في تلك اللحظة كان يُعلق في الحبال قذائف المدافع، كرات حديدية ثقيلة تُربط بأقدامهم وسُليمان باشا يتابع حديثه مراقبًا ما يفعله جنوده:

- لا ضغينة أحملها لكم، وإن نفسي لتصارعني لفعل هذا ولكن قضي الأمر.

توسل بعض البحارة طلبًا الحياة، وجذبوا تباعًا بغلظة إلى حافة السطح، وفوق صارية الراية راح يُرفع علم آل عثمان الأحمر.. وألقي الرجال تباعًا في الماء، يُحملون ويُقذف بهم إلى المحيط، كثير منهم صرخ وطلب النجدة، البحر يفور بزبد حناجرهم التي امتلأت بالمياه المالحة، وعافر إبراهيم محاولًا التملُّص وهو يأخذ عنوة أمام ناظري يونس، الذي كان آخر من ألقي بعدما التقت عيناه بعيني حسين الشاحب، وارتطم جسده بالماء البارد ليلحق برفاقه إلى القاع والثِّقل يجذبه للأسفل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

غريب أمر الأيام وما تفعله بنا، وتأخذ منا بقدر ما تعطينا، تمنحنا بقدر ما تَسلب منا، يتغير موطئ أقدامنا ويُصبح ما أردناه يومًا مجرد ذكرى، نمضي وقد بات لدينا يقين أن الحياة لا تسير وفق أهوائنا وما نريد، حتى إن سعينا وأمَّلنا، هناك قدر محتَّم، وقوى تحرك الكون لحكمة لديها، الله.. راما.. غانيش.. يسوع.. هناك ما يفعلونه بنا، يحركونا على رقعة لعب كبيادق لا حيلة لها، ولنحظى بجوارهم سيدافع كل منا عن آلهة وقومه، ولكن هل هم حقًّا بحاجة لدفاعنا عنهم؟! أليس كل منهم قادر على فعل العجائب؟ لمَ يحارب كل منهم الآخر بنا؟ المصيبة الأكبر إن كنا نفعل نحن هذا بينما هم يشاهدون، لماذا لا يوقفوننا حين يتطرق الأمر إلى أن يقاتل بني الملة الواحدة بعضهم بعضًا!! المسلمون يتقاتلون فيما بينهم على أرض هندستان، سلطان المغول حفيد تيمور لنك قادمٌ لحرب آل لودهي سلاطين دلهي الأفغان، والبرتغاليون المسيحيون يمكرون لبعضهم بعضًا كلٌّ من أجل مصلحته، وخذله تيموجي، غدر به ليحظى بما يَملك من فتات البرتغاليين، ارتضى المذلة وألقى به إلى غياهب النسيان، وعلى الرغم من مرور أحد عشر عامًا على رحيله من غوا، فمازال راما يتذكر ما فعله به قرصان صار قاضيًّا، طبع اللئام لا يتغير.. فتح راما الراجبوتي عينيه لينهي جلسة تأمُّله، كان يَبحث عن صفاء تعكر بمرور ذكرى كئيبة..

نهض عن الوسادة الحريرية المحشوة بالريش، سار عاريَ الجذع عبر دخان البخور الكثيف الذي يعبق تلك الزاوية من البهو المطل على جبال راجبوتانا، توجه إلى حوض رخامي صغير تبحر على صفحته زنابق برتقالية، ضمَّ كفيه وغطسهما ليملأهما بماء ورد بارد راح يرتشفه، قطرات تساقطت على صدره العاري، وقف بعدها وضاعًا كلتا يديه على حافة الحوض مطأطئ الرأس، أغمض عينيه لبرهة وما لبث أن فتحهما وحرك يُمناه مُزيحًا الورد الصغير عن سطح الحوض، جمعهم في الزاوية وظل ممسكًا بهم، وانعكست صورته على صفحة الماء المهتز.. لحظات وثبتت صورته، العمر تقدم به، نضجت ملامحه كثيرًا وقد ازداد شاربه كثافة، تخلى عن قصة شعره التي كان يشتهر بها، ترك شعره الناعم ينمو بكثافة، وصار أسمن قليلًا ربما عمَّا كان عليه في آخر حرب خاضها، مرَّ ما يزيد عن عشر سنين منذ رحل عن غوا قاصدًا جبال الراجبوت مهدَه وأرض عشيرته، التي يحكمها الملك رانا سانغا، أحد أبناء عمومته الذي ظلَّ لسنوات يحارب إبراهيم لودهي سلطان دلهي، الذي أقره ملكًا على جبال راجبوتانا، أصبحت حرة دون مساعدة أحد، وبينما البرتغاليون يعانون في الجنوب، كان راما يقود قبيلته خلفًا لأبيه في مجلس رانا سانغا، لا يدري أكان محظوظا أم إنَّ تخلِّي البرتغاليين عن خدماته كان أسعد أيامه، تزوَّج فور وصوله من ابنة صديق لعمه، وأقيم له حفل رائع وصارت حياته أكثر انتظامًا، والحياة الرتيبة بين عمله في ديوان رانا سانغا ومنزله والصغار الذي حظي بهم، من ماهيرا زوجته الرقيقة، ولد وبنت، باها وبريا، غمس وجهه في الماء البارد ثلاث مرات، قبل أن يخرج رأسه ويبدأ تمشيط شعره الناعم بأصابعه، تحسس شاربة الكث وعدَّله، ومن خلفه جاء صوت زوجته:

- هل حان الوقت؟!

- الرجال ينتظرونني خارج أسوار الحصن.

- هل يجب أن تذهب؟! يمكنك أن توكل أحدًا غيرك.

التفت إليها، وهج شمس الصباح الآتية من بين رءوس الجبال البعيدة يغشى جسده، بدى بلونٍ ذهبيٍّ أمام ناظريها، إنه تجسيد القدير راما على الأرض، زوجها الحنون الجميل، من يأبه بأهل راجبوتانا ويعمل ما في صالحهم، حكيم يحبه ويقدره الملك رانا سانغا، اقترب منها ليقف أمامها مباشرة وهو غارقٌ في سواد عينيها:

- إنه الواجب يا ماهيرا، هل ترتضين أن يكون زوجك هو المتخلف الوحيد عن موكب الحرب!!

- أخشى عليك، وقد تناقلت الألسنة بأمر جيش المغول وسلطانهم ذلك المدعو بابر.. هل حقًّا سيقاتل سلطان دلهي؟!

- نعم..

- إن كان القتال بينهم لماذا نذهب نحن؟ دعوهم يفتكوا ببعضهم بعضًا.

- هذا ما سنفعله، سننتظر الفائز منهم ونهزمه، سيكونون قد أنهِكُوا من حربهم الضروس.

تخطَّاها متجِهًا إلى ثيابه المعلقة بجوار الفراش، أخذ يرتديها على مهل وهي تساعده بينما يحدثها:

- ذات ليلة بعيدة، كنت مستلقيًا فوق حصن كوتشي هذا الذي بناه البرتغاليون، غفوت وأنا أتأمل النجوم الكثيفة بالسماء، ورأيت في منامي القديرة دورغا تجابه عدوًّا مألوفًا لها، أتعرفين من هو؟؟

هزت رأسها نفيًا وهي تشد حزام خصره لتعقده، أجاب:

- كانت تحارب ببرًا ضخمًا.

- ولكنها تمتطي واحدًا.

- وهو الذي كان يقاتلها.. كان مشهدًا دمويًّا، هي بأذرعها العشرة وأسلحتها، لم تفلح في صده أو قتله، بل كان يقفز ناهشًا كل ذراع، والربة على الأرض لا حول لها وهي ترى أيديها تُقطَع وتُنهش. كانت تحتضر وكنت أقف مراقبًا.. لم أفهم مغزى ذلك الحُلم حينها.. ولكن منذ بدأت الحرب بين آل لودهي وبابر، عرفت أن المواجهة قادمة حتمًا وهذا يومها، يزحف جيش المغولي نحو دلهي، وسنزحف نحن إلى أغرا وننتظر لنرى من المنتصر.

- أوليس لهذا صاحب دلهي جيش عظيم.. يقولون إن لديه أفيالًا.

- ألف فيل ربما، ولكن القوة في يد ضعيفة مهزوزة قد تكون نِقمة، وما خرجنا لمساندة آل لودهي لأننا نثق بسقوطهم يومًا ونريد ما يملكونه.. لا يجب أن يأتي غريب آخر ويأخذه، أرض هندستان ليست ملكًا لهم وإن تحررت راجوتانا بالأمس فستتحرر بقية الممالك في الغد، ومُلك آل لودهي متهالك ولا وريث له سوانا، أتعلمين يا ماهيرا؟ أتمنى أن يبيد كلاهما الآخر.

أكمل ارتداء درعه وعمامته البيضاء ذات الريشة البرتقالية، قبَّل الصغار واحتضنهم، أوصاهم بالإنصات لتعاليم أمهم، واحتضنها وقبَّل ما بين عينيها فهمست:

- ليباركك شيفا وينصر سيفك.

ودعهم وامتطى جوادًا حربيًّا أبيضَ مزينًا بسرج برتقالي، دار حول نفسه في باحة القصر وانطلق ليقود الجيش الرابض في السهل المنبسط تحت جبال راجبوتانا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قد نلاقي من أهوال الحياة ما لا نطيقه، وكثيرٌ ما تأتي لحظات نظن أنها النهاية، ونكتشف أنها ليست سوى بداية جديدة، تفاصيل وقصص نعيشها لم نكن لنتخيلها يومًا، ولكنها تحدث، ومن الغرق يوم شاول إلى الغرق مرة أخرى على يد سُليمان باشا، وكل موت تعقبه حياة، كُتب له القدوم لهذه الأرض حتى قبل أن يرى البر الميت في ميناء السويس، وربما بدأت حياته في اللحظة التي قتل فيها لورنسو دي ألميدا يوم النصر في شاول، وما أعقبها من انتقام أبيه بإغراق المنصورة وكافة سفن الأسطول يوم ديو، الغرق والخوف من الموت، وحياة جديدة قضاها أسيرًا ذليلًا، حتى أنقذ ألبوكيريك، وهي زهرة عمره التي لم تذبل بمرور السنين، لم يلقَها بعد رحيله من غوا مع إبراهيم الصباغ، لم ينسَها.. الرجال لا ينسون حبًّا أو وعدًا حتى لو لم يوفوه، كم كان فرحًا برؤية حسين الكردي ورفاقه السابقين! ولكن سرعان ما كان للقدر رأي آخر وخذلان جديد.. ألقي بهم في اليَم مُكبلين وقد كانوا بالأمس على سرر متقابلين يتناوبون على قص حكايات الفخر بإخوتهم وحِلفهم التَليد.. وكان هذا يوم غرقه وموته وأمس قيامته من جديد.

أصبح في مُقام آخر وأرض ليست ببعيدة عن أرض غوا، موطن قلبه الحزين، ولكنها بعيدة بعشر سنين من عمره، قضى عامًا منها متجوِّلًا بين المدن، ينشد سبيل حياة جديدة ولا يعرف إلى أين المسير، كره البحر الذي بدل بموجه حياته مرارًا، وكأنه نال حظًّا من اسم النبي يونس، ومازال الحوت ينتظر ساعته في قاع المحيط، وكلمات أخيه سُليمان الذي أخبره أن البحر سيكون لحده، لم تَصدق حتى حين.. ها هو مازال حيًّا يسير في مقدمة جيشٍ عظيم، خمسة عشر ألفًا من الجند والخيل يسيرون في سهل خصيب. كم هو جميل لطف الله الذي منَّ على يونس الشريد بحظٍّ من الدنيا ما كان ليتخيله! وفي الأفق حلَّقت أسراب من طير تمسح رءوس الدغل البعيد، ووقع حوافر الخيل كصليل كرات الحديد التي كانت تسحبهم إلى قاع المحيط.

لم يكن آخر الأجساد الملقاة إلى اليَم، المياه الزرقاء الصافية بدت ثقيلة تضغط على جسده كلما غاصَ لأسفل، كَتَم أنفاسه وفتح عينيه ليرى رفاقه والبحارة المماليك يهوون إلى القاع، تحيط بهم فقاعات كثيفة جراء مقاومتهم غير المجدية، عيون جاحظة وأفواه فاغرة يتسلل الماء منها، الحديدة الحادة مازالت في حزام سرواله، جاهد يونس للإمساك بها على الرغم من القيد، حاول وصدره يضيق، وظلال السفن في الأعلى تصغر أكثر بينما يسقط إلى القاع، جسد الصباغ على مسافة منه، وحسين الكردي بالقرب منه يحاول التملص دون جدوى، أما هو فكان يختنق وبدى أنه لن يفلح، وبطريقة ما انفك حبل يده، وبسرعة طوى جسده ليفك قدميه، نجد في تحرير نفسه، سبح ناحية حسين الكردي الذي حرَّك رأسه ليونس بأن يذهب، وظل الفتى لوهلة يحاول التشبث به لفك وثاقه، الهواء ينفد من رئتيهما، وعينا حسين تترجاه بأن يمضي ويتركه، ماذا تفعل الدمعة في بطن البحر! أفلته يونس الذي سبح للأعلى وترك قلبه المفطور يهوي مع رفاقه إلى قعر المحيط.

التعلق بسلسلة المرساة لم يكن باليسير، التأرجح والجر في الماء. من حسن حظه أن أحدًا لم يلاحظه، تسلل إلى بدن السفينة التي لا يعلم إلى أين مرساها كان أمرًا خطيرًا، ارتدى بعض ملابس البحارة العثمانيين، فكرة من وحي ماتيلدا التي تبدَّل مجرى إبحار حياته بعيدًا عنها، اضطر للتخفي في الظلام كجرذان السفن، وتحين الفرصة حين رست السفينة بميناء ديو، عاد الغادر سُليمان باشا إلى مملكة الكجرات مجددًا، لا يعلم إلى أين سيذهب بعد ذلك، ولكن وجوده في حيز العثمانيين خطِر، جاب الأرض لأشهر واضطر للعمل حمَّالًا في عدة بلدات ليحصل على قوته، أراد أن يعود إلى غوا، ولكن الموت سيكون مصيره حتمًا، لعل أنباء وصول الأسطول إلى سواحلها قد بلغ سمعها، لن تغفر له رحيله ولكن المجازفة تستحق، ماذا عليه أن يقول لها! والطريق إلى مصر صار صعبًا عليه أن يمر بأرض الصفويين وبني عثمان حكام وقد ورثوا ما كان للمماليك، الأسى لم يفارقه، وذكرى ما حل بمنقذيه تؤرق كل لحظة من حياته، كان غريبًا بالكاد، ينطق قليلًا من لغات أهل البلاد الكثيرة، معاناة في التفاهم ولغة الإشارة، وتمنى لو كان إقبال معه لكان استرشد برأيه، ولكن يبدو أن اليأس والشتات قد كُتِبَا عليه مادام حيًّا.. فكر في الذهاب إلى دلهي، وما سمعه عن إبراهيم لودهي وغروره وتحصنه بجيشه، وأن لا غريب يجرؤ على الذهاب إليه، جعله يعدل عن فكرة اللجوء للرجل لمساعدته. كان في سوق أحمد أباد حين رأى شيئًا غيَّر وجهته، تجار يبيعون أشبال ببور، صغار بحجم قطٍّ بالغ من قطط الأهالي، وقف يتأملهم والتاجر يفاصل مع المشترين، كانوا فرسانًا لهم وجاهة وهيئة مختلفة عن بقية القوم، ربما من الصفويين أو الترك، اقترب منهم يونس وحاول فهم ما يدور بينهم وبين البائع، وسمع أحدهم يقول:

- شاه ظهير الدين محمد بابر، حفظه الله..

ابتهج ودخل إلى دائرة الحديث على حين غفلة من الواقفين قائلًا بالعربية:

- السلام عليكم، هل يتحدث أحدكم العربية؟!

قال واحدٌ منهم:

- وعليك السلام يا أخا العرب.

كان تاجرًا عربيًّا يُدْعى راشد، جوال ينشد أثمن البضائع التي هي مفتاح دخوله إلى أعظم القصور، حكى له يونس ما حلَّ به وأنه يريد الذهاب إلى كابل، التي يحكمها من استضاف رفاقه يومًا، لعله يجد صاحبه إقبال فيعينه على العودة إلى مصر، ويدبر له من الأمر شيئًا، كان يونس يئِسًا ولكنه عفيف النفس، رأى فيه الرجل صدق القول، وسلامة النفس. شابٌّ تقطعت به سبل الحياة، ساعده وأخذه معه إلى جولة في بلاد آل لودهي، يشترون ويبيعون ومن ثم خرجوا من وادي السند إلى الجبال القاحلة القاسية، رأى تلك القمم الثلجية التي حدثه عنها حسين والصباغ، وتمنى أن يتذكرهم السلطان..

وكان يوم سَعده حين دخل عليه في قصر كابل البديع، بنيان رائق الجمال تحيط به الحدائق الغناء وأحواض المياه وكأنه هبط من الجنة إلى الدنيا، وما لبث أن لاقاه طويل القامة سليم المشية، مهيب الهيئة، صدق من سمَّاه بابر، لوزي العينين ولحية خفيفة تميل للحُمرة، أبيض وإن مسَّ بشرته شيء من جفاف المكان، استقبله وأنصت إليه دون حاجة إلى مُترجم، ذكَّره يونس بإقبال فابتسم السلطان

واستفاض في السؤال عن مُعلمه المفقود منذ زمن، وكان لحسين الكردي ولاشين الألفي وإبراهيم الصباغ نصيب من الذِكر، ولم يكن الرجل في حاجة للتأكد من صدق الشاب.

صدقه وأمَّنه كما أمن مع أصحابه من قبل، قربه منه وخيره بين البقاء بجواره بضع سنين أو أن يرحل.. وشيء في نفس يونس أجبره على البقاء، أحب ما رآه من نعيم وقد جعل له بابر مُعلمين يدرسونه اللغة الجغتائية، حياة جديدة وجد فيها يونس راحة البال وهناء العيش، وآن للشريد التائه أن يهتدِيَ وتصفو روحه، هدأت براكين قلبه واستخلص عقله عبرة القدر وحكمته في الحياة، كل يوم كان للسلطان موعدٌ مع الأدباء والفقهاء والمترجمين بحضور يونس الذي قصَّ على مسامعهم خَبرته وحكايته مع البرتغاليين، أحب بابر وجوده واعتاد على مشورته، وجد فيه فطنة العرب وحكمة اكتسبها الفتى من السنين، وذات يوم أخبره يونس بأمر كتابات ألبوكيريك، كيف خطَّ الرجل قصة حياته في مذكرات ووصية حُملت إلىً ملك البرتغال مانويل، لقد ترك الرجل أثرًا إلى جانب تلك البلاد التي قام بغزوها وضمَّها لمُلك إمبراطوريتهم البعيدة وراء البحار، في ذلك اليوم، أنهى يونس حديثَه عن البحار الغازي قائلًا:

يوم مات الرجل -ألفونسو دي ألبوكيريك- سألت نفسي عن مصيره، لم يشغلني إن كان سيبقى لأبد الآبدين في الجحيم، بقدر ما رحت أبحث عن سبب أفعاله، طالما كان طيبًا في معاملة من حوله، ولكنه كان شيطانا بالنسبة لبني جلدتنا، كل مخططاته وثَّقها بخط يده في تلك الأوراق، حياته وما اشتهى فِعله، الأمجاد والانتصارات وحُلمه بالذهاب إلى مكة وهدمها وسرقة جثمان نبينا المعصوم.. كل هذه ظلَّت مجرد أمنيات على أوراقٍ قد يأتي أحدهم يومًا ويحققها، أو لعلها شاهدة على فعله ومروره بدروب الحياة.

أعجب ظهير الدين بما أوحاه الله على لسان يونس، وقرر أن يكتب سيرته، ولكن ليس مثل ألبوكيريك. ولأيام، أخذ السلطان يفكر في اسم لما سيكتبه، حتى عَرض على يونس ما أحَب، سيسميه «بابر نامه»، اسم يليق بسيرة سلطان عظيمٍ وكيف عانى حتى وحَّد قبائل المغول والأفغان والترك مرة أخرى، بعد ما لاقاه من شقاء وغدر وفقْد، سيسجل كل أحلامه التي يريد تحقيقها، ووصايا لمن سيخلفه ليحكم بالعدل تقرُّبا من الله.. ولم تشغل سنوات الحرب بابر عن الكتابة وإملاء الفصول حين يكون مشغولًا على الكُتاب، أشرف عليهم يونس الذي صار يرتقي أعلى المراتب، واستمع إلى ظهير الذي كان أمْرُ الهند يؤرِّق منامه، ممزقة هي بين سلاطين متحاربين، استشرى فيهم الضعف والخنوع والبعد عن أمر الله، ظَلموا العباد واستباحوا الحرمات، لا يهمهم سوى إبقاء مُلكهم بالقوة والغصب وتحصيل العوائد والضرائب، ونسوا خطر البرتغاليين الذي يشتد على الساحل، والهندوس المارقين المنشقين بممالك صغيرة تفتت البدن الصحيح، ولن يمضي وقت طويل حتى يدخلوا أعماق هندستان، ليمزقوا ما تبقى منها ويمحوا أثر الدين..

مستشاروه نصحوه بضرورة التدخل وأن يسترجع ما كان لجده تيمورلنك، وبعدما استتب له الأمر في بلاد الأفغان وبسط سيطرته أراد أن يحظى بإمبراطوريته، وقضى يونس عشر سنوات من الصعود حتى صار عن يمين السلطان ظهير الدين محمد بابر، في مقدمة جيشه الذاهب لحرب آل لودهي ودخول عاصمتهم.. كان يعلم أن هدفه وحربه لتوحيد الهند وإنقاذها، لن يحدث إلا باقتلاع سلاطينها

الضعفاء، وأرسل ظهير إلى سلطان آل عثمان يستشيره ويستبشر بدعائه، الأمر الذي أزعج يونس، وقد كان قصَّ عليه أمر ما فعله الرئيس سليمان باشا برفاقه.

ولظهير حكمة بالغة، تأثر بها يونس، كيف لا؟ والسلطان ربيب إقبال، كم يشتاق لهذا الشيخ الذي لا يعلم أين أراضيه! ليته كان موجودًا اليوم! ليراه إلى جوار البابر المتوَّج، يزحفان إلى باني بت لملاقاة جيش إبراهيم بن إسكندر آل لودهي، وكما أنزل الله آدم إلى الأرض وتقاتل ولداه، كان على إخوة الدم والدين أن يتقاتلوا.. من أجل حفظ الناس والعباد والأرض، وكثيرًا ما حاول يونس فهم ما فعله سليم مع قنصوة الغوري من حرب مفاجئة، وكانت خير إجابة يقنع بها نفسه، أن القويَّ يحكم وينهي الضعيف قليل الحيلة، تلك سنة الحياة، وكذلك تفعل الببور والسباع في البرية، وها هي رؤية إقبال التي تُوج فيها البر بعد صراعه مع الفيل الشيخ؛ كانت حقًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انقشع ضباب الصبح رويدًا ليكشف خضرة سهل باني بيت، رائحة الثَّرى وأوراق الشجيرات المشبع بالندى تسري مع الهواء، وخيْل الحرب المسوَّمة بدروع خفيفة تزفر بخارًا دافئًا، نزل الجند تباعًا في صفوف من فوق ربوة اتخذها بابر معسكرًا لجيشه، قُسِّمت الكتائب والفيالق كما رتَّبها سلطانهم الذي يسير في موكب من خيرة فرسانه عبر الصفوف التي راحت تفترش الوادي، ورايته الخضراء الداكنة تخفق بشمسها والأسد الذهبي المرسوم عليها، شعار اتَّخذه من اللقب الذي مُنح له صغيرًا، بابر أو النمر وفي بلاد فارس يطلق على السباع من أسود وفهود، كذلك كانت حلة حصانة الأحمر من جلد ببر هندي، مشى بين الصفوف بزهو وهيبة تليق بمقامه، وخلفه وبين المستشارين والقادة كان يونس وقد ارتدى درعًا مملوكيًّا أهداه له التاجر العربي راشد في آخر زيارة له، خوذة لامعة منقوش على حوافها بخط كوفي آية الكرسي، وصلوا إلى الهضاب المُطِلَّة على الوادي في المساء، وأخذوا قسطًا من الراحة حتى الفجر، أُذِّن للصلاة وتقدمهم سلطانهم إمامًا، وأعدت عدة الحرب وتجهز الرجال، وها هم يقفون في ساحة الحرب في انتظار جيش إبراهيم لودهي، يذكر يونس كم كان ألبوكيريك يخشى هذا الرجل! وطالما تحدَّث عنه بأنه خطَر على وجودهم في أرض الهند، وما لبث يونس أن فهم لماذا خشى الدون سلطان دلهي، كان -إبراهيم بن إسكندر لودهي- مثالًا للجنون، طاغية متقلب المزاج، يُقرب الهندوس تارة ويفتك بهم تارة أخرى، يهاجم سلاطين المسلمين ويفتك بذريتهم، يقوم بإذلال الناس ومن ثم يعطف عليهم ويمنحهم العطايا، انقلب عليه كثيرٌ من أعوانه واستقلوا بقلاعهم ومدنهم، وفي بدء الأمر كان قد طلب من بابر مساعدة وما لبث أن غدر بقوات الأخير قرب لاهور. وهو الأمر الذي جعل الحرب تتأجج بين الرجلين، والآن حان وقت المجابهة، جاء بابر على رأس جيش من خمسة عشر ألفًا من الفرسان والمشاة، عددٌ قليل مقارنة بما يبرز رويدًا في الأفق..

جيشٌ لا يسعه فضاءٌ، سواد عظيم ظهر في الأفق سَبَقه دوي الأبواق، ودمدمة طبول ووقع أقدام خمسين ألفًا ما بين راجلين وراكبين، وألف فيل، منهم المُدرَّع والمُسخَّر لحمل النبالة وجملة المتاع والعتاد، تهتز الأرض فيما يمشون على مهل، فكيف بهم إن انقضوا هجومًا!! مشهدٌ مهيبٌ وغبار مسيرهم يرتقي السماء أمام نظر ظهير وجيشه الصغير، زاغت الأبصار وابتسم هو، غريب أمر ابتسامته الهادئة بينما الرجال قلقون، والتقى الجمعان، أوقف إبراهيم لودهي جيشه قبالة بابر ورجاله، سكون جرى مع الريح الخافت يلعب بالرايات، يتشابهان في الأحرف والكلمات والآيات.. وإن

اختلفت الألوان، مسلمون سواء أكانوا من الأفغان أم من الهنود ومن الأتراك والمغول، تجمعهم حرب، وفي قلب يونس كانت هناك حرب أخرى، يقف الآن موقف سَليم من قنصوة، ماذا إن هو كان في الفئة الباغية، ماذا لو قابل إبراهيم لودهي قبيل بابر، لكان في الجهة المقابلة ربما؟!

كسر جدار الصمت تكبير على رءوس فيالق جيش آل لودهي، ورددته الحناجر مع نهيم أفيال الحرب، رجت السماء وصُمت الأذان، وارتجفت قلوب كل دابة على أرض باني بيت، وطيور غابة بعيدة في الأفق هجرت أشجارها فزعة، وكأن إسرافيل استخدم نفخ في صوره قبل الأوان، صعقت الخيل وراكبوها وخارت العزائم، وأشار بابر لضاربي الطبول بأن يقرعوا ما بين أيديهم، ونادى قادته في رجالهم أن اصبروا وصابروا، وتقدم الجواد وما أن عاد السكون مرة أخرى حتى أشار ظهير الدين فخرج ثلاثة فرسان، يتقدمهم ابنه الأكبر هاميون شابٌ يافع لم يتم الثامنة عشرة، يرتدي درعًا من زرد جعله مميزًا عن غيره، فِضِّي نقش على صدريته المعدنية آيات وعبارات الثناء والتمجيد، أومأ له بابر فمضى ناحية جيش آل لودهي، ويونس يتابع الفتى الذاهب برسالة أبيه إلى عدوه، كيف يضحى بابنه هكذا؟! ماذا لو غدر إبراهيم لودهي به، كان قلقًا أكثر من بابر على ولده.. قطع هاميون المسافة الفاصلة بين الجيشين ليقابل سلطان دلهي الذي غضب حين تبين مُقابله، ومن حيث يقف رأى يونس الحوار دون أن يَسمعه، ولكن صاحب دلهي غاضبٌ، بدى ذلك في حركة فرسه التي تدور حول نفسها، يتحدث مع الفتى بتعالٍ بالغ، ولوهلة ظن يونس أن الرجل سيستل سيفه ويطيح برأس هاميون، الذي لم يمض كثيرًا في حواره مع إبراهيم، عاد الشاب ليجتمع بأبيه وقادته قائلًا:

- عرضت عليه الاستسلام وتسليم دلهي كما أمرتني أن أنقل له، ولم يكن جوابه سوى السخرية والتهكم، مستعرضًا قدرات جيشه وتعدادهم، وأنه رجلٌ جاء للموت في سبيل بقاء مُلكه.. وأن نهاية حُكم آل لودهي لن يكون اليوم..

ابتسم بابر ودار بوجهه في وجوه من حوله قبل أن يلكز جواده، تركهم خلفه وخرج أمام صفوف جيشه، ونادى فيهم بينما الحصان يمشي متبخترًا:

- عباد الله، إن الله اصطفانا لتوحيد كلمته وإعلاء رايته، لا يغرنكم عددهم ونهيم أفيالهم، ما جئنا لهنا إلا للنصر، فلا عودة للوراء قيد خُطوة، معنا الحق إن ثبتنا، وما وقفنا في موضعنا هذا إلا من أجل الله وتحرير رقاب العباد من جور الظالمين.. اصبروا؛ فإنما النصر ساعة، فاللهم إن كنَّا فئة باغية بغير وجه حق، فليكن مماتنا اليوم على ما نلقاك عليه من نياتنا.

رددت الجموع مؤمِّنة، وما لبث أن صاح مكبِّرًا، لتخرج أولى فرقة من اليمين، خيالة من حَملة النبال انطلقوا من بين الصفوف الأمامية تجاه جيش آل لودهي، وفي نصف المسافة بينهما أشار بابر فنفخ في الأبواق، وبدأ الرماة يمطرون سهامهم وهم على صهوة الخيول، ومن الميسرة خرجت كتيبة أخرى مثلهم وفعلوا كما فعل الأولون، تقابلوا متعاكسين ولم يتوقف أحد منهم عن إفراغ سهامه، تلقى إبراهيم أولى الضربات، وتساقط رجاله من حوله بكثرة، توتَّرت الأفيال وممتطوها، وسرت الهمهمات بين الجنود، وبينما كان رماة بابر يستعدون للرمي من جديد، أعطى سلطان دلهي أمرًا

لفرسان أغرا بالهجوم.. وخرجوا غاضبين للنيل من عدوهم، والأرض تقاسي من وقع حوافر تحمل المنية..

وأعطى بابر أمرًا لرجاله بالرجوع، فانسحبت خيالته الخفيفة من أمام فرسان أغرا، دائما كانوا أفضل محاربين سلطنة آل لودهي، شهرتهم واسعة منذ حكم آل تغلق ومن قبلهم من ممالك مسلمة بأرض الهند، وتقدم حملة رماح بابر بدروعهم الطويلة، وفي مشهد بديع راحوا يتراصون والدروع تصطك ببعضها بعضًا، سور حديدي نشبت منه رماح طويلة، وجاء فرسان إبراهيم صفًا صفًا، يضربون الدروع بصدورهم ويقفزون فوق الرماح، في اصطدام مهيب، صهلت الخيل وتحشرجت الحناجر، كانت دروع بابر ذات ثقل من خشب وحديد، تحملت الموجة الأولى واصطدم الفرسان ببعضهم بعضًا، وقعت الخيول وفزعت، جرحت سيقانها وغرست الرماح وانكسرت في صدورها، ووسط الضجيج فتحت الدروع ليخرج منها السيَّافون، هجموا ليقضوا على الفرسان المشتتين، وأمام نظر إبراهيم لودهي كان رجاله يُبادون، انفجر غاضبًا وأمر بإرسال فوج جديد بقيادة عامر خان أمير البنجاب، وانطلق هجومٌ كاسحٌ، خيالة برماح طويلة، وقع أقدامهم بَلَّغ موضع بابر الذي نادى في مُشاته:

- إلى الأمام!

صاح قادتهم وتقدموا تاركين ما تحت أيديهم من أسرى وجرحى، وتخطوا الأجساد راكضين إلى الأمام، وما لبثوا أن قاموا بالتشكيل المنيع ذاته، وبدى الاصطدام وشيكًا، وأن ما حدث قبل قليل سيُكرَّر، وفي لحظة ما، وبدلًا من أن يصدُّوا هجوم فرسان إبراهيم بدروعهم فتحوها ليمر الخيالة من بينهم، جحظت عينا سلطان دلهي، وفرسانه يتقدمون رويدًا بين الصفوف متخطين جثث رفاقهم من الفوج الأول، حتى أوقف قائدُهم حصانَه أمام بابر، وكذلك فَعل رجاله.

أخرج من درعه راية بيضاء ولوح بها فوق هامات الفرسان، وبينما الخذلان يضرب صدر إبراهيم وهو يرى فيلقًا من جيشه ينشق، ويلتحق بجيش عدوه:

- اللعنة عليك يا عامر خان!

أمير البنجاب الخائن نزل عن جواده، ومر إلى حيث يقف بابر، أخفض رأسه وقال محدثًا سلطانه الجديد:

- السلام على سلطاننا ظهير الدين محمد بابر، فرسان سهول البنجاب تحت إمرتك.

أومأ له بابر برأسه:

- صدقت موعدك يا عامر خان، والآن عليك تنفيذ بقية قَسَمك.

ضرب الرجل صدره بقبضة يده، واستدار ممتطيًا جواده بقفزة واحدة، ونادى في جمعه بتعظيم السلطان ظهير الدين محمد بابر، فصدحت حناجرهم معظمين سلطانهم الجديد، في تلك الأثناء كان إبراهيم لودهي قد تراجع إلى قلب قواته، وأمر بهجوم المشاة، خطأ جديد ارتكبه حين ظن أنه سيجابه مشاة بابر، وكان هذه المرة عليه مجابهة رجله الخائن عامر خان، واحتدمت المعركة من جديد،

ودارت الحرب كرحى تطحن لحمًا ودمًا، دخل عشرة أفيال إلى أرض القتال، قتل خلق كثير من رجال عامر خان على الرغم من أن خيولهم مدربة إلى جوار الفيلة، ولكن الحرب سجال.. ومُشاة بابر تقدموا مرة أخرى وجرحوا بعض الأفيال دون فائدة، هذا يدفع بكتيبة وذاك يصدها بأخرى وبقت المعركة هكذا حتى انتصف النهار.

ورُفِعت رايات الهُدْنة والسلم لسحب الجرحى ولكن إبراهيم غدر.. جعل رجال بابر يتقدمون بالمحامل والبغال لتفقد المصابين ثم أمطرهم بسيل من السهام، وبدى لظهير أن غريمه قد جُنَّ، ومال على أذن يونس:

- ستأخذ معك كتيبتَيْ مشاة، وتنسحب لمعسكرنا التلة الشمالية، اجعلوها نقطة حصينة، خذ معك هاميون أيضًا.

- وماذا عنك يا سلطان؟؟

- إن لم أكن مخطئًا فسيضرب ابن إسكندر لودهي بكامل قوته، وهو لا يعلم أن مازال في جعبتي كثير له.

قال يونس متعجبًا:

- كيف سآخذ معي إذن كتيبتيْ مشاة؟! سيظنون أننا ننسحب.

- وهذا ما أريد أن يصل إلى عقولهم..

ألقى بابر جملته واستدار ليأخذ وزيره معه، ذهبَا لترتيب صفوف جيشه من جديد، أقيمت الصلاة، وقامت كل كتيبة بحماية أخرى وتبادلوا الأدوار، وما أن انتهوا حتى سار مع قادته بين الجند يبثُّون الحماسة فيهم، ورضخ هاميون لما قاله أبوه، سار مع يونس الذي تساءل عمَّا يفعله ظهير، يبدو واثقًا على الرغم من غموضه، ومن فوق كرسيه العالي رأى إبراهيم لودهي ما يحدث في جيش بابر.. رجاله يتخلَّون عنه، يتراجعون تاركينه، إنهم المشاة ينسحبون، ضحك وقهقه كالأطفال، وما أن فرغ حتى نادى بصوت جَهْوَرِي تملؤه الحماسة في رجاله وهو يشير ناحية عدوه:

- يا فرسان هندستان، إن النصر قريبٌ، هناك، وما هؤلاء إلا شرذمة قليلون، إنهم يهربون كقطعان الماشية الفارة من الزحف، فلنجعل هزيمتهم موجعة مكللة بالخِزْي، ولتتقدم الأفيال.

ودوت أبواق النفير، وارتفع نهيم الفيلة ورُجَّت الأرض رجًّا.. أراد الرجل أن ينهي المعركة مبكرًا بينما كان يونس يرتقي التلة مع همايون ومعه ثلاثة آلاف من المشاة، وقبل أن يصلوا إلى قمتها توقفوا واستداروا جميعًا ليروا ما يحدث خلفهم، وبدى لهم أن الأرض تميل بفعل الزلزلة التي أحدثتها الأفيال الغاضبة، هوى قَلب هاميون وخشي من نهاية والده، أراد العودة ولكن يونس تشبث به، فمن ذا الذي ينجو من طوفان بشرٍ وأفيال مدرعة بالحديد وصناديق من قصب تحمل رماة الرماح.. والمسافة بين بابر الثابت المدافع وإبراهيم المنقض تتقلص، وصُمَّت الآذان بهزيم أضاء التلة من فوق رءوس يونس وهاميون ورجالهم، وضعوا أيديهم على آذانهم وصرخ الرجال وهم يسقطون أرضًا مغشيًّا

عليهم، وانهالت القذائف تسقط الفيلة الفزِعة وفرسان إبراهيم لودهي، عشرون مدفعًا ضّجت بهم فضاء المعركة، وكأن سقف السماء هوى ويوم الحساب قد حان..

هرجٌ ومرجٌ، والأفيال الخائفة دارت على عقبيها هربًا، دهست الرجال من حولها، ركضت منسحبة تصيح وتزيح من في طريقها، وصعد يونس التلة ومن معه ليروا فوهات المدافع تُعمر من جديد وصاح هاميون في رجاله أن صموا آذانكم وانبطحوا، ومرة أخرى أطاح الهزيم بقلوب الرجال وغدت أجسادهم كأعجاز نخل تضربها موجات الضجيج وأقدام الأفيال الخائفة، وتساقطت القذائف مطرًا تخترق جسد الحيوانات المسكينة، وتحيل بنيان الخيل إلى أشلاء ممزقة، وبينما أخذت إبراهيم لودهي المفاجأة، وصار في قلب طوفان من رجاله قد ملك الرعب قلوبهم، ناشدوا النجاة بما بقي في حياتهم من رمق، تفادوا الأفيال التي دهست كل شيء في طريقها وما كاد إبراهيم أن يفيق لينادي في فرسانه وجيشه حتى وجد فيلًا ضخمًا يضرب بخرطومه جسد حصانه، طارَا في الهواء معًا قبل أن يسقطَا ويأخذَا في طريقهما ما يعوقهما من بشر، دقت عنق الحصان ومات من فوره على مقربة من سلطان دلهي الجريح، لم يَعد يَشعر بقدميه، كسِّرت عظامه ولم يعد قادرًا على الحركة، بوجه ملطخ بالطين والدم ابتسم ناظرًا للسماء الغائمة من فوقه، وما لبثت أن أظلمت الدنيا بفعل قدم فيل مذعورٍ هارب من المعركة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شهدت الشمس قبل مغيبها انحناء أمراء آل لودهي خضوعًا، استسلموا وتعهدوا بالولاء، وتشتت سبل الهاربين إلى الغابات والجبال، وغنم بابر مُلك الهند، وفي فجر اليوم الجديد كان جواده يطرق أرض دلهي، دخلها فاتحًا مُستقبَلًا في موكب عظيم، ومات إبراهيم، وجدوا جثته بين القتلى، دفن المتقاتلون معًا، وصلِّيَت عليهم صلاة إمامها ظهير، طلب الرحمة والمغفرة لقتلى المسلمين، واستغفر لنفسه ولجيشه المُبارك، وشَهد يونس عبقرية بابر وما كان تواصله مع آل عثمان إلا للحصول على سلاحه السري، وما تحلَّى بالصبر والكتمان على خطته إلا وقد نجحت، وأسمع أرض الهند وسماءها صوت المدافع، وكانوا قد عهدوها في بعض القلاع والسفن، ولكنها لأول مرة يُعمل بها في ساحة حرب حقيقية، آلاف الضحايا من الجانبين.. وسبحان من ألهم ظهيرًا هذه الخدعة، أن يسحب الأفيال ويُفزعها وتفر عائدة للخلف بعيدًا عن جيشه، صرَّح لابنه هاميون أنه يتفاءل بيونس، فهو يقدمه على بني قومه من المغول والترك والأفغان، شعر وكأن فيه قبس من العمِّ إقبال.

ودخل بادشاه المظفر ظهير الدين محمد بابر إلى قلعة أغرا، ممتطيًا جوادًا أبيض بكسوة بسيطة، أما هو فكان عليه ثوب أحمر وعباءة ذهبية رُسمت عليها منمنمات لببور تصطاد غزلانًا، عمامته بيضاء مذهبة وتتوسطها ريشة من جناح عُقَاب ذهبي، جلس على عرش آل لودهي وهو يردد «وسكنتم مساكن الذين ظلموا أنفسهم»، قصر بديع أحمر الجدران، وقاعة مجلسها من حرير وديباج، طواويس على أحواض المياه النقية، وستائر ناعمة حمراء بلون أعلام آل لودهي، رُفعت راية الببر المشرق، عفى عن آل لودهي ونسائهن وأطفالهن، وكل من شارك معهم في الحرب، وتعهَّد لأهل المدينة بالأمان على أرواحهم وممتلكاتهم، بقي لأشهرٍ ينظم الدواوين ويراجع غنائم المعركة ويحصي الخمس من المغنم، سيدفع للثكالى واليتامى ومنً تقطعت بهم السبل، سيسرِّح كثيرًا من الأفيال للعمل في تمهيد الطريق من دلهي إلى كابُل، ولكن الحرب لم تضع أوزارها، بينما كان ينظم المدينة ويرتب

أحوال مملكته التي توسعت، يخطط ويرتب بينما يجلس حوله الكتّاب ومعهم يونس، يسجِّلون يومياته وما يقوله، أوشك نصره العظيم أن يتم، ليُسجل في مخطوطة سيرته «ببر نامة» قصة النمر الذي جاء إلى دلهي ليقيم مُلكًا عظيمًا، لم يكتمل بعد! فمازال أمامه حرب أخيرة يخوضها.

رانا سانغا ملك الراجبوت، يقود تحالفًا مع أمراء الأفغان من آل لودهي، استشرى الخبر على الألسن، كان بمثابة ثورة، وراح الناس تبث في أتباع السلطان المقبور إبراهيم لودهي، تجمَّع أتباعه من هندوس ومسلمين، تطوعوا في جيش رانا سانغا وحلفائه، ورُفع شعار «الموت للببر»، كتبت على جدران شوارع دلهي عبارة «عاش الإله راما»، وأشيع في البلاد أن جيش رانا سانغا تجاوز مائتي ألف محارب، وبدى أن سماحة السلطان لم تكن في محلها، أقام على المدينة عماله ومشايخ جيشه، أعلنوا التوبة ونادوا بها فوق المآذن، قام رجاله بحرق مخازن الخمر في جميع المدن، وأغلقت جحور البغاء والنخاسة، حشد بكلماته وخطبه المسلمين وشحذ الهمم للالتحاق بجيشه لمقاتلة الخونة الأفغان وحلفائهم الهندوس، واستعرض جيشه الجرار في شوارع وميادين المدينة، أفيال ورثها عن سلفه، وخيول مدرعة، وعربات من حديد وخشب تُحمل عليها المدافع، فخر جيشه وسلاحه الأقوى، خرج من قلعة أغرا متوجهًا غربًا نحو خانوه، بصحبة ابنه هاميون ووزيره الأفغاني حنضل ميرزا، وفي الموكب ذاته وخلف بابر كان الأمير عامر خان ويونس المصري، الذي رأى من تبدل الحياة في ومضة عين، ما يجعله لا يثق في القادم، ولكنه على الرغم من إيمانه بأن أمر الله كله خيرٌ، مازال وبعد كل هذه السنوات يراوده انقباض القلب، وتلك الوخزات من ذكرى تأبى الاندمال تثير في نفسه شعوراً بالخوف والفقد، وأن شيئًا سيحدث!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا كانت ملحمة المهابهاراتا، على هذه الأرض عاشت سلالة بهاراتا الذي خلد الشاعر فيدا فياسا عظيم ملاحمها، سهل خانواه القريب من قلعة أغرا. بوابة دلهي ومهد القدير راما، فِي تلك البقعة صارع المُبجل ذو البشرة الزرقاء الآلهة الأخرى والمخلوقات الشريرة، هنا انتصر وأُقِيمت معابده، قبل أن يهجرها الناس ويدخلون إلى دين السادة الجدد، الذين تنوعت أعراقهم وتوحدُّوا على دين واحد وإله واحد وحكموا أرض الهند لقرون، ولكنهم هلكوا جميعًا وظل راما يُعبَد، والآن حان الوقت لعودة المجد إلى آلهة الهندوس، ففي الوقت الذي انشغل فيه بابر بمحاربة اللودهيين، كان رانا سانغا وقريبه راما الراجبوتي يسلبون القلاع ويحرقون القرى، يستردون مدنًا وحصونًا عريقة، وقد جمعوا جيشًا جرارًا في طريقهم إلى هنا، تحالفوا مع محمود لودهي آخر نسيب لسلطان الهند البائد، أرادوا الوصول إلى أغرا.. ولكنهم تفاجئوا ببابر رابضًا على سهل خانوه.

وصلوا ليلًا وقد كان ظهير سبقهم متحكمًا في أرض النزال، وبينما كان رانا سانغا يلعن تأخره في الوقت، كان راما يبوح له:

- لم يرُق لي هذا التحالف مع الأفغان.

- نحن بحاجة إليهم؛ فهم غطاؤنا لما نبتغي.

- ولكنهم قد يغدرون، وقد فعلوا هذا مع إبراهيم لودهي وكثير من قادته صاروا الآن مُكلبين عند بابر.

- حتى إن فعلوا وانقلبوا؛ فعددنا أكبر بكثير منهم إن تحولوا عنا، وأكثر من جيش المغولي.

- كان إبراهيم لودهي يَملك جيشًا كبيرًا أيضًا.

بدى الضيق على وجه رانا سانغا، لم يُجب على راما الذي استطرد:

- معذرة سيدي الملك، ولكن بابر جاء قبلنا وعاين واختار أرض معركته، كما فعل مع آل لودهي..

- تحسبني غافلًا عن هذا يا راما؟! لماذا جمعتك إذن أنت وبقية القادة.

فور انتهاء كلماته استأذنه حارسه، ودخل إلى المكان كل أمراء الحرب في جيش راجبوتانا، وبدأت مشاوراتهم واقتراحات خططهم التي يعرضونها على مدار ساعات، اطمأن قلب راما رويدًا، وما أن فرغوا وذهب الجمع، حتى طمأنه سانغا:

- أعدك أن نتخلص من الأفغان، فور انتصارنا على بابر.. سنقتله إن لم يفرَّ أمام شراسة راجبوتانا وجيشها.

ليلة قضاها الراجبوتي يُفكر فيما آلت إليه الأمور، كيف كان وماذا أصبح، تعلم كثيرًا على يد البرتغاليين ولكن مقامه الآن حيث أقامه الإله راما، جلسة تأمله في خيمته كانت مجرد أمنيات وصلوات للقدير وتمثاله الأزرق الصغير المحاط بالزهور البرتقالية والبخور، تمنى أن تكون هذه المعركة ملحمة، يذكرها القاصي والداني، ويا ليت فياسا يكون هنا ليشهدها ويؤرخها بشعره لتبقى أبد الدهر.. هو راما الراجبوتي المخلص للفيدا والذي سخَر حياته للآلهة، وتلك حكايته.

انبلج الصبح على أرض النزال، وبينما يستعد الجمعان للملاقاة، أقام خدم بابر سقيفة من القماش الأخضر على أربعة أعمدة من خشب في منتصف ساحة القتال، خيمة لا جدران لها، فُرِشت في أرضيتها سجادة حمراء، وتوجه إليها ستة فرسان من حملة رايات ظهير الدين الذي كان يتقدمهم، ترجل عن صهوة حصانه ذي كسوة جلد الببر، تبعه ابنه هاميون ويونس ومرافقاه من الفرسان إلى حافة المظلَّة، ولم يجد رانا سانغا بُدًّا من فعل المثل، جاء على ظهر فيل ضخم مدرَّع بدرع نُحاسية، متهاديًا في مِشيته ومن حوله خيول رهطه إلى مظلة التفاوض.. ما أن وصل إلى الخيمة، حتى أجلس الفيل ونزل ملك الراجبوت إلى السقيفة متغطرسًا، وإن كان القلق باديًا على ملامحه واهتزاز شاربه الكثيف الملفوف الأطراف، وفي ظهره وعلى حافة المظلة من الجهة الأخرى وقف راما الراجبوتي وبضع رجال من قادته، لحظات من الصمت فوق السجادة الحمراء، تأمل فيها الحاضرون بعضهم بعضًا، كان بابر عاقدًا يديه خلف ظهره جامدًا يدور بعينيه في تفاصيل رانا وملابسه التي يغلب عليها اللون البرتقالي، شعره الكثيف المعقود فوق رأسه، يضع يديه على جانبي خصره، وتحدث ملك الراجبوت أولًا:

- ماذا يفترض بنا قوله الآن وقد اصطففنا للقتال؟!

أجاب بابر بهدوء ونبرة ثابتة واثقة:

- أردت رؤية وجه من أقاتله..

- لم نلتقِ من قبل يا سلطان المغول.. ولكن كان بيننا كثيرٌ من الرسائل والرسل المحملين بالوُد.

- هذا قبل أن تغدُر باتفاقنا.

عقدت وجوه الأمراء الأفغان من تابعي رانا سانغا، الذي قال مسرعًا:

- لم يكن بيننا أي اتفاق.

مال بابر برأسه جانبًا ليلتقي بصره بأمراء رانا سانغا قائلًا:

- عجيب أمر هذا الرجل حقًّا، لقد تحالفت معي ضد إبراهيم لودهي.. والآن تكذب! وكأنك تخشى أن ينقلب عليك رجالك كما فعلت أنت من قبل، ولكن ماذا بعد؟؟ إلى ماذا ترنو يا رانا سانغا؟! رُحت تنهب وتسرق وتغتصب قلاع آل لودهي وحصونهم في الغرب؟؟

- لما نسرق أرضنا وخيراتها، لقد حفظتها لآل لودهي، بدلًا من أن ينهبها غازٍ مغوليٌّ.

ابتسم بابر وهو يتطلع في وجه محمود لودهي، عاد إلى رانا سانغا ببصره:

- أين هذا الغازي؟ أنا لا أراه! إن كنت تقصدني، فما جئت إلَّا لأخذ مُلك أجدادي من سلطة الأفغان، وعلى صعيد آخر لتوحيد صف المسلمين الذين تبغضهم أنت.. وتريد إزاحتهم عن تلك الأرض.

- ليس لأجدادك موطئ قدمٍ هنا..

- يبدو أنك نسيت أني حفيد تيمورلنك وأن بداخلي تجري دماء تركية وأفغانية ومغولية.. أنا من نسل عظماء المغول، مَن حكموا تلك الأراضي دهرًا.

- ها أنت تتفاخر بمآثر أجدادٍ لم ترَهم، ولكن دعني أذكرك أيها المغولي، على تلك الأرض ولد راما وهنا بطش شيفا وعدل غانيش، هنا أرض الآلهة ومقر حكمهم، ونحن نسلُهم وسنقاوم حتى نجليك عن أرض هندستان.

- مرة أخرى تسيء لحلفائك من المسلمين، لا أعلم أي عقل لديهم ليتبعوك.

- حيلتك لن تجدي نفعًا يا سلطان المغول! إننا هندوس ومسلمون اجتمعنا لأجل محاربتك أنت ولا شأن بما يعتقد كلٌّ منا.

وبينما يتحدث الرجلان، شَرد يونس وخُيِّل إليه أن أحد فرسان رانا سانغا، يشبه شخصًا يعرفه، وفي المُقابل كان راما يُحَدِّق في وجه يونس جاحظ العينين. وكلاهما ظن أن مسًّا من جنون قد جاءهم، وهم على تلك الحالة كان بابر يقول هازئًا بخصمه:

- متناقض أنت يا رانا سانغا، ولكن دعني أخبرك أمرًا.. إن كانت السماء تتسع لعدة آلهة كما تعتقدون، لكان الأحرى بهم الحرب هناك دون استخدامنا، بل كانوا سيعتمدون على قدراتهم وعجائب صنعهم، وابْتَغَى كل منهم سبيله إلى العرش بطريقته، ولكن حاشا لله أن يكون له شريك ومنافس على حكم، مثلما يفعل البشر وأنت الآن. ولكن دعني أقُلها لك مرة أخيرة، هذه الأرض لي ولا تتسع إلا لسلطانٍ واحد، وراية واحدة وإن تعددت تحتها الديانات والمعتقدات وكثرتِ الطوائف، أعلم ما يدور في معابد

راجبوتانا من تأليب نفوس الهندوس ضد المسلمين، وسمعت قصصًا يشيب لها الولدان عما فعلته أنت وجيشك في طريقكم إلى هنا.. قتلتم الأبرياء واغتصبتم النساء وأحرقتم المساجد.. فلا تأتِ لهنا وتدَّعي عكس ما تبطن، وإن كان هؤلاء الذين خلفك قد غرتهم الدنيا وكرسي العرش في أغرا، فلتتقدموا وتأخذوه إن استطعتم.

- سنفعل، فلا قِبَل لك بحربنا أيها الغريب، لن نكون لقمة سائغة حين يحتدم القتال!

- قالها من سبقك، وواريته في الثرى بيديَّ، بل وصليت عليه، فهو ابن أمتي وإن اختلف عرقنا، أما أنت يا رانا سانغا فلا صلاة لك أو عليك، ساحة الحرب موعدنا.

أنهى بابر حديثه واستدار تاركًا رانا سانغا، الذي التفت إلى رجاله وما لبث أن مضى هو الآخر، امتطى سلطان المغول جواده الحربي، وصعد رانا إلى ظهر فيله المدرع، مضى كل منهما عائدًا إلى جيشه، وفيما كان فرسانهما يمتطون ظهور الخيل، تقدم رجلان بضع خطوات للأمام، يونس وراما. مضى على آخر لقاء لهما أكثر من أحد عشر عامًا، التفت هاميون وهو يتبع درب أبيه، ألقى نظرة خاطفة على صاحبه الواقف جامدًا أمام ذلك الأمير الراجبوتي، وما بينهما كان فيض من ذكريات جمعتهما في كوتش وغوا. كان لقاؤهما عجيبًا وقد نال الزمن منهما، تحاورت الأعين وهربت الكلمات حتى نطق يونس:

- راما الراجبوتي!

- عربي، يونس!!

ابتسم كلاهما، ونطقا في الوقت ذاته بالعربية:

- مر زمن طويل..

أومأ راما برأسه، مستطردًا:

- من العجيب رؤيتك هنا، يبدو أنك فقدت طريقك إلى الديار.

رد يونس بعفوية تناسب وضعهما:

- بل وجدت الدرب الصحيح، وكل أرض المسلمين دياري، وجميعهم أهلي.

- صدفة غريبة يا عربي، أن بعد كل هذه السنوات نتقابل مجددًا، عدوَّيْن مرة أخرى، ولكن هذه المرة في معركة وشيكة البدء، أقسم إني عرفتك على الرغم من تبدل هيئتك وهذه الدرع القيِّمة.

- لقاؤنا قدرٌ يا صاح، أؤمن أن لكل لقاء قدرًا، فمنذ البداية التقينا لسببٍ وافترقنا لحكمة، وها نحن هنا مجددًا.

- لماذا لم تعد إلى مصر وتترك أرض الهند؟

- إرادة الله.

- بل اختيارك، أن تهرب وتترك الدوقة كسيرة القلب.

انقبض قلب يونس بألم سرى بوجدانه، وراما يستطرد:

- كذلك اخترت أنا الرحيل وترك غوا.. بعد ذهابك بفترة وجيزة.

- هذه هي الدنيا، ولكن يبدو من نبرتك أنك عانيت من الخذلان أيها الراجبوتي!

- ها أنت تقولها، هي الحياة بين خذلان ورِفعة، دعنا من كل هذا، أخبرني يا عربي، كيف ارتقى بك المُقام لتصبح من حملة رايات سلطان المغوَل؟!

- إنها قصة طويلة، ولا يسعنا الوقت لسردها، فأمامنا معركة سنخوضها بعد قليل، أمرنا عجيب حقًّا، متشابهان في رحلتنا.

شرد راما في جيش ظهير البعيد خلف ظهر يونس، الرياح تربت على سقف الخيمة والشمس تكسو كل شيء إلا البقعة الظليلة التي يقفان عليها، قال الراجبوتي:

- بل مختلفان يا عربي، أنا قد عدت إلى أرض أهلي، ووجدت ما طابت نفسي من الراحة ورغد الحياة وحظيت بزوجة رائعة وذرية سيحملون اسمي من بعدي.

ابتسم يونس وإن كان الأسى جليًّا على ملامحه:

- تقدم بنا العُمر كثيرًا، حتى إني نسيت أمر الزواج هذا، من الجيد أن يكون لك بنون وبنات يحملون اسمك ويذكرونك.

- وماذا عن ابنك؟؟

باستغراب تمتم يونس:

- ابني؟؟

عقد راما حاجبيه الكثيفين وغمغم:

- ألم تكن تعلم بأمر ما في رحم الدوقة ماتيلدا؟

- عن ماذا تتحدث أيها الراجبوتي؟

- حين هربت أنت كانت تحمل ولدك، جميعهم كانوا يعرفون هذا، لقد عانت كثيرًا من خذلانك وتركك لها، كانت يائسة وحزينة، لم تتخيل أن يكون هذا فعلك وقد منحتك كثيرًا، ربما هي سببٌ، ولها فضلٌ عليك لأن تبقى حيًّا حتى هذه اللحظة التي نقف فيها هنا، وبعد أن غادرت أنا بعدة أشهر وصلت لي أخبار أنها وضعت صبيًّا، ولعله صار ناضجًا الآن، قص أحدهم عليَّ أن أجراس الكنيسة ظلَّت تضرب بينما الرضيع يُعمد بداخلها، صار مسيحيًّا كأمه.

كان وقع الحديث على يونس صعبًا، ثقل لسانه وظل صامتًا محملقًا في وجه راما، الذي تابع ببرود:

- يبدو أنك لم تكن تعلم بالأمر، أقدِّر صدمتك ولكن عليَّ العودة إلى صفوف جيشي، إن لقاءنا قدرٌ كما قلت أنت يا عربي، وسعدت برؤيتك، فالحرب سيكون لها مذاق خاص؛ أتمنى أن تكون مبارزًا جيدًا في ساحة المعركة، الآن تساوت الكِفة، وكلٌّ منا حرٌّ نفسه وسيفه. وداعًا حتى يلتقي الجمعان.

تركه راما وامتطى حصانه، وبقي يونس لبرهة تائهًا في بحر لُجي، تتقاذفه أمواج بحر الذكريات والألم والشوق، له ابنٌ حقًّا؟؟ أم إن ذلك الراجبوتي يكذب؟! ولكن ماذا إن كان صادقًا، أي نذل أنت يا يونس! آه يا ابن أيوب المصري، كم أنت قاسي القلب حين تركتها تعاني! والآن وقد بتَّ تعرف أن لك ولدًا منها، ظن أن ما مر من العمر قد مضى بكل ما فيه، والآن تجدد الأمر في نفسه، صار تائهًا في بحر أفكاره من جديد، انتشله قدوم الخدم لفك أجزاء السقيفة، اعتلى صهوة مطيته، وعاد إلى صفوف جيش بابر، وعينا هاميون الشاب تتفحصانه، فلم يكن هذا وجه يونس الذي يعرفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شمس مشرقة وسماء صافية، وحقل مسَّه الربيع بجماله، زهور متفتحة وفراشات، عشب نضر سُقِيَ ببرد شتاء مازال عبير أثره في الهواء، حوض خانوه الشاسع مرعى بركان خامل على الرغم من السكون، حُمم تغلي على طرفيه، وكل جيش يجهز عدته للاحتدام، ستكون حربًا تقليدية، وكل طرف يراهن على نجاح خطته وتعزيز جبهته، وبينما كان الراجبوتيون يستقرون على الاقتراب من مدى مدافع بابر، كان الأخير يقوم بتقوية جبهته عن طريق مصدَّات وحواجز خشبية تم تثبيتها بواسطة سلاسل حديدية على الطِّراز العثماني، تُدفع وتتقدم بحركة الخيل والجنود، قلعة منيعة كأسلوب دفاعي لكسب مزيدٍ من الخطوات على رقعة الحرب، أما هجومه فكان عن طريق خروج الفرسان من الجهات اليُسرى واليمنى، لتوجيه الضربات على الخصم. رانا سانغا كان محاربًا تقليديًّا، يتقدم بحذر ويرسل كتائبه لمناوشة فرسان بابر، والأخير يستعرض قواته ببهاء يليق، تتقدم قلعته من العربات والدروع رويدًا على أرض المعركة، وأرض المعركة العاشبة كانت عائقًا أمام تقدُّم مدافع بابر، يضحك راما سانغا ويقول:

- اقترب أكثر أيها النمر الضال.

ساعات مرت وبابر مازال يتقدم أكثر بنظام لا مثيل له، تخلَّى عن مدافعه الثقيلة، وملك الراجبوت يحاول إنهاك عدوه بهجوم تلو الآخر، وكلما كان جيش ببر يتقدم يتمدد على طول الخط، بخطة عصيِّة على الفَهم، إنه يُهاجم عكس يوم بانيبت، وقد دعَّم مؤخرة جيشه بأفيال تجر عربات ذات حوامل خشبية مربوطة بحبال مصنوعة من جلود الحيوانات، وقاتل رانا سانغا مهاجمًا أجنحة الجيش المغولي، وتم منعه من الاختراق من قبل تعزيزات، وصارت المسافة بينهما تقِلُّ، وجيش الراجبوت في شوقٍ للقاء، صراخ وهياج ورغبة في القتال مرددين بحماسة:

- عاش الإله راما!

أما ملكهم فكان يتعجَّب جرأة بابر، ومنح الإذن للهجوم الكبير، ففي هذا الاحتكاك لن تستطيع مدافع المغول الضرب، تقدم بابر كثيرًا وانقض الراجبوت وحلفاؤهم الأفغان، وقلعة ظهير الدين صامدة، لم يهتز جدار البشر والخشب والحديد، ثبُت المشاة وأمطر الرماة جيش رانا سانغا الجالس فوق فيله

متابعًا ما يدور، وفي المعركة المستعرِّة كان راما الراجبوتي يقود عشيرته للهجوم على مَيْمنة المغول، قاتل بضراوة وبأس شديد ودخلت أفيال الأفغان لمساندته، في مواجهة هاميون وفرسانه، دماء وطين وأزهار الربيع دهستها سنابك خيل الحرب. تكوَّمت الجثث ولا هوادة في طلب الحياة، حارب راما ببسالة واستطاع أن يكسر دفاعات هاميون، رآه يونس الذي كان يُقاتل إلى جانب الأمير الشاب، كان هدفًا للراجبوتي الذي كان في موقفٍ صعبٍ، صار هو ورجاله وسط جيش بابر، وأفيال الأفغان من خلفه قد تم احتواؤها، ولكنه لم يتراجع، قاد جواده نحو موضع هاميون الذي كان منهمكًا في مبارزة أحدهم، وبينما الحصان يَركض وقد تسرب إليه غضب ممتطيه، ما كاد هاميون ينتهي من مهاجِمِه حتى وجد راما ينقض عليه، سقط الأمير الصغير عن صهوة فرسه أمام بطش راما الراجبوتي، الذي حاول دهسه تحت حوافر شيطانه الهائج، ولكن الفتى تدحرج بعيدًا، وما لبث أن تفاجأ راما بشخص يقفز محتضنًا إيَّاه ليسقطا معًا على الأرض، نهض غاضبًا ولم يفتَّ عضده ألم السقطة، خلع خوذته وألقاها بعيدًا وراح يتطلع لمُسقطه، يونس، ذو الدرع المميزة كان يطمئن على هاميون، سحب راما سيفيه وناداه:

- عربي!

التفت إليه يونس وراما يتابع وهو يتقدم نحوه:

- كم كانت ستكون هذه المعركة المملة دون مواجهتك.

أشهر يونس سيفه وشد بيد هاميون ليقف إلى جواره، وراما يتحرك بخفة بينهما:

- هذا عدلكم إذن!

وبدأ هجومه، كان يبارزهما معًا بمهارة ورشاقة، يتفادى ويصد ويضرب، وصليل السيوف وشررها جعل المعركة تهيج وتتأجَّجُ، مبارزة من آلاف الاشتباكات، أفيال تدهس وتطيح بمحاصريها، ورانا سانغا يرسل أفواجه تترًا، موج لا يتوقف على جيش ظهير المحتمي خلف الدروع صامدًا، بينما ميمنة جيشه ممزقة، مازالت راية هاميون تخفق فوق الرءوس، أراد أن ينزل رانا سانغا إليه، ولكن صاحب الفيل كان محاطًا بجيش كبير وينتظر أن تُفلِح هجماته في ضعف دفاعات بابر.

المبارزة اشتدت، يونس وهاميون يقاتلان راما، مهارة الأمير الشاب، وقوة يونس، لم يفلحا أمام رشاقة وبسالة الراجبوتي، كان يستهزئ بهما في الواقع، حتى جُرح الأمير الشاب في فخذه، تهاوى لوهلة كانت كافية ليقوم راما بركلة تُسقطه، ونجح يونس مرة أخرى في الذود عن أميره، تكفَّل ابن أيوب بمبارزة الراجبوتي حتى نهض همايون بمساعدة فرسان أبيه، حملوه بعيدًا ويونس وراما يدوران حول بعضهما بعضًا والأخير يحدث يونس ساخرًا:

- من سيدافع عنك الآن يا عربي؟

التقت أسلحتهما، في الوقت الذي دفع فيه رانا سانغا بقلب جيشه إلى المعركة، وميسرة جيش بابر تتصدع، وما أن رأى بابر ابنه سليمًا مُعافى حتى زأر:

- الله أكبر..

وكانت تلك لحظة إعلانه عن سلاحه الجديد كليًّا، صدحت بها الحناجر من حوله، وأمر عامر خان بالدخول إلى الميمنة ومحاصرة مَن اخْتَرَقها، أما هو فخرج على رأس قواته والأفيال التي تجر العربات معترضًا الطريق على رانا سانغا، دُهِش ملك الراجبوت ولكنه لم يتوقف، كان عازمًا على دهس ذلك النَمر العنيد، ولكن مهلًا إنه يَملك أفيالًا وعربات! وراء حاملاتها وُضِع مجموعات من الرجال، لم يرَ رانا سانغا مثل هذا من قبل، اصطدم الفريقان، سقطت الخيل، ودُهست الأجساد، عمَّ الهرج وسط الطين والدم، ويونس في الميمنة قد جُرح ذراعه وصدره، تتخطَّفه أطياف من ماضٍ بعيد وقريب، جميعهم حوله يهاجمونه، ويشتتون انتباهه بينما الراجبوتي عازمٌ على قتله، الغبار يخنق الهواء، والرجال يتساقطون من كل جانب، أفيال هائجة. ردَّدَ ببر مرة أخرى تكبيره، ليرفع رجاله من داخل العربات سلاحهم السري الجديد، كان رانا يعلم ماهيته وسمع بأمره، رآه مع البرتغاليين، بنادق اشتراها لتكون سلاحه الغاشم الجديد، دوى صوت البنادق بتتابعٍ مُفزعٍ زلزل قلوب جيش رانا سانغا، حتى فيله الضخم وقف على قائمتيه الخلفيتين وكاد أن يطيح بهِ، وانقَضَّ رجال بابر يصرعون من يقف في طريقهم، وراما يصيح فيمن حوله أن توقفوا ولا تتراجعوا، كان يعلم أن البنادق ستأخذ وقتًا حتى تضرب من جديد، كان قد رأى البرتغاليين يتعاملون بها، أفاق على يونس الذي انقض عليه هذه المرة على الرغم من إصابته، ولكن راما لم يواجهه، بل أطلق روحه للفرار، فمن خلف مبارزه كان جيش المغول قادمًا نحوه، وبرقت السماء القريبة من رءوسهم بوميضٍ رافقَ دويَّ البنادق، مدافع بابر قصفت طريق التَّراجع على جيش رانا سانغ المنسحب خوفًا، وارتفع الغبار مع الدخان يحمل رائحة البارود، وأصبح جيش بابر كرأسٍ سهم يخترق صفوف الجيش المبعثر، أعِدَّ تشكيل هجومي وراحت العربات ورجال البنادق تمضي قُدُمًا، حدثت زلزلة وانشقاقات في صفوف الراجبوت وحلفائهم، كلهم يفرُّون من زئير الببر المغولي، ولم يجد رانا سانغا وحلفاؤه إلا التراجع وقد لحقت بهم هزيمة كارثية، سقط فيله من كثرة الجروح والإعياء واضطر للهرب وسط رجاله مخزيًا مُغبر الوجه زائغ العينين، أما راما، فكانت المعركة خاسرة تمامًا، جَبُن هو الآخر وهرب كما فعل ملكه، لم يستطع حماية دورغا من الببر، فشل في تكذيب ما رآه في حُلمه، وخسر معركة غير عادلة من نظره، ونجى يونس وسلطان هندستان الجديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زُيِّنت حدائق قلعة أغرا بورد ربيع النصر، وعُلقت الرايات والبيارق بمختلف ألوانها، وعلَت تكبيرات العيد في الساحات والأسواق، توافد الأمراء والنبلاء من كل أنحاء هندستان، حملوا الهدايا قاصدين قصر الحُكم، أفغان وهنود وأتراك، مسلمون وهندوس، الجميع جاء ليشهد تنصيب السلطان المنتصر، وكان من العجيب في ذلك المرسوم الذي أصدره بابر بعد انتصاره في خانوه، «لا تُذبح الأبقار للاحتفال»، وكان لهذا أثرٌ بالغ في نفْسِ رعاياه من الهندوس، تجمَّلت أغرا وحَلقت المحفات فوق الرءوس، مملوءة بالحلوى والعطايا، وقرب القصر كانت الاحتفالات صاخبة، فرحة وبهجة وألوان زاهية، مكان ما كانت تَطِئه أقدامهم من قبل، وقد كان آل لودهي لا يُدخلُ عليهم إلا أكابر القوم، واليوم صار مفتوحًا على مصراعيه ليشاهد عامة الناس سلطانهم الجديد.

في قاعة العرش كان العمل جاريًا على قدم وساق، أشرف يونس على كل الترتيبات على الرغم من عدم اكتمال شفائه، جروحه مازالت حية، ولكنه أراد أن يكون حاضرًا، وعلى الرغم من آلام قلبه

وجسده تحامل على نفسه ليقف في هذا المشهد، يرفل في ثوب من كشميري ذي حزام مذهب، واعتمر عمامة عربية ذكرته بيوم أن وضع مثلها على رأس حبيبته، ذات يوم كان يونس آخر في غوا، والآن تغيَّرت الحال، وقد وجد السبيل إلى نصر عظيم، كما أراد حين خَرج من بيت أبيه ليلًا، جميعهم صاروا يعرفونه، وهو البطل الذي أنقذ هاميون بن بابر، وعلى الرغم من محبة الناس وعبارات الثناء، كان يونس حزينًا، ومازالت كلمات راما الراجبوتي تداهمه، تحسس لفافتين من الورق بجيب صدريته، ومشى بين الحاضرين يبحث عن شخصٍ ما، وتهللت أساريره حين رآه، التاجر العربي راشد، عناق وترحاب بالغ، ضحكات وتفاصيل منْ ذكريات عجَّ بها حديثهما، وما لبث يونس أن مد إلى يديه برسالتين، أخذ راشد اللفافتين منه ويونس يخبره:

- هذه ذات الختم البابري الأحمر، هي لأبي أيوب بن نوح المصري، ستجد من يدلك عليه في مرفأ القلزم بأرض مصر.. وتلك ذات الشريط الأسود والختم الأخضر، إلى غوا، تصل إلى يد الدوقة ماتيلدا دي غايا سيدة حصن أجودا.

سأله راشد:

- ما سبب تلك الأخيرة؟؟

- رسالة تأخرت في إرسالها كثيرًا.

- لا تقلق، هي في أيدٍ أمينة وستصل إلى وجهتها، ربت يونس على كتف الرجل، واستأذنه لتجهيز مجلس كتبة السلطان، سيكون عليهم تسجيل كل كلمة سينطق بها بابر، ليختتم بها الفصل الأخير من «بابر نامة»، جعل لهم مجلسًا عن يمين عرش السلطان وشماله، كان منشغلًا حين ظهر هاميون في كامل أبَّهته، كيف لا؟ وهو ابن القائد المظفر، اقترب دون حرسه:

- العم يونس، ألم يكن عليك أن ترتاح حتى تشفى جراحك.

- عم!! يبدو أن الهِرم قد بدى على ملامحي.

ضحك هاميون ذو الوجه الوضَّاء:

- لم أقصد هذا! على كلٍّ يجب عليك أن تتزوج حتى يصير لك بنون وبنات.

شَرد يونس لبرهة قبل أن يقول:

- ربما ليس الآن، فمازالت أمامي رحلة أخيرة.

- مازلت تفكر فيما قاله لك الراجبوتي؟ ربما هو كاذب.

- ربما كان عدوي وغريمي، ولكنه لم يكذب يومًا.

تطلع هاميون إلى محامل البخور التي راح الخدم يرصعون بها زوايا القاعة:

- حين هاجمنا ظننت أنه قاتلك لا محالة، كان مقاتلًا ذا بأس لم أرَ مثيلًا له من قبل، وتعجبت كيف يهرب وقد رأيت في عينيه أنه يبتغي الموت.

- لم يهرب، بل اختار ما رأته نفسه صوابًا، أراد الحياة فركض نحوها.

ابتسم الشاب وهو يتابع الخدم من الهندوس بعمائمهم البرتقالية يرفعون صواريَّ الأعلام:

- إن أبي أصدر مرسومًا بأن يُعَامل الأمراء والولاة مع رعيته سواءً، لا يفرقون بين مسلم وهندوسي، أخبرني الليلة الماضية أن حكم هذه الأرض سيكون عسيرًا إن فرَّقنا بين جموع الشعب، وإن أرض الهند تحوي كثيرًا من العقائد والطوائف المتباينة، وأن العدل هو سبيل المُلك وأساسه..

- والدك رجلٌ عظيم يا هاميون، وما يؤسسه الآن حكمٌ قد يدوم لقرون حتى يشاء الله، ابقَ إلى جواره وتعلَّم منه، لقد أرسل لملوك الكجرات وبيجابور وغيرهم رسائل تطالبهم بالولاء والخضوع، كُن معه وفي كنفه وسيكون لك شأنٌ عظيمٌ يا همايون.

- وماذا عنك يا يونس؟ سترحل؟!

- ربما، ولكن ليس الآن، سأبقى لبعض الوقت لترتيب بعض الأمور، وبعدها سأذهب.

- هل تشتاق إلى ولدك.

- لديَّ الرغبة في رؤيته كيف صار.

في تلك الأثناء، أبحرت سفينة برتغالية من ميناء غوا، تهادت فوق سطح المحيط، وهي تسدل أشرعة حمراء رُسِم عليها صليبٌ أبيضٌ كبير، بروية ونعومة راحت تمضي نحو المغيب، وبينما انشغل بحارتها كلٌ في عمله، ركض طفلٌ صغيرٌ بين الرجال والحِبال، بعث في النفوس بهجة ببراءة محيَّاه، جميل الملامح صغير الساقين، يقفز ويلعب غير آبهٍ بتأرجح الإبحار، وعلى صدره قلادة تحمل صليبًا ذهبيًّا صغيرًا، وعلى مقربة منه كانت أمه تلحق به، منادية:

- لورنسو! توقف عن تلك الأفعال! واحذر أن تقترب من الحافة!

التفت الصغير لينظر إليها بعينيه البندقيتين التي ورثها عن أبيه، كان جميلًا وقد ورث ملامح ماتيلدا الرقيقة، وسمرة أبيه وشعره وعينيه.. أسمته لورنسو ومنحته لقبَ عائلتها دي غايا، أخبرته أن والده قد مات قُبَيْل ولادته، وأنه ذهب إلى ملكوت الرب ولن يعود أبدًا.

أنهت كلماتها وانحنت لتحتضن الصغير حاملة إيَّاه، ضمَّته إلى صدرها والريح تتلاعب بخصلات شعرهما، قبَّلت جبهته، وفي روحها بُعثت ذكرى ظنت أنها قد تخلَّصت منها برحيلها عن غوا، ولكن لا أحد يستطيع نزع ما عَلق بالنفس، جاءت إلى أرض الهند بأحلام، وقضت فيها سنين تتأرجح بها سفينة الحياة، من حزن إلى مغامرة وحب وخذلان، وها هي تمضي راحلة عن تلك الأرض للأبد، وفي قلبها موضع خنجر غدر ممن وثقت به وأحبته.

دقت الطبول ونفخت الأبواق، ألقت النسوة بتلات الزهور والزنابق على الموكب الذاهب إلى حصن أغرا، موكب عظيم يتقدمه فيل أبيض عظيم، انسدلت عليه كسوة من حرير أخضر مطرز ومنسوج بالخرز الملون، وعلى ظهره هودج مطليٌّ بالذهب، يجلس بداخله ظهير الدين، حيَّا جموع الناس

مبتسمًا، ومن خلفه حملة الرايات وقادة الجيش وفرقه، دخل الفيل على مهل إلى حديقة قصر أغرا وسط صفين من النبلاء وعامة الناس، يهتفون باسمه: بابر! بابر! بابر!

وما لبث أن أوقف الفيل أمام باب القصر، ونزل الحيوان الضخم على ركبتيه رويدًا حتى جلس، جيء بسلم لينزل السلطان، عليه عباءة بيضاء مُطعمة بنقوش ذهبية، وعمامة من القماش ذاته، في منتصفها ياقوتة خضراء، مشى بين رجاله قبل أن يتوقف لبرهة أمام العرش.. خفض رأسه وتمتم بعبارات الحمد قبل أن يرتقي الدرج الرخامي. صعد وهدأت الأنفاس من حوله، وما أن استوى على الكرسي حتى نادى منادٍ:

- العز والمجد للسلطان المعظم والخاقان المكرم ظهير الدين محمد بابر!

وهتفت أغرا معظمة سلطان هندستان، ظل الهتاف يتكرر حتى نهض السلطان، بسط السكون بهاءه والعيون معلقة على سلطانهم، كان يونس فخورًا بموقفه هذا، ها هو حُلمه يتحقق، البر يرتقي عرشه، عظيم مهيب، ويكفي ابن أيوب المصري فخرًا أن كان له نصيبٌ من جواره ومصاحبته، تهللت أساريره ومُسح على قلبه ببرد أثلجه، جاء اليوم الذي تتوحد فيه أرض هندستان تحت راية إمام مؤمن عادل ومحارب لا سبيل لهزيمته. وزأر بابر ملقيًا على الجموع الغفيرة كلمات خطبة تتصيبه سلطانا على إمبراطورية مغول هندستان:

- الحمد لله الذي صدَقَ وعْدَه، ونَصَر عبدَه، وأعَزَّ جُنْده، وهزم الأحْزَاب وحْدَه. وصلى الله على خيْر خَلْقِه محمدٍ سَيِّدِ الغُزاة المجاهدين، وبعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الإهداء

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13